

طاهر زمخشري

حياته وشعره

تأليف

عبد الله عبد الخالق مصطفى

مدرس الأدب العربي

مطابع الصفا - مكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى نجلي هشام

أهدي لك هذه الكلمة لتكون نبراسًا

لك في الحياة "ثابر واجتهد لتحظى

بأمنياتك في الحياة

والدك

عبد الله عبد الخالق مصطفى

مقدمــة

إن أول دافع دفعني الى هذا البحث وهو دراسة حياة شاعر سعودى من الناحية الأدبية هو مقومات النهضة الأدبيـة التـي شملت النواحـي المختلفـة ــ وهـذه النهضة الأدبية وماأثمرت عنـه من نتائـج طيبـة كان رائدهـا الشاعـر « **طاهـر عبـد الـرحمن زمخشرى** » الـذي لم يتناولـه أحـد بالـدراسة الوافيـة سوى الأستـاذ عبـد الـــرحمن الأنصاري الذي قام بدراسة جزء يسير من شعره بعنوان « **ظاهرة الهروب في شعر طاهر زمخشرى** » في أحد دواوينه وهو « **أغاريد الصحراء** »

ولما كانت دراسة هذا الشاعـر تحتـاج إلى رعايـة واهتمام فقـد تنـاولت شعـره في جميع دواوينه المختلفة وآخرها « **عبير الذكريات** » وقسمت بحثى إلى أربعة أبواب .

الباب الأول : البيئة العامة وتشمل الحياة السياسية والحالة الاجتماعيـة والحالـة الثقافية .

الباب الثاني : حياة الشاعر ــ نسبه ــ نشأته ــ اتصالاته مع رجال العصر رحلاته .

الباب الثالث : الـزمخشرى الشاعـر ويشمـــل عوامـــل تكويـــن الشاعريـــة ــ أغراضه الشعرية ــ الظاهرة الاجتماعية في شعره .

الباب الرابع : الخصائص الفنية في شعر الشاعر .
ويشمل الأسلوب ــ العاطفة ــ الخيال ــ .

ولقد بذلت أقصى مافي جهْدي في استقصاء المراجع والدواوين الشعريـة الخاصة به ولا يفوتني أن أنوه بالمساعدات التي قدمتها لى مكتبة ــ جامعة الإمام محمـد بن سعـود الإسلاميـة ومكتبـة كليـة التربيـة بأبها ــ وكان جلّ جهـدى أن أظهـر هذا البحث واضحاً جلياً تبدو فيه معالم شعرنا الحديث متمثلة في شاعرنا النبيل « **طاهر زمخشرى** »

وإذا كان شاعرنا قد نبغ في هذا الميدان نبوغاً بارزا فذلك يرجع إلى عوامل تكوين الشاعرية عنده وهي الأساس في هذا البحث وخاصة العوامل التي تأثر بها في شعره ممثلة في مدرسة الديوان ومدرسة أبو لو والشعر المهجرى الذي يعتبر من أعلام « **إيليا أبو ماضى** » وقد تأثر به شاعرنا في شعره .

هذه المؤثرات كلها تعتبر تجديداً في شعر الحجاز عامة وفي شعر **طاهر زمخشرى** خاصة .

ولا يسعني في ختام هذه الكلمة الا أن أقدم جزيل شكري إلى كل من قدم لى عوْنا في أثناء إعداد هذا البحث وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور عبد الهادي حرب رئيس قسم الأدب بجامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية .

وإن قلمي ليعجز عن توفيته حقه ، فله جزيل الشكر ، وأسأل الله العلي القدير أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم .

وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ،،،

المؤلف

عبد الله عبد الخالق مصطفى

مدرس الأدب العربى

أبها — ١٤٠١ هـ — ١٩٨١م



الفصل الأول

حضارة البيئة - الحالة السياسية

حضـــارة البيئـة

هناك اتجاه لدى بعض الباحثين يرى أن دراسة الأدب يجب أن تكون بعيدة عن المؤثرات البيئية زاعما أن الوقوف عند هذه المؤثرات وفحصها قد يوحيان بأحكام مسبقة على الانتاج الأدبي المدروس ، وفي مقابل هذا الاتجاه النقدي نجد اتجاها آخر يقوم الدراسة الأدبية على أساس من الربط بين الانتاج الأدبي والبيئة — بل إنه يحاول أن يستشف صُوراً للمجتمع من خلال دراسة هذا الانتاج ولكنـى أفضل هذا الاتجاه — وكماً هُو معْروف أن الأدب ينتعش بانتعاش الأمة ، ويكثر الاقبال عليه في أزْمنة استقرارها ويزدهر في أيام رخائها — وحينما نقوم بدراسة الشاعر « **طاهر الزمخشرى** » الذي ملأ الدنيا شعرا ونشيدا ووهب حياته كلها في خدمة الحياة والمجتمع الذي يعيش فيه وخاصَّة وأنه تناول جوانب إجتماعية هامة نحاول في هذه الرسالة أن نوضحها توضيحا بارزا لتكون رَمزا خالدا في الأدب — ومآأحوج الطبقة المثقفة في المجتمع الذي نعيش فيه إلى أن يتعرف على المشاكل الاجتماعية ولوضع الحلول المناسبة لها . فالأدب مهما كان اتجاهه لابد وأن يكون متأثرا بالبيئة ومؤثرا فيها أحيانا — ولعل من المفيد طرْح بعض الأسئلة التي قد توحى باهتمام دراسة البيئة وهي :

هل إستطاع الشاعر « **طاهر الزمخشري** » في هذه البيئة أن يجد المكانة اللائقة به كي يستطيع التفرغ للعطاء والانتاج لخدمة المجتمع ؟

وهل استطاع هذا الشعر بدوره أن يترجم آمال المجتمع وتطلعاته ومطامحه ؟

ثم مانوع المناخ الثقافي والفكري الذي كان هذا الشاعر ينمو ويحيا فيه ؟

ولتوضيح ذلك كله نقوم بتوضيح هذا الباب ونقسمه إلى أقسام :

القسم الأول : البيئة السياسية .

القسم الثاني : الحياة العقلية وتشمل (التعليم والثقافة — المكتبات — الصَّحافة والاذاعة) .

القسم الثالث : البيئة الاجتماعية .

الحالة السّياسية

إن غرضنا من كتابة هذا الفصل هو ابراز الناحية الأدبية فقط لأن الأدب ينتعش بانتعاش الأمة ويكثر الإقبال عليه في أزمنة استقرارها ويزدهر في أيام رخائها .

ولقد ظل الحجاز على مدى عصور التاريخ وأطواره مطمح كل دولة اسلامية تريد أن تضفى على هيبتها مزيدا من الاحترام والمكانة الشرعية في قلوب رعاياها ومع هذا فقد عرف الحجاز فترة من العزلة المقيته أثرت على حياته الفكرية ، ومناخه الثقافي حتى أدّت إلى العزلة وإلى تأخر نهضته الأدبية حتى الربع الأول من القرن العشرين ، بينما كانت بقية الأقطار العربية الأخرى قد أخذت بأسباب النهضة الفكرية منذ القرن التاسع عشر ، فظهر فيها النشاط الثقافي نشرا وتأليفا وإحياء للتراث .

وينبغي أن أستعرض هذه العهود الثلاثة التي مر بها الحجاز وكان لها أثر على حياته الفكرية والأدبية وهذه العهود هي :

١ ـ أواخر العهد العثماني التركي : ويمكن تحديده بالفترة التي استطاع فيها الاتحاديون الأتراك أن يصلوا إلى السلطة سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨م في الآستانة ويفرضوا اتجاههم بالحكم وقد كان الحجاز حينذاك تابعا للدولة العثمانية التركية يتأثر بما يحدث لها من تقلبات سياسية .

٢ ـ العهد الهاشمي القصير الذي يبدأ بحركة الحسين بن على ضد الأتراك وانفصال الحجاز عن الدولة العثمانية سنة ١٩١٦ حتى جلاء الأشراف عن الحجاز نهائيا ١٩٢٥م .

٣ ـ أوائل العهد السعودي الحاضر الذي يبدأ من الحجاز ١٩٢٥م ثم اندماج الحجاز في الكيان الجديد تحت اسم (**المملكة العربية السعودية**) .

يقول[١] المؤرخ الحجاز المعاصر (حسين نصيف) : كانت الدولة العثمانية

---

(١) ماضى الحجاز وحاضره (حسين نصيف) ص ٨ .

ـ تجعل بجانب شريف مكة والياً من قبلها من الرجال العسكريين والاداريين ، وكان إليه الجيش النظامي والمحاكم وإدارة الأموال ، وعلى العموم كل مصالح الحكومة النظامية وكان العمل الرسمي للشريف يكاد ينحصر في شؤون البدو وماإليهم ولكن بعض أمراء مكة من الأشراف كان يتدخل في كل شيء ويستبد بشؤون الحكومة النظامية أو بعضها حسب قوة الوالى التركي وضعفه وحسب كثرة العنصر الحجازى من موظفى الحكومة الموالين الشريف .

ولقد نشأت من تغالب هاتين السلطتين متاعب كثيرة للدولة وللأهالي وضاع بسببه أموال كثيرة وحقوق فإنه لا يمكن أن تصلح فيها سلطتان عاليتان تسير كل منهما إلى اتجاه وتحاول كل منهما التغلب على الأخرى .

وجدة[1] كانت تابعة في شئونها الكبيرة لإمارة مكة وإن كان ذلك رسميا فحسب . أما في المدينة المنورة التي يبدو أنها كانت أكثر تنظيما فقد جعل العثمانيون في المدينة أربع سلطات .

١ ـ سلطة القضاء الشرعى ٢ ـ سلطة البوليس ـ للمحافظة على الأمن الداخلي ـ

٣ ـ سلطة الحاكم العسكرى للمحافظة على الأمن الخارجي ويتولى قيادتها محافظ المدينة .

٤ ـ سلطة شيخ الحرم النبوي وهي السلطة العليا التي ترتبط بها السلطات وهي التي تتصل بالآستانه ، ويشترط في القاضي أن يكون تركيا ـ ولمدة سنة ثم يبدل ـ وعمل في مشيخة الاسلام في استانبول وأن يكون تركيا[2] .

وهذه هي الحالة السياسية في العهد العثماني والتي كان عليها الحجاز وبالتالي فإنه لا يمكن أن يزدهر الأدب في تلك الفترة التي يتخللها الاضطراب السياسي ولا شك أن الأدب تعبير صادق عن حياة المجتمع .

ولقد توالت في مطلع هذا القرن الهجرى الرابع عشر[3] انتصارات الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي استطاع ـ رحمه الله ـ أن يؤسس

---

(١) تاريخ جدة لعبد القدوس الأنصاري ص ٣٧٨ (٢) تاريخ المدينة لعلى حافظ ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٣) دراسات في الأدب العربي على مر العصور د. عمر الطيب الساسى ص ١٢١ .

بما يشبه المعجزة ، دولة عظيمة كبرى في قلب جزيرة العرب ضمت أمجاد الاسلام ، وصانت قبلة المسلمين وكل مقدساتهم فاستبشر جميع العرب والمسلمين وسكان هذه البلاد ، ومفكروها وأدباؤها بصفة خاصة خيرا بقيام هذه الدولة الكبرى خصوصاً وأنهم لمسوا اهتمام مؤسس هذه المملكة رحمه الله بنشر العلم بين جميع أبناء هذه البلاد والشباب منهم بصفة خاصة ، وراحوا يزاولوا نشاطا أدبيا غير عادي .

وكانوا يعبرون في كل مايصْدر عنهم من أدب شعرا ونثرا عن طموحهم وماتصبو إليه نفوسهم من مجد ورفعة لبلادهم في كل مجال من مجالات الحياة والثقافة الواسعة بصفة عامة ــ وفي مجال الأدب بصفة خاصة .

وقد رحب الشعراء بهذا الكيان الجديد الذي يمثل عهد تطور وتحول نحو الحياة الجديدة فقال الأديب (محمد حسن عواد) :[1]

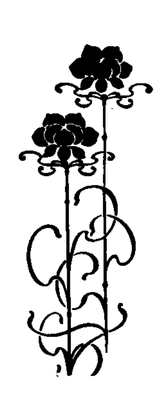
ياذا الجلالة والعنان القابض	والملك في كنف البلاد الرابض
هو ذا الحجاز عليه ملكك ساميا	يصل النجود بخرجها والعارض
وبحائل وقصيمها وتهامة	وعسيرها والشاطىء المتعارض
قطع يوحدها اللسان ويلتقي	فيها مجدد عهدها باابالفارض
وحدتها من الحكم ثم أعدتها	بالاسم واحدة حذار تناقض
فإذا بمملكة يحوط فناءها	ملك يصون الأمن غير معارض

ولقد كان للتطورات السياسية في الحجاز أثرها البالغ على حياة الأدباء والشعراء وقد كان أمل الوحدة العربية هو هدفهم النبيل فيقول الشاعر محمد حسن عواد :

هذي قلوب تصافيكم على أمل	يبني العروبة صرْحا ليس ينهدم
إن كان في سوريا من لفحة قبس	فبين أحشائنا من وقدة ضرم
وفي العراق ، ومصر أشعته	قوية في نفوس العرب ترتسم
وفي الشمال له تصفيق مغتبط	وفي الجنوب له الأرواح تبتسم
فالعرب في كل صقع نازعون له	ومدركون له ماتدرك الأمم

(١) ديوانْ نحو كيان جديد لمحمد حسن عواد ص ٢٢١ دار المعارف .

هذا جهاد الأماني فيه متعبه		وفيه نشوة إحساس لها نغم
نحيا له ، ونغذيه ، وبعثه		فى أى شكل يشاء العزم أو يسم
حتى نشيدها في الكوْن مملكةً		حكامها عرب ، حسادها عجم
ممتدة مِن أقاصى الشرق ضاربة		إلى النجوم بها الأرجاء تزدحم
تسود تحت لواء ليس يرفعه		إلا النظام وإلا العلم ، والألم



تباشير الأدب في عهد الملك عبد العزيز

ينتعش الأدب بانتعاش الأمّة[1] ، ويكثر الاقبال عليه في أزمنة اسْتقرارها ويزدهر في أيام رخائها ــ وكان مامرّ بالديار الحجازية والأصقاع النجدية من خمود الشعلة الفكريةالأولى .

وثانياً : الاضطراب المستحكم قبل زوال الحكم العثماني كافيا لخنق روح الأدب فيهما لولا ومضات منه كانت تشع بين آن وآخر في كلا طرفي الجزيرة . وبينما الحياة الجديدة تدب في نجد أيام ابتداء عبد العزيز يتوجه إلى التنظيم ، ويمهد للاستقرار كانت بوادر من يقظة « الأدب » تبدو في الحجاز بعد القيام على الترك ، وأخذ العالم يسمع أصواتا « خافته » من القطرين ليست هي الأدب المعهود فيهما ولكنها من تباشير الأدب المأمول . وكان من ثمر اتحاد البلدان على يد الملك عبد العزيز آل سعود أن ظهرت طائفة من الأدباء يشدون بالشعر لأن الشعر هو الوسيلة التي يعبر بها عن روح أبناء الأمة .

أدب الحجاز : ولقد سارع أدباء الحجاز إلى تدوين ماأثمرته نهضتهم الناشئة ، فكان محمد سرور الصّبان أول من فتح هذا الباب فيهم ، فجمع كتيبا مفيدا في ٨٨ صفحة سماه « أدب الحجاز » وحلّاه بمختارات من نظم عبد الوهاب آشي ، ومحمد حسن عواد ومحمد عمر عرب ، ومحمد سعيد العامودي ، وآخرين وختم بترجمة لنفْسه أورد لها نماذج من نظمه ونثره . وصدر بعده كتاب « وحي الصحراء » تأليف محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بلخير من ٤٠٨ صفحة اشتمل على تراجم ومختارات نظما ونثرا الأثنين وعشرين من الأدباء وشداة الأدب ، تقدم ذكر بعضهم في كتاب الصّبان منهم أحمد ابراهيم الغزاوي (شاعر الملك) وأحمد السباعي (مؤرخ مكة) وأحمد العربي وأمين بن عقيل ، وأحمد قنديل ، وحسين سراج ، وعبد القدوس الأنصاري (صاحب مجلة المنهل) ، وظهرت طبعة أخرى من الكتاب عرفت بآثارها كأحمد عبد الغفور العطار

---

(١) شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز ص ٦٧٣ ص ٦٧٤

صاحب صقر الجزيرة وعبد الله عريف رئيس تحرير البلاد السعودية وهي أرق صحيفة يومئذ ظهرت في البلاد وحسن محمد نصيف مصنف « ماضي الحجاز وحاضره وبدأ نبوغ الشاعر طاهر الزمخشرى »

ولو أردنا أن ندرس[٣] هذه الظاهرة المتمثلة في اصْدار كتب جماعية مشتركة لوجدنا أن السبب في ذلك يرجع إلى تخوف أولئك الأدباء من الظهور فرادى ظنا منهم أن مستواهم أقل من مستوى غيرهم من معاصريهم وهو ولا شك ظن له مايبرره ، رغم أن ذلك النتاج المطبوع يؤكد وجود عناصر قوية كان بامكانها الوقوف موقف النّد مع غيرها من الأدباء العرب المعاصرين وهذا يؤكده شجاعة بعض أولئك الأدباء في طبع نتاجهم مستقلا ومن أمثلة ذلك : الأستاذ محمد حسن عوّاد الذي يعتبر أول من انفرد بتأليف كتاب واصْداره بمفرده من الأدب العربي السعودي ، وكتابه ذلك « هو خواطر مصرّحة » الذي حمل بخواطر نفس شبابه طموحه إلى أقصى درجات الطموح متحمّسة أشد مايكون التحمس للأخذ بأسباب التجديد لتطوير الحياة في كل مجالاتها ، والأدب واحد بطبيعة الحال ويصف العوّاد كتابه هذا وماحمله من خطرات وخواطر فيقول فيه : « إنه عبارة عن قطعة مجسّمة من بشرتي وشخصيتي خلقتها نفس من انفعالاتها بالحياة الانسانية التي عبرت عنها صورها المشهورة والمحجبة انفعال بلورة الفكر والعاطفة والإرادة والخلق وسائر أشعة النفس » .

والعواد يعتبر أكبر داعية إلى التجديد في الأدب في هذه البلاد بدون تحفظ وهو صلب في المواقف التي يدعو إليها ويؤمن بها مثل قضية « الشعر الحر » الذي يؤيده رغم رفض غالبية شعراء طبقته له . والعواد متأثر بالمذهب الإنساني من الأدب ويمازج في شعره كثيرا بين الواقعية والرومانسية ، ومن أمثلة ذلك قصيدته المنشورة في كتابه « رؤى أبولون » بعنوان « ذكرى أو في أعقاب الهوى » والتي قال وهو يتحدث عنها وعن مزاوجته بين الخيال الفنّي والواقع الحقيقي فيها يقول العواد :

---

(١) دراسات من الأدب العربي المعاصر ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، د. لعمر الطيب الساسى .

ياصفي الأمس يا باعث أطيافك في جنح الليالي
زمرا تحشدها الذكرى بأحلامي ، فما تترك باكى
واصلتني في صباحي ومسائى ، نغما أحيت خيالي
كلما مثّلها الحب المولى همست ، سكرى قبالى
أنا من تعْرف صدقا ووفاء في الهوى أو في الضلال

والشعر[٤] في أدب هذه البلاد هو أهم مايشتغل به أدباؤه ، ويبدو أنه بسبب عنصر الوراثة ، حيث أن هذه البلاد كانت الموطن الأول للشعر العربي منذ أقدم العصور . وقد صدرت كتب كثيرة تحمل نماذج شعرية لمجموعات من الشعراء منها كتاب « الشعراء الثلاثة » الذي ضم نماذج لأشهر شعراء الحجاز في مطلع هذا العصر وهم : محمد حسن عواد ، وحمزة شحاته ، وأحمد قنديل ، وقد جمع هذا الشعر وأصدره الأستاذ عبد السلام طاهر السّاسى ثم أعقبه بكتاب « شعراء الحجاز في العصر الحديث » الذي ضم إنتاج سبعة وعشرون شاعرا جعل في مقدمتهم الشيخ « محمد سرور الصبّان » ومن أشهر هؤلاء الشعراء أحمد بن إبراهيم الغزاوى ، ومحمد حسن فقي ، ومحمد حسن عواد ، وحمزة شحاته وحسين عرب ، وطاهر الزمخشري الذي يعتبر من أمْجد شعراء الحجاز فهو شاعر غنائي مرهف الحس ، يذوب رقة وعذوبة حتى عندما يعبر عن الأسى الذي يعتصره ، والألم الذي يعذبه .. وهو شاعر غزير الإنتاج له دواوين كثيرة ، وشعره من عيون الشعر العربي المعاصر ـــ ولقد استطاع أن يتخطى حدود بلاده ويحقق شهرة واسعة في كل مكان لم يستطع غيره أن يوصل اسمه إليه والشاعر طاهر الزمخشري شخصية اجتماعية محبوبة اشتهر بلقب « بابا طاهر » لأنه كان يقدم برنامج « الأطفال في الاذاعة العربية السعودية في بداية تأسيسها ، ويدين له كثير من شباب هذه البلاد من وزراء ووكلاء وزارات وأساتذة وغيرهم يدينون بالفضل للأستاذ طاهر الزمخشرى لأنه وجههم التوجيه الأدبي المناسب في مقتبل حياتهم .

---

(٤) دراسات في الأدب العربي السعودي ص ١٣٨ ، ١٣٩ د. لعمر الطيب الساسى .

وتقوم فلسفة الزمخشري التي يمكن استخلاصها من شعره ، على أنه لا سبيل للفنان في هذه الحياة إلا أن ينتصر على أحزانها وآلامها ومآسيها ، وأن يستشعر السعادة رغم مايصْدر عنه من تعبير تلقائي عن المآسي تبوح من نفس الفنان بصدقه وحسّه المرْهف ، وقد لخص الزمخشرى ذلك في كثير من مقطوعاته الرائعة ، ولعل أكثرها تعبيرا عن فلسفة الاستعلاء على الأسى والألم والانتصار على العذاب باستشعار السعادة رغم التعبير التلقائي يصْدر عن النفس المعذّبة الصافية .

يقول وهو يفتتح ديوان « ألْحان مغترب »[1]

فؤادي لم يعد إلا بقايا ... من الآهات في صدري تنوح

ويخفق كلما هتفت شجون ... ويصْدح كلما انتفضت جروح

ويذرع مسْهدا سود اللَّيالي ... وفي آماد غربته يسوح

وحسبى أننى أحيا سعيدا ... وأنفاسى بما أطوى تبوح

إنها كبرياء الفنان الأصيل على كل مايتعرض له في الحياة العادية من عذاب يصرع بسعادته التي يستشعرها رغم ماتبوح به نفسه من التعبير عن تباريح الألمْ .

وأيضا نجد هذه الفلسفة التي يمكن استخلاصها من شعر طاهر الزمخشري في قصيدته الحياة من ديوانه « عودة الغريب » وفي هذه القصيدة يتحدث الشاعر فيها منهجه وأمله في الحياة وأنه يتخطى الصعاب لطلب المجد والرفعة — ونحن نجد في هذا الشعر لمسات من الوجدان وألوانا من التعبير تقربه من طبيعة الشعر الرومانسي في جانب من جوانبه حين تشبث الشاعر بالماضي ويحن إلى مواطنه الأولى واصلا بين مشاعره وإحساسه بالحياة ومافيها يقول شاعرنا في قصيدته « الحياة » .

عشت لا أرتضي لنفسي هوانا ... لا ولا أقبل الحضيض مكانا

لا ولا ألبس المذلّة سِرْبَالاً ... ولو ناشني الأذى ألوانا

وبنفس من الرضا أفياء ... وهي تمتد بالسَّنا فينانا

وبعيني من رؤاها وميض ... أتملى من الحياة جنانا

في الروابي ألمح أمجا ... دا لادراكها عبرت الزمانا

---

(١) ديوان « عودة الغريب » لطاهر الزمخشري ص ٣١ .

وهي تختال في مطارفها البيض وآمالها تشع حسانا
وبها أسكب الخوالج شدْوا ولها أثر الحنايا بيانا
وهي في خاطري وفي أعماق احسا سي أمان تفيض مني حنانا
وهي في حبة الفؤاد رواء ولها أقطع المدى تيهانا
وعلى حبها وقفت حياتي كيف بالله ترتضى أن أهانا
كيف يرضى لى الهوان نضال غال عمرى وماقضيت اللّبانا



بلاد الحجاز

الحجاز[1] مفهوم عند علماء المنازل والديار القدامى : هو سلسلة جبال السروات المقبلة من اليمن إلى قرب الشام الحاجزة بين نجد وتهامة ــ فما سال من قمم ــ هذه الجبال مغربا ينصب إلى تهامة ، وماسال مشرقا ينصب إلى نجد ، بعد أن يحسر الجبال خلفه من الجهتين .

أما مااشتملت عليه هذه الجبال من مدن وقرى وسكان فهو حجازى .. قال ياقوت : (والحجاز جبل ممتدّ حال بين الغور غور تهامة ونجد فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر فهو حاجز بينهما . وقال الأصمعي : إنما سمي حجازا لأنه يحجز تهامة ونجداً ، فمكة تهامية ، والمدينة حجازية ، والطائف حجازية .

هذا هو المتعارف عليه قديما ولا يزال على ألسنة البادية وسكان الجبال وبعض سكان المدن الحجازية فاذا قلت لساكن هذه الجبال وأنت في مكة أو جدة أو المدينة : أين أهلك ؟ أو من أي البلاد أنت ؟ قال : من الحجاز .

ولقد توسع أخيرا في اطلاق هذه التسمية وشملت مكة وجدة والمدينة وينبع والليث ومابينها وماجاورها يمينا وشمالاً .. فأصبح اصطلاحا متعارفا عليه وحقيقة لا مشاحة فيها . ولعل سبب هذا الاطلاق شمولها جميعا بادارة موحّدة مركزها مكة منذ تمت التقسيمات في البلاد العربية ــ ولقد تغنى الشعراء بالحجاز ، وحنوا إلى رحابه ، وتشوقوا لبطاحه . قال الأشجع بن عمرو السُّلمى :

بأكناف الحجاز هوى دفين ... يؤرقني إذا هدت العيون
أحن إلى الحجاز وساكنيه ... حنين الإلف فارقه القرين
وأبكي حين ترقد كل عين ... بكاء بين زفرتيهْ أنين
فإن بعد الهوى وبعدت عنه ... وفي بُعْد الهوى تبدو الشجون
فأعذر من رأيت على بكاء ... غريب عن أحبته حزين
يموت الصَّب والكتمان عنه ... إذا حسن التذكر والحنين

---

(١) المجاز بين اليمامة والحجاز (عبد الله بن محمد بن خميس) ص ٣٢٨ .

وقد تعالت أصوات الشعراء بالحنين إلى الحجاز والشوق إليه ـ قال أحد الشعراء :[1]

كفى حزنا أني في بغداد نازل ... وقلبي بأكناف الحجاز رهين

إذا عنَّ ذكر للحجاز استفزني ... إلى من بأكناف الحجاز حنين

فو الله مافارقتهم قاليا لهم ... ولكن مايقضى فسوف يكون

وقال شاعر آخر :

سرى البرق من أرض الحجاز فشاقني ... وكل حجازى له البرق شائق

فوا كبدي مما ألاقي من الهوى ... إذا جنَّ ليل أو تألق بارق

ومما جاء في الأثر قول الرسول ﷺ : « إن الدين ليأرز إلى المدينة كما تأرِزُ الحيَّةُ إلى جُحرها ,وليعقلن الدين من الحجاز مقعل الأرومة من رأس الجبل ، الحديث[2]



(١) المجاز بين اليمامة والحجاز لعبد الله بن محمد بن خميس ص ٣٣٠ .

(٢) الحديث وارد بصحيح الترمذي .

الفصل الثانى

عمل المرأة - مفهوم الحرية عند أدعياء تحرير المرأة - مفهوم الحرية - حجاب المرأة - زواج المرأة - الإسلام وتعدد الزوجات - مكانة المرأة العربية عند الشعراء - الحالة الاقتصادية



الحـالة الإجتمـاعيـة
(مجتمع الحجـاز)

تُؤثِّـر الحالَـة الإجْتماعيـة تأثيراً بالغـاً على الناحيـة الأدبِّيـة ولقـد اسْتطـاعَ المجتمـع الحضري الحديث على مدى الأيـام أن يكـون ملامح بارزة خاصة تمثلت في بيئتــه الإجتماعية ونشاطـه الثقـافي والفكـري ، وكان هذا المجتمـع أسبـق من غيره في قلب الجزيرة إلى الأخذ بأسباب النهضة الحديثة حينما توافر لها بعضها في أعقاب التخلص من الحكم العثماني التركي ، الذي كان عاملا من عوامل التخلف بشتى مظاهـره في الحجاز ــ يقول الأستاذ محمد حسن فقى عن سيرة الحكم التركي في الحجاز « أما الحجـاز فكـان عندهـم أى الأتـراك قطـرا مقـدّسا يجب أن يعـيش في أنماط حياتـه وطرائق تفـكيره وأسالـيب معـايشة كما عاش المسلمـون في القـرْن الأول الهجـري ، ويجب أن يتفرغ أهله للدعاء للخاقانات العظام من آل عثمان بدوام النصر والتأييـد ، ومن أجل تمكين هذه النظرية السقيمة أغدقوا أى الأتراك العثمانيون على الحجازيـين من الميراث والصدقات ماأغناهم عن السَّعى في طلب الرزق من طرقه المشروعة من جهة ، وماجعلهم من جهة ثانية أسارى « احسان الدولة العليّة ... ومن أجـل ذلك نشأ الحجازيون كسالى قاعدين عن طلب الـرزق والتماس أسبـاب المجد والتطلـع إلى حياة كريمة مستقلة »[1] .

ومما تجدر الإشارة إليـه في هذا الصّدد أن الحجـاز كان ولا يزال مهـوى أفئـدة المسلمين من شتـى أنحاء المعمـورة ، وبسبب هذه الميـزة الخاصة التي تمتـع بها منـذ بزوغ فجر الإسلام تعرضت أحوال المجتمع الحضري فيه إلى تأثيرات مختلفة في شتى مجالات حياته ، ولقد شهد الحجـاز نوْعـا من العُزْلـة السِّياسيـة في كثير من أطـوار تاريخه ولكن مع ذلك ظل محتفظا بتعـاقب وفـود الحجيـج عليـه في كل عام ، وقـد كانت تلك الوفود من الحجـاج ــ ولا زالت تأتى لأداء الفـريضة الاسْلاميـة وهـي بذلك تفيد الحجاز وأهله اقتصاديا ، فتنتعش الحركة التجارية فيه ، وينتفع الناس بما

---

(١) مجلة المنهل عدد ذى القعدة ص ٤٩١ .

يفتح لهم من أبواب الرزق ، ولكن بجانب أداء الفريضة تجد بعض الوفود القادمة أن لم يشف ظمأه الروحى إلى المآثر الاسْلامية في تلك الأيام المعدودات فيطيب لهم البقاء في جوار تلك المقدسات الإسلامية ، وهكذا يمضي الزمن الطويل[1] بهم[2] وهم يزدادون عدداً وأنفسا حتى لا يلبثوا على مرّ السنين أن يشكلوا جزاءا من كيان الحجاز ، ويكونوا طبقة في بنية المجتمع ، يطبعهم الحجاز بطابعه كما يؤثرون هم في حياته ، وبجانب هذا العامل الديني في الهجرة إلى الحجاز نجد عاملا سياسيا آخر كان من أسباب الهجرة وإليه ، وأعني ظهور حركة الاستعمار الأوربي في آسيا وأفريقيا فهذه الحركة الاستعمارية الزاحفة على شعوب القارتين بطغيانها حملت بعض المسلمين المستضعفين على ترك أوطانهم هربا من الأحوال القاسية التي تعرضوا لها تحت نير الاستعمار واتجهوا إلى الحجاز كى يجدوا حياة الطمأنينة والاستقرار من ناحية ، ويشبعوا نهمهم الروحي إلى مقدساتهم من ناحية أخرى .

ويستطرد الأستاذ السباعي قائلا : « وفي استطاعتنا أن نقول إن مجموعة الأجناس والجاليات أثرت في تكوين طابع مكة حتى إذا استقام ذلك الطابع استطاع أن يدفع جميع القاطنين المجاورين بدفعة واحدة يبدو أثرها في أكثر تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم وطريقة حياتهم .. وهكذا كان الشأن في جمع ذلك مما يتعلق بالمدينة أو جدة .

وإذا كان الأستاذ أحمد السباعي قد اكتفى بالتّنبيه إلى ظاهرة الهجْرة والمهَاجرين وآثارهما في الحجاز فإن الأستاذ « ابراهيم هاشم فلالى » أحد الشعراء المعاصرين قد سبق إلى التحدث بلهجة أكثر وضوحا حين عرض للحديث عن أثر تلك الظاهرة في حياة مجتمع الحجاز[3]

ومهما يكن من أمر فإن المجتمع الحضري الحديث في الحجاز استطاع على مدى الأيام أن تكون له ملامحه وصفاته الخاصة به التي تميزه عن غيره .

---

(١) تاريخ مكة لأحمد السباعي الجزء الثاني ص ١٩٣ ــ ١٩٤ .

(٢) تاريخ مكة للأستاذ أحمد السباعي الجزء الثّاني ص ١٩٤

(٣) مقالات أحمد عبد الغفور عطار ص ١٥٨

عمل المرأة

لقد تساءل فريق من الأدباء : هل يمكن أن تعمل المرأة السعودية إذا أنهت تعليمها ، ونالت الشهادات ، وحصلت على المؤهلات كما تعمل المرأة « الأجنبية » وفي أى المجالات تعمل المرأة ؟ وانقسم الجواب تبعا لانقسام العقليات والثقافات . ففريق مانع من عملها ممانعة مطلقة دون قيد أو شرْط ، ورأى من العيب أن يخدم الرجل سواه لأن في ذلك معرّة وعيبا ، والمفروض أن يخدم الآخرون سواء أكانت خدمته عن طريق الوظيفة العامّة في الدولة أم لم تكن كذلك .

وقد ذكر الأستاذ/ محمد بن عبد الله بن سليمان في كتابه عن « حقوق المرأة في الإسلام » فقال[1] : « إن التوزيع الطبيعي في الوجود يقتضى أن يكون عمل الرجل الطبيعي خارج البيت ، وعمل المرأة الطبيعي في الداخل ، وكل من قال غير ذلك فقد خالف الفطرة وطبيعة الوجود الانساني وذلك لأن البيت هو المكان الطبيعي الذي تتحقق فيه وظائف الأنوثة ، وثمارها وأن بقاءها فيه بمثابة الحصانة التي تجنب تلك الخصائص ، وقوانينها ، أسباب البلبلة والفتنة ، وتوفر لها تناسقها في مجالها ، وتحيطها بكثير من أسباب الدفء والاستقرار النفسي والذهني وسائر مايهيىء لها الظروف الضرورية لعملها[2] .

وقد لحظ أئمة الفقه والتفسير ، أن البيوت مضافة إلى ضمير النسوة في قوْله تعالى : « **لا تخرجوهن من بيوتهن** » وفي قوْله تعالى « **واذكروا مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة** » وفي قوله تعالى « **وقرْن في بيوتكن** » مع أن البيوت

---

(١) حقوق المرأة في الإسلام محمد بن عبد الله بن سليمان ص ١٤٠ .

(٢) الاسلام المعاصر والمرأة المعاصرة أمين الخولى ص ٢٤٤ .

للأزواج ، لا لهن وخرجوا من ذلك بأنها ليست إضافة تمليك بل إضافة « إسكان » تقررت لاستمرار لزوم المرأة إلا لحاجة ، حتى أضيف إليها .

وقد قال الأستاذ العقاد[1] في هذا المعنى : « وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنا ، ولا بأخطر عاقبة ، من سياسة البيت ، لأنهما عدْلان متقاربان ، عالم العراك والجهاد يقابله عالم السكينة والاطمئنان وتدبير الجيل الحاضر ، يقابله تدبير الجيل المقبل ، وكلاهما في اللزوم ، وجلالة الخطر سواء .. ولولا مركب النقص في المرأة ، لكان لها فخر بمملكة البيت ، وتنشئة المستقبل فيه ، لا يقل عن فخر الرجل بسياسة الحاضر ، وحسن القيام على مشكلات المجتمع ، وإنما كانت الآفة كلها من حب المحاكاة ، بغير نظر إلى معنى المحاكاة » .

فكل من الرجل والمرأة مسئوليته ، واختصاصه في بناء هذا المجد ، كما قسمّ الله بينهما ، وكل من هذين الاختصاصين بهم ، ولا يمكن أن يحقر منه أو يهوّن من شأنه أو يستغنى عنه فالرجل إلى الانتاج وتنمية الثروة وكسب الرزق وحماية العرين والمرأة إلى الأسرة إلى عمل أشق تحمل الجنين وتلد وترضع وتربي وترعى الزوج والولد وتمرض وتدير شئون المنزل وتثمر السكن والمودّة والرحمة ، وتبذل من ذوات نفسها وجهدها الحسّي ماتبذله لتوفير للزوجية الأمومة ظروف عمليها الملائمة .

والقرآن الكريم[2] قد أرسى القاعدة الأساسية لسلوك المرأة في هذا الخطاب الإلهي حيث يقول الله سبحانه « **وقرْن في بيوتكن ولا تبرجنّ تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله[3]** » .

ورأيى في ذلك أن التفرغ لوظيفة الأُمومة ، ومؤازرة الرَّجل بأداء النصف الداخلي في أعباء الحياة هو أساس الحياة الزوجية السعيدة وماعلى المرأة من حرج أن تأخذ المرأة قسطا وافيا من العلم لكي تستطيع فهم ظروف الحياة وحتى تستطيع

---

(١) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٥٤ .

(٢) ماذا عن المرأة د. نور عتر ص ١٣٥ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم (٣٣)

أن تربي جيلا متعلما يستمد القيم والمبادىء السامية من البيت لأنه أساس التربية السليمة للجيل الجديد الذي هو عدّة المستقبل .

وفريق آخر من الأدباء لم يمانع أن تعمل المرأة طبيبة للنساء ، أو ممرضة لهن ، أو معلمة للبنات بشرط أساسي هو ألا يراها رجل ، ولا ترى رجلاً .

وقد كان الشاعر طاهر الزمخشري يؤيد هذا الاتجاه في كثير من قصائده كما سيأتي .

إن ماذكره الأستاذ سعد الدريبي[1] في كتابه « فتاة الجزيرة » هو رأى معتدل قريب إلى الصواب حيث أنه لم يمانع في أن تعمل المرأة طبيبة للنساء ، أو ممرضة لهن أو معلمة للبنات بشرط أساسي هو : ألا يراها رجل ، ولا ترى رجلا — وإننا بإزاء هذا الرأى نرى أنه يمكن تقسيم عمل المرأة إلى قسمين لمعرفة الحكم الشرعي في هذا الموضوع :

القسم الأول : أعمال تمسُّ فيها الحاجة إلى المرأة خاصة كالتوليد والطبابة للنساء عامة، وللأمراض النسائية بصفة خاصّة ، والتعليم بمدارس البنات ونحو ذلك ، فمثل هذه المرافق ينبغي أن تقوم طائفة من النساء بسدّ حاجة المجتمع إليها ، طبقا للقاعِدة الشرعية التي تقرر أنه يجب على الأمة أن يقوم من أفرادها بسدّ ثغرة الحاجة في كل مرفق من مرافقها ، وهذا يندرج في الواجب الكفائى ، وهو الذي يسقط عن الجميع إذا قام به البعض ، وسدّ الحاجة كالجهاد والدفاع ضد الأعداء .. وإذا حصل النقص أمكن لولى أمر الدولة المسلمة أن يلزم طائفة من النساء تصلح لسدّ النقص ويجندها لهذا الواجب الاجتماعي .

القسم الثاني : أعمال يقوم بها الرجال ولا تتوقف الحاجة فيها إلى النساء كالتجارة ، وكالعمل في المصانع للغزل أو النسيج أو العمل في الزراعة وفي دوائر الدَّولة — فهذه الأنواع من العمل يقوم بها الرجال دون النساء — ويشترط في العمل أن لا يخرج على العرْف ولا على طبيعة المرأة وحين تتشبه بالرجال وتختلط بهم وتقتحم جنس الرجولة ، وذلك عملا بقوله ﷺ : « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء .

(١) فتاة الجزيرة لسعد الدين الدريبي ص ١٠

وفريق ثالث رفع صوْته مطالبا بحريتها المطلقة في اختيار العمل الذي تميل إليه ، وترغب فيه دون أن يمنعها من ذلك مانع ، ورغب في أن تكون مهندسة أو طبيبة للرجال والنساء وموظفة في دائرة عامة ، تعامل الرجال ويعاملونها مادامت تتحلى بالفضيلة والخلق الحميد[1] ومن دعاة هذا الرأى الأديب (محمد حسن عواد) .

ولتنفيذ هذا الرأى نذكر ماقاله الأستاذ « محمد بن عبد الله بن سليمان » في كتابه « حقوق المرأة في الإسلام » (إن هناك بعض الظروف التي تضطر إليها المرأة المزاولة العمل مثل خصاصة قيم الأسرة أو ضآلة معاشه أو مرضه أو عجزه أو سبب آخر يكون من هذا القبيل . حينئذ يكون الخروج من البيت ضرورة لابدّ منها . وقد راعى الاسلام هذه الضرورات فأباح لذلك خروجها من البيت ، والبحث عن مصْدر الرزق تقضي به حاجتها وتسد عوزها ، على أن يكون في مجال الأعمال المشروعة التي تحسن آداءها ، ولا تتنافى مع طبيعتها ، وأن تؤديه وهي في وقار وحشمة وفي صورة بعيدة عن مظان الفتنة ، وألا يكون من شأن العمل أن يؤدى إلى ضرر إجتماعي أو خلقي أو يعوقها عن أداء واجباتها الأخرى نحو زوجها وأولادها وبيتها ، ويكلفها مالا تطيقه ولا تخرج في زيها وزينتها ، وستر أعضاء جسمها واختلاطها بغيرها أثناء أدائها لعملها في الخارج عما سنته الشريعة الاسلامية في هذه الشئون[2] .

هذا هو هدى الإسلام في عمل المرأة ــ أما إباحة الفرصة للمرأة للعمل إباحة مطلقة كما ذكر ذلك الأديب (محمد حسن عواد) فذلك مما يتنافى مع الشريعة ومع الفطرة السليمة التي فطر الله عليها المرأة ، ويتنافى مع رسالتها الأساسية في الحياة ومعطل لأسمى خصائص المرأة ووظائفها الطبيعية والإجتماعية ومعطل لقوامة الرجل على المرأة .

مفهوم الحرية[3] عند أدعياء تحرير المرأة :

لقد نبع مفهوم الحرية الشخصية عند المنادين بالحرية والتحرر في بلاد الاسلام

---

(٢) حقوق الانسان في الاسلام ــ على عبد الواحد وافي ص ٢٥.

(٣) حقوق المرأة في الاسلام ــ محمد عبد الله بن سليمان ص ٢٢٦ .

فيتصورونها كما هي عند الغربيين بأنها الانطلاق بلا قيد والتحرر من كل ضابط ، والتخلص من كل رقابة حتى ولو كانت تلك الرقابة نابعة من ذاته هو من ضميره ، فلتحطم وليحطم معها الضمير إن احتاج الأمر ، حتى لا يقف شيء في وجه استمتاعه بالحياة ، وحتى لا تفسد عليه نشوة اللذة ومعنى هذا ترك الانسان وشأنه يفعل مايشاء ويترك مايشاء وهكذا بدون قيد ولا ضوابط ولا رقابة ، وعلى المجتمع أن يسلم بذلك الحق ، وعلى الحكومة أن تحافظ على تلك الحرية وتحميها .

هذا هو مفهوم الحرية وهو صورة طبق الأصل من مفهوم الحرية في الغرب فلا دين يحكم النفوس ويكبح جماحها ولا أخلاق تهذب طباعها وتوقظ مشاعرها وتثير فيها روح النخوة والغيرة والإباء ولا مثل ولا فضائل تقاس على أساسها الأعمال خيرها وشرّها ، ولا حياء يمنع من ارتكاب الشطط والمجاهرة بالمنكر . ولا ينبغي أن يكون شيء من ذلك لأنه من الماضي ، وكل ماهو من الماضي فهو عقبة في طريق التطور والتقدم — ولما كانت المرأة عاملا أساسيا وعنصرا هاما في تحقيق مفهوم الحرية هذا ، فقد وجّهوا جل اهتمامهم إليها ، وعَملوا على تكييفها للدور الذي يردون أن تقوم به . فأخرجوها من البيت باسم الحرية والتحرر . وأقحموها في مجالات العمل المختلفة البعيدة عن اختصاصها والمتنافرة مع خصائصها ، فقضوا بذلك على أنوثتها وعلى الأسرة والبيت باسم الحرية والتحرر وقد خلعوا عنها حجابها وكشفوا عن مواطن الزينة والفتنة منها ليشبعوا بذلك نهمهم الجنسي ، باسم الحرية والتحرر .

إن الحرية بمفهومها الصحيح براء من ذلك . وإن الحياة الانسانية الراقية لا تقبل ذلك المفهوم بل إن الحرية الحقة هي التحرر من كل ماسمّوه حرية[١] .

مفهوم الحرية عند دعاة الاصلاح :

إن الحرية الحقة هي التحرر من ضغط شطحات النفس ، وهواها وشهواتها وهي في التحرر من تقاليد المجتمع المنحرفة ، وأعرافه الضالة — إن الحرية الحقة

---

(١) حقوق المرأة في الاسلام محمد عبد الله بن سليمان عرفه ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

كما يراها دعاة الاصلاح هي المستمدة من العبودية المطلقة لله وحده ، المرتكزة عليها ، فإذا استشعر الانسان في هذه العبودية ، تحرر من كل عبودية سواها وأحس من لحظته بضآلة كل قوة أخرى على الأرض وكل قيمة أخرى — وهذه الحرية لا ينافيها أن يخضع الانسان لنظام ، ويتقيد بقيود ذلك النظام لأن الحياة لابد لها من نظام يحكمها والنظام لابد له .

حجاب المرأة[1] : شَرَع الله الحجاب للمرأة المسْلمة صيانة لها عن الابتذال والامتهان ولا حاطة كرامتها وعفتها بسياج من الاحترام والتقديس ، ولمنع النظرات الطائشة والتطلعات الفاجرة من الوصول إلى محاسن المرأة والتلذذ بها . وهو قبل كل شيء طاعة لله وامتثال لأمر رسول الله ﷺ وحقيقة حجاب المرأة المسلمة جملة من الآداب شرعها الاسلام ليبطل ماكان في الجاهلية من تبرج وتعرض للاثارة ، وتحلل شائن في صلة الرجال بالنساء وليفصل الحدود التي بين علاقة كل من الجنسين بالآخر قال الله تعالى : « **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخواتهن ، أو بني اخوانهن أو بني اخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن ، أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن** » وقال : « **يانساء النبي لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفا ، وقرن في بيوتكن ولا تبرجّن تبرج الجاهلية الأولى** » [٣]

وهاتان الآيتان وإن كان الخطاب فيهما موجها إلى نساء النبي ﷺ إلا أن الأمر فيهما يعم جميع نساء الأمة . قال ابن كثير في تفسيره لهاتين الآيتين هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك .

---

(١) الاسلام والمرأة المعاصرة — البهى الخولى ص ١٥٩ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٠ — ٣١ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٣٢ .

وبتأمل هذه الآيات يظهر أن الرجال أمـروا فيها بأن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم كما أمر النساء بذلك ، لكن النساء أمرن بأشياء أخرى زيادة عن غض البصر وحفظ الفرج ، ومما يدل صراحة على أنه لا يكفي لصيانة أخلاقهن وكرامتهن العناية بغض البصر بل لابد لذلك من ضوابط وآداب أخرى غير ذلك ذكرت في الآيات منها :

١ ــ عدم التبرج واظهار الزينة والتبرج معنى جامع للتبختر والتكسر في المشْية أمام الرجال[1] وإبراز محاسنهن وزينتهن لهم . ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى » .

ومنها : عدم الميوعة في الصوت والترخيم في اللهجة والتدقيق في اللفظ للأجانب من الرجال « **إن اتقين فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض** »[2] .

ومنها : اجتناب فتنة الصوت : صوت الحلى وفتنة الطيب وغير ذلك مما يثير الانتباه ويستفز النظرات ويستثير الشهوة قال تعالى : في صوت الحلي ونحوه : « **ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن** » ــ وفي الطيب يقول النبي ﷺ : (المرأة إذ استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا يعني زانية) .

من هدى الاسلام في الحجاب كما نصت الآيات السالفة وكما بينه رسوله وطبقه ، وكما فهمه الصحابة وسلف الأمة يتضح أن الحجاب في الاسْلام ليس كما يظنه البعض ، ولا كما ينعته خصوم الاسلام بأنه قبوع المرأة في بيت مظلم لا ترى النور طول الحياة وأنه سجن المرأة الذي لا تخرج منه إلا إلى قبرها ــ ولكن الحجاب مانع الغواية والتبرج والفضول ، وحافظ الحرمات ، وآداب العفة والحياء .

ولقد اعتنى الإسلام بالمرأة عناية لا نظير لها فقد رفع مكانتها بالعلم وزانه بالعمل المثمر وصان كرامتها بالحجاب وهذا ما لايوجد له نظير في دول الغرب التي تنادي بحقوق المرأة .

---

(١) حقوق المرأة في الاسلام (محمد عبد الله بن سليمان عرفه) ص ١١٩ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ٣٢ ، ٣٣ .

زواج المــرأة

لقد اهتم الأدباء المعاصرون بموضوع الزواج في السعودية ، وأكثروا من القوْل فيه حتى ليكاد الباحث أن يقع عليه في معظم القصص والمقالات ، والنتاج المنظوم . ويبدو من الآثار الأدبية أنه يشكل مشكلة اجتماعية خطيرة يعسر حلها ، أو تصعب معالجتها فالناس فريقان قبلى وحضرى ، وغني وفقير ، والراغبون في الزواج شباب وشيوخ ، ومتعلمون وجاهلون ، والمهور مرتفعة وغير معقولة ، والتقاليد تضغط على الناس حتى ليبدو كثير منهم عبيدا لها .

ورؤية المخطوبة محرمة ، والنساء بين جاهلة ، أو شبه جاهلة ، وجميلة ودميمة ، ومن أصل ينتسب إلى هذه الأرومة أو إلى تلك — وهناك مشكلة كبرى وهي تعدد الزوجات ونتجت عن تلك المشكلة تفشي الطلاق وتشريد الأطفال في المجتمع السعودي .

وبما أن من وظائف الأدَبْ هي معالجة قضايا المجتمع ومن أهم هذه القضايا زواج المرأة وتعدد الزوجات .

وراح الأدباء يعالجون هذه الموضوعات بشتى ألوان التعبير تعددت الوسائل وتوحّدت الغاية ، ومما كتبه الأدباء ظهر خيط مشترك بينهم جميعاً يضع الأب في قفص الاتهام دائما ، وأنه المسئول الأول عن سوء التصرف وهو السبب الرئيسي في الجنوح والشذوذ « فهذه فتاة على سبيل المثال في ريعان الشباب باعها أبوها بمهر كبير عجوزاً ليس من سِنِّها ، ولا من هواها فعاشت معه كشيخها لا كزوجها . ولشدة غيرته عليها منع أولاده الشباب من زيارت بيته الجديد . ومرض الأب ودنف ، ومع ذلك فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب من منزله أو زيارته . وحين بلغ حدّ النزاع اقتحم أولاده المنزل ليعودوه ويرعوه ، وفيهم ابنه الوسيم « عادل » وتوالت زيارات هذا وولد الحب في قلبه وقلب زوجة أبيه الشابة الحسناء العطشى . ثم وقعا في الاثم ومات الزوج . وماهي إلا أشهر حتى تحرك الجنين في أحشائها ، واضطرت أن تشرب السمُّ سدا لفضيحتها »[1] .

---

(١) خلاصة قصة الكاتبة « سميرة بنت الجزيرة » في مجموعتها « وادي الدموع » ص ٥٨ .

ومثال آخر : « لفتاة تجن لأن أباها حرمها من الزواج بمن تحب ، وكاد أخوها أن يلحق بها لأنه منع من الاقتران بفتاة مثقفة أحبها . وعلة المنع أن أهلها فقراء .

ومثال آخر « أب يحب المال ، ويحب الموسرين من عباد الله ، وإن كان حمقى ويرغب في تزويج ابنته بواحد منهم . وجاء غنى عجوز ، وطلبها من أبيها ، فوافق ، ووعده بها وأخبرت الصغيرة فرفضت ، وصرحت بذلك لأمها . وقامت هذه ساعية بين البنت والأب ، وجاء رده بالرفض ، وأنه سيزوجها لمن وعد ، وسيحافظ على كلمة الشرف مع صديقه الثري . وماكان أمام المسكينة إلا الإذعان . ودارت الأيام فإذا بالزوج شرس ، سيء المعاملة . ومات أبوها . وطلقت الفتاة ، وانتهت أيامها متسولة في الشوارع مستجدية على الأبواب[1] .

وكثيرا ماكان يقف الأديب وجها لوجه أمام هؤلاء الآباء ، ويصرخ في وجوههم : « أن يفتحوا عيونهم ، ويطلُّوا على الواقع ، ويدركوا أن سوْق فتاة إلى زوج لا تريده أو لا تطيق الحياة معه اقدام على خطة انتحارية متعمدة رهيبة ، وأن بيع الفتاة في العشرين من عمرها أو أقل لابن السبعين أو الثمانين تحدّ لكل المشاعر الكريمة والبريئة وأن من حق البنت نفسها أن تختار طريقها بملء حريتها وإرادتها ، لا أن يختار ذووها لها زوجا كل ميزته أنه قادر على دفع ثمنها الباهظ كأنها آنية تباع في السوق كمن يدفع أكثر غير مفكرين بما ينجم عن ذلك من فقدانها السعادة ، ومن بكائها المستمر ومن طردها من بيتها ، لأنها امرأة ناشز ، ثم من وقوعها في الخطيئة[2] .

الاسلام والمرأة :

لقد أثبتت الأحاديث الكثيرة في وجوب استئذان المرأة عند زواجها وحتمت على التثبت أن تصرح بالاذن ، واكتفت من البكر ترخيصا لها أن تجرى على عادتها في الحياء الذي يمنعها من التصريح ، وأن يكون منها مايدل على الرضا ، فالحق

---

(١) قصة المطلقة لسعد البواردى ص ٣٩ .

(٢) فلسفة المجانين لسعد البواردى ص ١١٣ .

حقهـا ، والشأن شأنها ـــ قال رسول الله ﷺ « الثـيب أحـق بنفسهـا من وليها ، والبكر تستأذن في نفسها ، وإذنها صماتها » .

وقـد جاء في كتب الحنفيـة « إن المرأة بعقـد الـزواج تتصرف في خالص حقهـا وهي من أهل التصرف لأنها عاقلة مميزة ، ولهذا كان لها حق الـتصرف في المال ولها حق اختيار الأزواج ـــ وجـاء في الصحيـحين أن خنساء بنت خزام زوجهـا أبوهـا وهي كارهة ، وكانت ثيبا فأتت رسول الله ﷺ فردّ نكاحها .

مما سبـق يتضح أن للأدبـاء دوْر في تطويـر المجتمـع وتخليصه من العـــادات الرذيلة والسموّ به إلى الرقي ـــ وأن دعوة الأدباء إلى اعطـاء المرأة حقهـا في اختيـار زوجها أمر واجب وهو ماتقرره الشريعة الاسلاميـة وأنـا أؤيـد هذا الـرأى السديـد الذي يصدر من الشريعة الإسلامية .

تعــدد الزوجـــات :

هناك كثير من الناس من يميلون إلى تعدد الزوجـات ويعمـدون إليـه وهـذا أمـر عادى لا يلفت النظر ـــ والزواج المتعدد قد يتبعه الطلاق ، وفي هذا وذاك آثار في الزوجة القديمة ، أو المطلقـة وفي الآثار الـتي على الأطفـال لا تحصى ، ولقـد أسهـم الأدباء بنصيب طيب في معالجة هذه الناحية فتحدثوا عمّا تعانية الزوجة القـديمة من آلام نفسيـة ، واضطرابـات عصبيـة حين ترى امـرأة أخـرى تشاركهـا في زوجهـا ولاسيمـا إذا كانت الجديـدة شابـة وهـي عجـوز ، وأجنبيـة وهـي وطنيـة ، وذات حظوة وهي المهملة التي أخفـى عليها الدهـر ، وخفيفـة الحمـل وهـي ذات الأولاد الكثر .

وتحدّثوا عن الـغيرة الـتي تنشأ بين الضرائـر ، وانعكـاس ذلك كلـه على الرجـل فتسود أيامه ، وتبيض لياليه[1] .

ومـن الكُتَّـاب من وقـف ضد وحدانيـة الزوجـة ، ودافـع عن التعـدد واحتـج بالشرع والمنطق وواقـع الحيـاة ومـن هؤلاء (أحمد عبـد الغفـور عطـار) في كتابـه « الاسلام طريقنا إلى الحياة » .

---

(١) قصة الزوجة الثانية : « إبراهيم الناصر ص ٨٥ .

الإسلام وتعدد الزّوجات :

لقد ذكر[1] الامام الأكبر الشيخ (محمود شلتوت) في كتابه فقال : « لقد أوجبت الشريعة على الرجل أن يعدل في مطالب الحياة بين هذه الزوجات حتى يكون أعون على بقاء أصل الهدوء والاطمئنان ، وأبعد عن الظلم والميل والانحراف ـ وهذا قدر اتفقت عليه النصوص الشرعية وأجمع عليه فقهاء الشريعة ونقرأ قول الله سبحانه « مثنى وثلاث ورباع » وقوله فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » وقوله « فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة »[2] .

ويستطرد قائلا « أنه لما قيل في هذه الآية : « **فإن خفتم ألا تعدلوا** » فهم منه أن العدل بين الزّوجات واجب ، وتبادر إلى النفوس أن العدْل باطلاقه ينصرف إلى معناه الكامل الذي لا يتحقق إلا بالمساواة في كل شيء ومايملك ومالا يملك ، فتحرج بذلك المؤمنون ، وحق لهم أن يتخرجوا الآن العدل بهذا المعنى الذي تبادر إلى أذهانهم غير مستطاع ، لأن فيه مالا يدخل تحت الإختيار ، فجاءت الآية الثانية ترشد إلى العدْل المطلوب في الآية الأولى وترفع عن كواهلهم هذا الحرج الذي تصوره من كلمة « فإن خفتم ألا تعدلوا » .

وكأنه قيل لهم : العدْل المطلوب ليس هو ماتصورتم فضاقت به صدوركم وبه تجرحتم من تعدد الزوجات الذي أباحه الله لكم ، ووسع به عليكم ، وإنما هو : ألا تميلوا إلى احداهن كل الميل ، فتذروا الأخرى كالمعلقة .

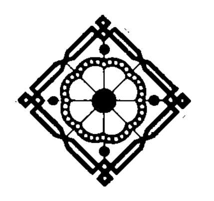
فهذا بيان الهي كان ينتظره المؤمنون بعد نزول الآية الأولى ، وفهمهم منها مافهموا ، ويرشد إلى هذا قوله تعالى في مفتتح الآية الثانية « **ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن** » ثم عدد أمورا كانت موضع استفتائهم وكان خاتمها قوله تعالى : « **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** » .

ولقد أدرك بعض الكتاب أن الكلام عن قضية التعدد لا يجدي ، فعمد إلى النصيحة والموعظة الحسنة ، داعيا إلى حسن معاملة الزوجات ، وخاصّة القديمة

---

(١) الاسلام عقيدة وشريعة للامام (محمود شلتوت » ص ١٨١ (٢) الآية رقم ١٢٩ من سورة النساء .

فيهن ، ورعاية خاطرها وجبر قلبها المصْدوع ، مطالباً بابقائها في كنفه ، وتحت جناح رحْمته ، وعدم التفريط بها طلاقا أو إساءة في المعاملة ، مثيرا في الرجل مشاعر العطف والحنان لأن المرأة إنسانة رحيمة ، ولا حوْل لها ولا طَوْل ، تظلم فلا تملك إلا البكاء ، تحركها الرِّقة ويبوح بعينها الحنان أليست هي فوق كل هذا أمانة في أعناقنا[1] » .



(١) أجراس المجتمع سعد البواردى ص ٩٦ .

مكانة المرأة العـربية عند الشعـراء

لقد كانت البيئة العربية ذات أثر في احلال المرأة العربية هذه المكانة السَّامية منذ العصر الجاهلي ، اذ البيئة بما حفلت من جمال رتيب ، وبما دفعت إليه من شظف العيش وجهده ، وبما استلزمته من تعاون قبلي خلقت من العربي فارسا يعتد بالبطولة والوفاء ، وحماية الجار ، والشهامة والنجدة والاعتداد بالنفس ومن شيمة فارس هذا شأنه أن يكون صادق العاطفة في حبه يرى في خضوعه لحبيبته وفي المخاطرة في سبيلها وحمايتها مظهرا من مظاهر رجولته لا ضعف ولا خور . وكان طبيعيا أن تشغل المرأة فراغ ذلك المجتمع البدوي الذي تعوزه كثير من المنع وألوان الفنون التي تألفها المجتمعات المتحضرة ولهذا كانت المرأة محور حديثهم ومتجه أفكارهم — وفي هذا يقول : « إنما يبحث عن الحب الحق ووطنه الأصيل تحت خيام البدوي الدكناء ، فجمال الاقليم والشعور بالعزلة ، وقد ولدّا هناك كما يولدان في أى مكان آخر — أسمى عواطف القلب الانساني ، أعني تلك العاطفة التي تحتاج كى تشعر صاحبها بالسعادة إلى أن يوحى بها إلى الآخرين ، بنفس الدرجة التي تشعر بها صاحبها ، ولكي يبدو الحب من أقوى صوره في قلْب الرجل لم يكن بدّ من أن تستقر المساواة — ما أمكن لها أن تستقر بين المحب وحبيبته[1] .

لذا لم يكن غريبا لدى شاعرنا « **طاهر زمخشرى** » أن يغْلب هذا اللّون في صفحات دواوينه الشّعرية وهو مايسمى « بالغزل العذرى » وهو الغزل الذي يتحدث فيه عن الحب العفيف ، وعما يلاقيه المحب من عذاب ومايعانيه من تباريح ، في تحرز عن الاستهتار وبعد عن الخلاعة ، مع طابع ديني واضح — فكان عماد هذا الغزل العفيف أمران : صِدْق العاطفة ، صِدْق العقيدة ، وكانت البيئة العربية ممّهدة لوجود هذا النوع من الغزل ، بما ساعدت على استقرار روح المساواة بين الرجل والمرأة ، وعلى الاعتداد بالعاطفة .

وكان الاسلام أقوى العوامل في ظهور هذا النوع من الغزل ، اذ خلق ادراكا جديدا للعاطفة فيما دعا إليه من جهاد النفس ، ومقاومة الهوى لذلك نجد شاعرنا

---

(١) النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمي هِلالْ ص ١٨٩ .

« **طاهر زَمخشـــرى** » يعبّر في قصيدتـه « الـروح الأسيرة » عن الغـزل الـذي فيـه الصَّفاء والنقاء فيقول شاعرنا[1] » :

إنّ روحـــي أسيرة في يديـــــك

وهي ترجو الخلاص من ناظـريك

وعلى ثَغْــرك المغـــرِّد صُبْـــح

والأصيـل البســـام في وجنتيك

وفـــؤادى به الهـــوى يتلظـــى

من تبـاريحه أخـــاف عليـــــك

كيـف أحْيـا ولم يعـد في إهـــابي

غير نضو يفـــــرّ منك إلـــيك

إن شكـــا ناحت الزّوافـــر فيـــه

وتـــذوب الأصْداء في أذُنــــيك

فليس المحب[2] اذن لاهيا عابثا حين يعاني آلام حبه ، مادَام عفًّا طاهر الغايـة بل إنه مأجور مثاب من الله سبحانه ــ وقد عدّ الـرسول ﷺ من بين من يظلهـم الله يوم القيامة : « رجل دعته إمرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها ، فقال إنى أخـاف الله » بل يروه عن الرسول : « من عشق فعق فكتم فمات ــ مات شهيدا »[3] .

وبالرغم مما أصاب شاعرنا في حياته من المحن والمصائب التـي أصابتـه من موت زوجته وتركها أربعة من الأولاد ومع ذلك نرى شاعرنـا صابـرا محتسبـا يرجـو من الله العفو والغفران يقول « **طاهر زمخشري** » في قصيدته « بين الصباح والمساء »

صحت يارب ، يامنجي من الهم — أغثنـــي ، ولا تؤخـــــر جوابي

وأعنـــــي على الحيــــــاة لأني — بك أحيــــا وأنت أدرى بما بى

وإذا كنت لى المعين فإنى — سوف ألقـــى في أى نحو طلابي

أنت عودتنـــي الجميـــل فهبنـــي — من نداك السخـي حسن الثـواب

---

(١) النقد الأدبي الحديث د. محمد غنيمي هلال ص ١٩٦ .

(٢) ألحان مغترب (طاهر زمخشري) ص ٢٥

(٣) تمييز الطيب من الخبيث (عبد الرحمن الشيباني ص ١٧٠ .

اكتشاف البترول وتطور الحياة الاقتصادية وأثرهما في الإصْلاح الإجتماعي السُّعودي :

يعتبر[1] اكتشاف البترول في البلاد العربية السعودية نقطة تحول هامة في تاريخها الحديث لأنه الحد الفاصل بين نهاية الخط الاقتصادي التقليدي القبلى الذي كان سائداً في الجزيرة العربية قبل اكتشاف الزيت ، وبين الخط الاقتصادي النامي المتطور الذي أخذ اتجاها وأبعادا مغايرة للخط الأول ، وكان اتجاه الخط الأخير يسير في نطاق دائرة الاقتصاد الحديث المنفتح على العالم الخارجي التجاري المتحضر وكان لهذا التحول أبعاده الكثيرة التي أثرت في جدّيتها على شتى مرافق الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتعليمية والعمرانية في المملكة العربية السعودية .

وفي ١٥ أبريل عام ١٩٣١م وصلت البعثة الأمريكية التي أرسلها كرين برئاسة (كارل تويتشيل) إلى جدة للقيام بدراسة جيولوجية للمملكة السعودية لاكتشاف احتمالية الثروة الأرضية فيها[2] .

والواقع أن الحكومة السعودية كانت مهتمة ببيع امتياز الزيت وذلك لحاجتها الماسة للأموال وبخاصّة في فترة الأزمة الاقتصادية العالمية وكم بذل (الملك فيصل) من جهود كبيرة عام ١٩٣٢ أثناء زيارته (لندن) سواء مع وزارة الخارجية البريطانية أو مع بعض الدوائر المالية لبيع امتياز البترول لإحدى الشركات البريطانية[3] .

وإلى جانب البترول في السعودية كانت هناك مناجم (الذهب) في المنطقة الغربية بالقرب من المدينة المنورّة وإلى الجنوب الغربي منها في البلاد السعودية في مكان يدعى (مَهْد الذهب) وقد استطاعت شركة التعدين العربية السعودية

---

(١) الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبد العزيز (عبد الفتاح أبو علية ص ١٧٣) .

(٢) جريدة أم القرى عدد شوال ١٣٦٩ هـ (٣) حافظ وهبه جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٤١ .

(٣) جريدة أم القرى عدد ١٩ يوليو ١٩٥٠م .

استخراج كمية من الذهب قدرت بـ ٢٨٠٨٫٢ أوقية و ٣٥٠٨٠ أوقية فضة[١] .

ولقد كان اكتشاف البترول عهْدا جديدا لإقتصاد حديث في السعودية ، فبدأت تقوم في منطقة الخرج القريبة من الرياض مشروعات زراعية على أساس فني حديث من حيث الرى والزراعة والآلات الزراعية وفي عام ١٩٤٠م امتد المشروع وتطور فحوى المضخات المائية وقنوات رى عددها احدى عشرة قناة تحت اشراف خبراء البعثة الزراعية الأمريكية التي ساهمت فيها شركة آرامكو والحكومة السعودية ، وذلك لإصلاح الزراعة في منطقة الخروج التي يتوافر فيها الماء ، وأراضيها صالحة للزراعة .

وفي تقرير البعثة الأمريكية الزراعية التي زارت السعودية بناء على برنامج التعاون بين الحكومة الأمريكية والحكومة السعودية عن طريق وساطة شركة آرامكو ، ينصح التقرير المذكور الحكومة السعودية بالعمل الجاد لتحسين الزراعة في المملكة ، وتربية المواشي والإعتناء بمصايد الأسماك في الموانىء الشرقية والغربية ، والاهتمام بمد شبكة من المواصلات تربط البلاد السعودية ، والاهتمام بشراء الآلات الزراعية[٢] وكذلك الاهتمام بالتعليم والثقافة في البلاد لأن كل هذه النواحي تنقل البلاد السعودية من العهد الاقتصادي التقليدي إلى عهد اقتصادي مبني على أساس العلم والتكنولوجيا الحديثة[٣].

والوقع أن الزراعة في منطقة الخرج أخذت تنمو وتتطور ، ووصلت حوالى ٣٥٠٠ فدان تحت الزراعة ، ويمكن زيادة هذه المساحة إلى ٨٠٠٠ فدان نتيجة لدخول الوسائل التقنية والعلمية الزراعية إلى المنطقة[٤] .

وبدأت البلاد السُّعودية تدخل في طوْر الصّناعات الآلية الخفيفة بدلا من

---

(١) جريدة أم القرى عدد ١٩ يوليو ١٩٥٠م .

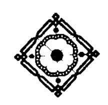
(٢) تقرير البعثة الأمريكية التي أوفدت إلى المملكة ص ١٠٩ .

(٣) Twithell (K. S.) Saudi Arabia, with An Account of the Development of its Natural Resources, P. 44

(٤) كتاب وزارة التجارة عام ١٩٥٦ ص ٣٣٦ ، ٤٤٦ .

من الصناعات التقليدية اليدوية حين دخلت البلاد بعض آلات النسيج في الإحساء والقصيم والطائف والمدينة المنورة ، وبعض مصانع الصابون والأسمنت والتمور وبناء المراكب الصغيرة في الموانيء على الساحل الغربي ، وكانت في البلاد السعودية شركة للسفن التجارية تدعى شركة التوفير والاقتصاد برئاسة وزير المالية والاقتصاد الوطني .

يتضح مما سبق أن الحياة الاقتصادية في المملكة العربية السعودية قد تطورت وازدهرت وقد أثر ذلك تأثيرا واضحا على الناحية وبدأ نبوغ الشعراء السعوديين يتفتح ـــ فنجد بعض الشعراء يشدون بالشعر عما أصاب حياتهم من رغد العيش والحياة الكريمة ، وعادوا يكتبون ويؤلفون في النواحي المختلفة في الأدب ـــ لأن الأدب يعطي صورة واضحة لحياة المجتمع التي تتمثل في كل أشكاله ، ومن ناحية أخرى نجد أن هؤلاء الشعراء قد تفتحت أذهانهم فلم تعد الحياة ثقيلة عليهم بسبب كسب الرزق بل وجدوا رغد العيش وتشجيع الدولة لهم من الناحية المادية الذي كان له أبلغ الأثر على حياة هؤلاء الأدباء وبما أنتجوه من أدب وفن سيظل رمز المجد والفخر عبر الأيام والسنين .





الفصل الثالث

الحالة الثقافية - التعليم في الحجاز - المرأة في الديانات السابقة



الحالة الثقافية في الحجاز
التعليم في الحجاز

لاشك أن اهتمام الحجاز[1] بلد الحجاز بالتعليم لأنها بلد القداسة والدين وفيها ظهر نور العلم والوحي من السماء الذي كان منزل على رسول الله ﷺ ومن هذا المنطلق أخذ العلم يشع إلى أرجاء العالم حتى اليوم — وقد كان التعليم يقوم في مواطن عدة أولها الحرمين الشريفين ، حيث كان العلماء يعقدون حلقات الدروس ، ويجلس شداة العلم حوْلهم . ولم تكن تلك المجالس مقتصرة على تدريس الدين والفقه فحسب ، بل كانت تهتم إلى جانب العلوم الشرعية بالنحو والصرف والفلك والمنطق . وقد أحصيت حلقات التدريس في المسجد الحرام فبلغت في بعض الأوقات نحو مائة وخمسين حلقة تتناوب التدريس في الآصال والبكور ، وبين أطراف الليل والنهار في نشاط وزحام .

وإذا حاولنا معرفة الشروط الواجب توافرها في مدرس الحرمين الشريفين لم نجد إلا إشارات تدل على وجوب نيله شهادة من هيئة كبار العلماء في بلده بعد أن تختبره في التفسير والحديث والفقه وقواعد اللغة العربية[2] . وجدير بالذكر أن جميع هؤلاء المدرسين لم يكونوا يتقاضوْن راتبا من الدولة ، ولا يقبلون صدقة أحد أو زكاته وكانوا يقولون إن تعليمهم لله وفي سبيله فأجرهم منه يتقاضون . ولهذا فقد عاشوا فقراء ، وماتوا فقراء . وكانوا من جنسيات مختلفة ، فيهم المصرى والحجازى والنجدى والحضرمى والهندي وطلابهم يزدادون وينقصون تبعا لمادة الدرس ، ووقته وشخصية مدرسه ، وهم متباينوا الأعمار فالصغير بجانب الكبير ، والتلميذ بجانب الموظف والتاجر بجانب العامل[3] .

ومن مواطن العلم : المدارس التي شادها بعض السلاطين أو المحسنون ودور العلماء الذي كانوا يمنحون طلبتهم دروسا خاصّة ، ومجالس الأمراء حيث كانت

---

(١) تاريخ مكة لأحمد السباعى ص ٢٠٤ (٢) سير وتراجم لعمر عبد الجبار ص ١٤ .

(٣) الأدب في الحجاز لأحمد ابراهيم ص ٥٥ .

تعقد أحيانا ندوات لكبار العلماء ندوات لكبار العلماء يتجلى فيها البحث العلمي وبيوت الخاصة والكبراء وهذه الفئة الموسرة كانت تفضل استقدام الأساتذة والمربين إلى منازلها على أن ترسل أولادها إلى الكتاتيب أو إلى المدارس وهي ترسم للمعلمين خطة التدريس والمواد التي ترغب أن يتعلمها أطفالها ــ والبادية أحد مواطن العلم .

وقد درج أشراف مكة[1] على أن يرسلوا أولادهم في نعومة أظفارهم إلى البادية وخصوصا إلى قبيلة « عذْوان » التي في شرق الطائف ، وهي قريبة من قبيلة سَعْد التي أرضع فيها رسول الله ﷺ ، فينشأون فيها على البداوة التامة مع الأمية الصِّرفة ، حتى إذا ترعرعوا عادوا إلى مكة ، وقد تعلموا بعض لغات القبائل ، وحفظوا من أشعارهم ، وأخذوا من عاداتهم وأخلاقهم التي من أحسنها الفروسية والحرية في القوْل والفعل[2] (والكتّاب) أكثر المواطن شيوعاً بين الناس لتلقي مباديء العلم واقبالهم عليه كبير . وهذا النمط من المعاهد التعليمية عرفته جميع البلاد التي خضعت للحكم العثماني ، ومنها الحجاز وشمال أفريقيا وقد كان أشهر كتاتيب مكة في مستهل القرن الرابع عشر الهجري كتّاب (محمد حسن الخياط) ، و (محمد العناني) و (عبد الله مجاهد) و (أحمد السوركتي) وغيرهم[3] ويروى صاحب « مرآة الحرمين » أن عدد كتاتيب مكة في مطلع القرْن الرابع عشر الهجري بلغ ثلاثا وأربعين كتابا وكان فيهم ١١٥٠ طالبا .

والملاحظ على أن جميع هذه المواطن التعليمية شدة عنايتها بالنواحي الدينية واهمالها جانب الدروس العلمية ، واللغات الأجنبية ، كما يبدو أنها لم تكن قائمة على نظام ثابت يحدّد فيه عمر الطالب ، ودرجة ثقافته ومراحل تدرجه ، وشروط نجاحه وغير ذلك مما نجده في المعاهد الحديثة . وكان هذا النقص في التعليم لفت انتباه السلطة الحاكمة ، ووضع أمام أعينها نقاط الضعف في مواطن التعليم القائمة ، ودفعها إلى إنشاء مدارس حديثة تعنى بالعلوم الدنيوية العصرية واللغات الحديثة ،

---

(١) تاريخ مدينة جدة عبد القدوس الأنصاري ص ١٤٩ (٣) تاريخ مكة لأحمد السباعي ص ٢٠٣

(٢) مرآة الحرمين ابراهيم رفعت ص ٢٠٣ .

وتنشىء جيلا واعيا يعرف شؤون دنياه كما يعرف أمور دينه فيخدم دولته وأمته وينفع نفسه وذويه .

أما أول مدرسة عثمانية حديثة أسِّست في الحجاز فهي« المدرسة الرشيدية » وقد أقيمت بمكة ، ثم تلتها أخرى تحمل الإسم ذاته بجدة وكان ذلك في أواخر القرْن التاسع عشر الميلادى ــ وكانت مواد التعليم فيها : العربية والرياضيات والتاريخ ومدرسوها من الأتراك ، ثم أضيف إليهم نفر من المكيين . وكانوا جميعا يلقنون دروسهم بالتركية ، حتى قواعد اللغة العربية ، وقد قيل إن غرض الأتراك من إنشاء هذه المدارس تتريك أبناء العرب لهذا لم يقبل عليها إلا أبناء الموظفين من الأتراك ، وبعض العلية ــ ممن كانت تربطهم بالعثمانيين روابط ذات قيمة . وأما طلبة العلم من أبناء العلماء وأفراد الشعب والمجاورين فلم يكن إقبالهم عليها إلا محدودا[1] .

ومهما يكن من أمر هذه المدارس ونظامها ، ومواد تدريسها ، ودرجاتها فإن أهل البلاد ماكانوا يندفعون إليها لما يحسون فيها من رغبة في تتريك أبنائهم ، أو لعدم إيمانهم الكامل بجدوى التعليم العصري فيها ، ولأن الدراسة الحديثة لم تكن قد هضمت منافعها جيدا في هذا الجيل[2] .

وإذا كانت مدارس الأتراك لم تقم بواجبها كما يؤمل الناس ويشتهون فالمدارس الأهلية الخاصّة قد أدركت الهدف . ذلك أن المواطنين لمسوا ضعف مدارس العثمانيين ، وقلة فائدتها ، كما أدركوا أنه لم يعد يكفي الانسان أن ينتظم في حلقة دراسية تقام في المسجد أو يقتصر على علوم الكتاب ، أو على مايسْمع في حلقة دراسية تقام في المسجد بين العلماء والمتناقشين ، وأنه لا مندوحة عن الانتظام في مدرسة نظامية عربية الأصل والهدف تعلم أمور الدين والدنيا وتعرّف الطالب جوانب الحياة وأطراف العلوم فدعوا إلى إنشاء هذه المدارس ، ولبى النداء كثيرون ، وراحوا يتبرعون بسخاء فهذا يدفع المال ، وذاك يقدم الأرض والثالث يتبرع بكتبه ، والآخر يقدم نفسه مدرسا فيها بدون أجر ، وهكذا .

---

(١) تاريخ مكة لأحمد السِّباعى ٢/ ص ٢٠١ (٢) ماضي الحجاز وحاضره حسن نصيف ص ١١١ .

وإذا بهذه المدارس تنال رضى الناس جميعاً ، فيدفعون أبناءهم إليها رغبة تشوبها الحماسة ــ ويتكاثر عَددُها مع الأيام فإذا بُجدة وحْدها يؤسس فيها (مدرسة عبد الرحيم الطرابلسي) و (مدرسة الشيخ شاهين) و (مدرسة الشيخ شمس) و (مدرسة الفلاح[١]) ويوجد بمكة المكرمة الصّولية والفخرية والفلاح .

ولقد كان لهذه المدارس الثلاث أثر بالغ في النّهضة العلمية في مكة المكرمة وخاصّة وقد تخرج فيها الأدباء والكتاب الذين حملوا راية العلم ونهضوا بالبلاد النهضة الأدبية البالغة وهؤلاء هم الرعيل الأول في هذا المضمار .

التعليم في عهد السُّعوديين :

هناك ثلاثْ عقبات وقفت في وجه نمو التعليم في بدء ظهور المملكة العربية السعودية ، تغلبت الدولة على أثنين وتحاول تذليل الثالثة . فالعقبة الأولى تتعلق بموارد الدولة ذلك أن الملك عبد العزيز لم يكن يملك المال حين نودى به ملكا على البلاد العربية السعودية ، وما كانت موارد الدولة البارزة تأتى عن غير طريق الحجاج وهي موارد سنوية قليلة وكانت الظروف التي كانت الدولة في نشأتها قد صادفت موجة الكساد الأكبر في العالم ومارافقه من أزمة اقتصادية خانقة ــ ثم اكتشف البترول في منطقة الاحساء عام ١٩٣٣م ولم تحصل المملكة على دخل منه إلا في عام ١٩٣٩م وكان حوالى ١٦٦ ألف دولار ثم بدأ الدخل يتزايد حتى بلغ ٦٦٥ مليون دولار وحلت مشكلة المال وزالت عقبة الفقر دفعة واحدة .

والعقبة الثانية كانت تتصل ببعض العقليات التي لم تقتنع بالفكر الحديث وبالتقدم الحضاري وبفائدة المدارس العصرية والنظرة السائدة أن تعلم اللغات الأجنبية ذريعة إلى الوقوف على عقائد الكافرين أو هو وسيلة إلى إضعاف أخلاق الشباب . ولقد واجه الملك عبد العزيز هذه المشكلة ، واستطاع أن يوضح لتلك الفئة أن مايريده من المدرسة العصرية هو أن تقوى العقيدة الدينية في قلوب الطلاب ــ وتجعل المملكة الوليدة في مصاف الدول القوية المتعلمة المتحضرة وآمن بعضهم بصواب رأيه وصحة خطته وروعة هدفه ، فاندفعوا يساعدونه على تحقيق الهدف الذي يرمى إليه[٢] .

(١) تاريخ جدة عبد القدوس الأنصاري ص ١٥٣ .
(٢) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٣٠ لحافظ وهْبه .

وأما العقبة الثالثة :

وتتمثل في توافر عَناصر المْدرسة الرئيسية فالمملكة بلد شاسع أقرب مايكون إلى القارة منه إلى الدولة الصغيرة والسكان منشورون هنا وهناك وفق الظروف الجغرافية والمعاشية مما يجعل إقامة مدارس معدودات وفق القدرة المالية للمملكة يومها لا يخدم إلا أعدادا قليلة ، ومن ثم يحتم الاكثار من المدارس وقد كان رجال التربية المختصون كانوا في حكم الندرة ــ ولم يكن في البلد العدد الكافي من المدرسين الأكفاء لأن قرونا تعاقبت على شبه الجزيرة والأمّية متفشية فيها والأدوات المدرسية ذاتها لم تكن تصنع في المملكة ، والكتب المتفقة مع العقيدة والمحيط لم يكن هناك من يؤلفها أو يطبعها . فكان لابد من مواجهة المشكلة التي تبدأ باستقدام المدرسين والكتب ــ ولم تبخل المملكة بالمال فقد دفعت الكثير لتتغلب على هذه العقبة وماتزال في طوْر التقدم إلى الأمام وقد اتخذت المملكة في سبيل الوصول إلى الهدف المرسوم خطة المراحل المتدرجة فأنشأت إدارة المعارف أولا . وحين نجحت هذه أنشأت وزارة المعارف ــ وتميزت وزارة المعارف عن الإدارة بالتخطيط والدراسات قبل البدء في كل مشروع ، ووضعه موضع التنفيذ وتعتبر « دائرة التخطيط » في المقام الأول بالوزارة . وتضم عددا من الخبراء السعوديين والأجانب وهى ترسم الخطة الواجب اتباعها في خمس سنوات ، وتراعى فيها الوضع الحاضر والقدرة المالية والظروف المختلفة وتقرر المدى الذي يجب أن تبلغه في نهايتها ثم تضعها رهن التنفيذ ، وتراقب التطورات التي تنشأ ، وتجمع النتائج أولا فأولا .

وكان أول مافعلته الوزارة[1] أن قسمت رقعة المملكة المترامية الأبعاد إلى إحدى وعشرين منطقة تعليمية ، ومنحت كلاّ منها الاستقلال المادى والإداري وحرية التصرف والحركة ، ولم تقيدها إلا بالخطوط الكبرى للوزارة وبسياسة الدولة العليا مراعاة منها لظروف كل منطقة وأوضاعها ــ وقسمت التعليم إلى فروع : عام ، وفني ، وجامعي في داخل البلاد وخارجها ــ واعداد المعلمين ، وشعبي ، فالتعليم

---

(١) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية د. بكري شيخ أمين ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

العام يبدأ بانتساب الطفل إلى روضة الأطفال ، وينتهي بنيله الشهادة الثّانوية .

أما التعليم الفني فيشمل المدارس الصناعية والتجارية والزراعية وكانت الغاية من أنشائها تلبية حاجة البلاد إلى مختصين . وتهتم بها الوزارة كثيرا وتحاول أن ترفع من مستواها وتكثر من عددها ، وتستقدم لها خير الكفاءات من خارج البلاد لتنهض بها .

أما التعليم الجلمعي يتم في خارج البلاد وداخلها ، وقد سبق الأول في وجوده ، واندفع المتخرجون من « مدرسة تحضير البعثات » في بعثات خارجية عام ١٩٥٠م . وحين تسلمت وزارة المعارف قيادة التعليم استمرت في ايفاد الأعداد الكبيرة إلى كثير من دول العالم .

وحيث[1] أن مكة كانت مركز إشعاع العلم والنور منذ زمن قديم فقد شهد ذلك ماكتبه « سنوك هرجرنجه » يقول عن التعليم في مكة : « ... إذا ما استقرينا تواريخ مكة ـــ التي قلما تهتم بتاريخ الثقافة فإنه بإستطاعتنا أن نستنتج بشيء من التأكيد أن مثل هذه الحياة العلمية التي وصفنا كانت موجودة في مكة منذ عدة قرون .. فلقد أخرجت مكة في كل عصر من العصور الإسلامية رجال علم بارزين ، وكانت حلقات العلوم الشرعية فيها من أحسن الحلقات على مر القرون ، وقد اجتمعت في الوقت الحاضر عدة أسباب لتجعل من المسجد الحرام مركزا علميا فريدا للعالم الاسلامي كله »[2] .

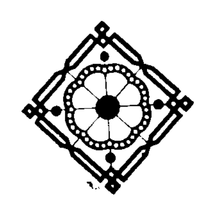
ومهما يكن الأمر فقد قام المسجدان الشريفان حينئذ بدور مهم في حفظ علوم الدين واللغة العربية ، وايجاد جو علمي عاش في ظله من تفرغ للدرس والتحصيل . ولم يكن علماء الحرمين بأقل مستوى من زملائهم في الأقطار الاسلامية الأخرى ، ولكن الذي كانت تعاني منه ولاية الحجاز في هذه الفترة هو أن المدارس خارج الحرمين لم تكن من الوفرة بحيث تيسر للناس سبل المعرفة ، ولذلك فقد ظل العلم محصورا في مراكز معينة لم يفد منها فائدة مذكورة إلا قلة ممن نذروا حياتهم لعلوم الدين واللغة العربية ، وأما السَّواد الأعظم من الناس فما

---

(١) التعليم في مكة والمدينة د. محمد عبد الرحمن الشّامخ ص ١٢١ .

كانت ظروف العيش تمكنهم من التفرغ للعلم ، هذا العلم الذي لم يكن يمد صاحبه بوسيلة من وسائل الرزق ، بل كان يؤهله في معظم الأحوال لمهنة التدريس التي كانت تعتبر حينئذ بضاعة كاسدة .

ولعل أهم أثر للمراكز التعليمية[1] التي وجدت في الأماكن المقدّسة في آخر العهد العثماني هو أنها قد أسهمت في إعداد الأذهان للاقبال على العلم فيما بعد وذلك حينما عمت البلاد في العهد السعودي بعد أقل من عقدين من الزمن نهضة علمية شاملة جمعت بين موروث العلم وحديثه ، وفتحت مجال العيش الكريم أمام المتعلمين ، ولقد تغير في العهد السعودي ماكان لدى مجتمع ولاية الحجاز في آخر العهد العثماني من نظرة تستهين بالعلم والمتعلمين وتغير الأمر كذلك بالنسبة لمن ينصرفون إلى طلب العلم ، إذا ارتفعت منزلتهم الإجتماعية وازْدهرت أحْوالهم المعيشية .



(١) المصدر نفسه ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

المؤثّرات المباشرة في النّهضة الأدبية

الصحـافة :

بعـد استقـرار نظـام الحكـم[1] وانـتشار الأمْـن راحت الحضارة تغـزو المملكــة الوليدة ، وأخذْت الصَّحافة تسعى نحو الكمال والمثل الأعلى ، وفي الطريق إلى ذلك تكبو هذه الصحافة وتنهض وتواجه العقبات فتتخطاهـا حينـا ، وتتـعثر بها أحيانـا ، ومازتزال إلى اليوم في طوْر التجارب ـــ ولقد كان للصحافة أثرها البالـغ على الأدب عامة فامتلأت بالمقالات الأدبية ، واكتظت بالموضوعات النقدية وظهـرت العقبـة ، والمسْرحية الصغيرة ، وكثر النظم في المناسبات الوطنية ، والقومية والعالميـة وصرنـا نقرأ إنتاجا طيبـا يدور حوْل العدالـة والحريـة والمساواة . وجرَّ هذا الخصْب الأدبي إلى ظهور « الكتاب السعودي » حين راح كل أديب يجمع إنتاجه ويضم بعضه إلى بعض ليصدره « كتابا » ولا نتعدَّى الحق اذا وصفْنا صحف هذه المرْحلة بالصحافة الأدبِّية .

وقد ظهر كثير من الصحف الفردية أولها صحيفة « أم القرى » في شهر جمادى الأولى ١٣٤٣ هـ بمكـة المكرّمـة وقـد تعـاقب على رئـاسة تحريرهـــا كثيرون أولهم (يوسف ياسين) ثم (رشدي ملـــحس) و (محمـــــد عبـــــد المقصود) و (عبـد القـدوس الأنصاري) و (الطـيب الساسى) وغيرهـم من أعـلام الفكـــر والأدب ـــ وتعتبر«أم القرى»أقدم صحيفة سعودية اليوم وسجل المملكة الـرسمى في أحداثها الداخلية وعلاقاتها الخارجيـة ، والمعين الثر لكـل باحث عن الانتـاج الأدبي والفكري عند رجال المملكة ـــ وتعتبر في الـوقت نفسه المصْدر الوحيـد لكـثير من الانتاج الأدبي الذي لم ينشر بعد في كتاب ولولاها لضاع إلى الأبد .

وفي عام ١٣٥٥ هـ صدرت مجلـة وجريـدة . الأولى تحمـــل اسم « المنْهـــل » وصاحبها (عبـد القـدوس الأنصاري) وهـي مجلـة شهريـة تعنـي بالأدب والثقافـة والعلم والاقتصاد والاجتماع ولا تتطـرق إلى الأمـور السِّياسيـة ـــ وتعـتبر « المنهل »

---

(١) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية د. بكري شيخ أمين ص ١١٠ .

أقدم مجلة أدبية في البلاد وهي من حيث المستوى الأدبي ــ تساير رصيفاتها في البلاد العربية الأخرى ، كما تعتبر من المصادر الرئيسية في دراسة الأدب في قلب الجزيرة العربية ولاسيما العصر الحديث .

إن أكثر الذين نالوا امتياز اصْدار الصحف في هذا العهد كانوا قادة الأدب الفكري في هذه البلاد[1] ، وحملوا المسئولية بكل شجاعة واخلاص ، وعملوا على أن يصلوا إلى المثل الأعلى ، فاعترضتهم المصاعب ، ووقفت في طريقهم العقبات وكان الواحد منهم عصاميا نال الرخصة فاعتمد على الله ثم على نفسه ، وعمل منها محررا ، ومصححا ، وموزعا وداعيا إليها ، وجامع اشتراكات ، ومجيبا عن كل ماكان من أسئلة واستيضاحات . ومثل هذه الأعمال تحتاج إلى جماعة من الفنِّين يتقاسمون هذه الأعباء ويحمل كل على عاتقه مسؤولية مستقلة دون أن تلقى جميعها على عاتق فرد واحد .

الإذاعة وأثرها على الأدب :

مما لاشك فيه أن الاذاعة عنصر قوي من عناصر الاعلام إلى جانب الصحافة ولأن للاذاعة علامة ماسّة بنشاط الأدب ــ وإذاعة بعض انتاج الأدباء ونشره ولقد ولدت الإذاعة العربية السُّعودية متأخرة ــ وكانت تعتمد في أول أمرها على النواحي الجدِّية أكثر من اعتمادها على التّسلية والتَّرفيه وقد حفلت الاذاعة بتلاوة القرآن الكريم والأحاديث الدينية والوطنية .

وطبيعي في الاذاعة المحدودة أن تكون حصة الأدب المذاعة كبيرة فلقد كان هناك ركن ثابت يسمى « عالم الأدب » وكان بعض الأدباء يقومون باذاعة أحاديث اجتماعية كأحاديث السِّباعي « دعونا نمشى » أو أحاديث أدبية ، أو تاريخية أو ثقافية كأحاديث (محمد حسن عواد) ، (أحمد محمد جمال) (عبد السلام هاشم حافظ) ، و (أحمد عبد الغفور عطار) وغيرهم وكان كثير من الشعراء والقصاصين يذيعون ألوانا من أشعارهم وقصصهم ــ وبهذه الوسيلة كانوا يتصلون بجمهور جديد هو جمهور المسْتمعين ، وبذلك اتَّسعت دائرة شهرة أكثر الأدباء والشعراء والقصاصين واشتهر صيتهم بين الناس .

---

(١) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية د. بكري شيخ أمين ص ١١٢ .

لم تكن الثقافة محصورة في النشاط الرسمي في المدارس الحكومية وماتقدم للجيل من معلومات وثقافة ، كما أنها لم تكن مقصورة على المدارس الأهلية ومايلقى في الحرمين الشريفين من علوم دينية ، وإنما كانت هنالك روافد أخرى ساعدت على التطور الثقافي والفكري في الحجاز ، كما أنها ساهمت في النهضة الأدبية بشكل عام ـــ ولقد عرف الحجاز نوعين من المكتبات : مكتبات عامة تفتح أبوابها لكل وارد يريد أن ينهل من معين الثقافة على تنوع فنونها ـــ ومكتبـــات خاصّة كان أصحابها يقدمون لتسهيل الوصول إلى محتوياتها كل تشجيع حثا على الأخذ بأسباب النهضة .

المكتبات العامة : (مكتبة الحرم المكي) .

وتحتوى[1] على عشرة آلاف مجلد بين مطبوع ومخطوط ، النصف منها عربي ، والنصف الآخر مابين تركي وهندي وأفرنجي ، ويرجع تأسيسها إلى عهد السلطان عبد الحميد خان عام ١٢٦٢ .

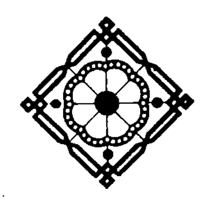
أما المكتبات الخاصّة فإنه لا يمكن حصرها لأن أكثر العلماء والمحدثين والمتأدبين كانوا حريصين على اقتناء المكتبات والمراجع كما أن بعض أهل الحجاز كان لديهم شغف بجمع الكتب ـــ ولكن بالرغم من ذلك فإنه لابأس من ذكر بعض هذه المكتبات الخاصّة . فيوجد في مكة وجدة : « المكتبة الماجدية » مؤسسها المغفور له الشيخ محمد ماجد الكردى عام ١٣٢٨ هـ وقد كان كثير الشغف بالعلم كثير التقدير للعلماء والاحتفاء بهم في داره في المواسم وغير المواسم ، وتحقيق رغبائبهم الأدبية بسخاء وتضم هذه المكتبة مايزيد على عشرة آلاف كتاب في شتى البحوث والعلوم ومعظمها مجلد تجليدا فخما حديثا وبها مخطوطات نادرة التمثيل في مثيلاتها » .

---

(١) ماذا في الحجاز ص ٢٤ .

« وفي جدة مكتبة الشيخ محمد نصيف وهي من أنفس مكتبات الحجاز وأحفلها بنوادر الكتب وفيها كتب خطية قيمة » .

« وفي المدينة انتشرت عادة تكوين المكتبات الخاصّة وبخاصّة بين الأسر الكبيرة وبيوتات العلم .



المرأة في الدّيانات السّابقة

ولننظر لقيمة المرأة حينما كانت في الماضي وحينما جاء الاسلام نذكر ماكتبه الدكتور أحمد شلبي في مقارنة الأديان حيث يقول[1] :

المرأة في الماضي : قضت الحضارة الرومانية أن تكون المرأة رفيقا تابعا للرجل لها حقوق القاصر أو لا حقوق لها على الاطلاق .

وقضت شرائع الهند القديمة : إن الوباء والموت والجحيم والسمّ والأفاعى والنار خير من المرأة » وحقها في الحياة ينتهي بانتهاء أجل زوجها الذي هو سيدها ومالكها . فإذا رأت جثمانه يحرق ألقت بنفسها في نيرانه . وإلا حاقت عليها اللعنة الأبدية .

وجاء في شرائع .. « منودهر ماساسترا » عن المرأة مايلي : تعيش المرأة وليس لها خيار سواء كانت بنتا صغيرة أو شابة أو عجوزا أما البنت في خيار أبيها والمتزوجة في خيار بعلها والأرملة في خيار أبنائها وليس لها أن تستقل أبدا ولا تتزوج بعد وفاة زوجها . بل تهجر ماتشتهيه من الأكل واللبس والزينة حتى الموت ولا تملك الزوجة شيئا وكل ماتحرزه يذهب توا لزوجها .

والمرأة عند اليونانيين من سقط المتاع لقد كانت تباع وتشترى . وكانت تعد رجسا من عمل الشيطان .

أما في التوراة فالمرأة وصفت في « سفر الجامعة » بالكلمات الآتية : « درأت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلا ولأعرف الشر أنه جهالة والحماقة أنها جنون فوجدت أمر من الموت المرأة التي هي شباك ، وقلبها شراك ويداها قيود[2] .

وفي الكنيسة الكاثوليكية وضع الكاتب الدانماركي Wieth Knudesen مكانة المرأة في العصور الوسطى فقال : كانت العناية بها محدودة جدا تبعا لاتجاه المذهب

(١) مقارنة الأديان د. أحمد شلبى ص ١٨٥ .

(٢) الاصحاح السابع الفقرتان : ٢٥/٢٦ .

الكاثوليكي الذي يعدّ المرأة مخلوقا في المرتبة الثانية .

وفي الجزيرة العربيةيوضح القرآن الكريمفي هذه الناحية فيقول : « **وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسْودّاً وهو كظيم يتوارى من القوْم من سوء مابشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء مايحكمون** »[1] فإذا نجت الوليدة العربية من الوأد وجدت غالبا في انتظارها حياة ظالمة ليس لها فيها نصيب من الميراث وقد تكره فيها على البغاء ــ وقد تبقى بعد وفاة زوجها متاعا يورث .

وفي « روما » اجتمع مجمع كبير بحث في شئون المرأة فقرر المرأة كائن لا نفس له وأنها لن ترث الحياة الأخروية ، وأنها رجس يجب ألا تأكل اللحم وألا تضحك ومنعوها من الكلام حتى وضعوا على فمها قفلا من الحديد فكانت المرأة من أعلى الأسْر وأدناها تروح وتغدو في الطريق أو في دارها وعلى فمها قفل[2] .

تلك هي المرأة في العصور القديمة . أما في العصور الحديثة : فقد عقد في فرنسا إجتماع عام ١٥٨٦ وبعد التناقش قرر المجتمعون أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل فأثبت الفرنسيون « إنسانية المرأة » تلك الانسانية التي كانت مْشكوكاً فيها من قبل . ولم يثبوها كاملة بل جعلوها تابعة خادمة للرجل .

وفي انجلترا بقيت النساء حتى لسنة ١٨٥٠م غير معدودات من المواطنين وظلت المرأة حتى عام ١٨٨٢م وليس لها حقوق شخصية فلا حق لها بالتملك وإنما كانت المرأة ذائبة في أبيها أو زوجها . ولم تسو جامعة اكسفورد بين الطالبات والطلاب في الحقوق (وفي الأندية واتحاد الطلبة) إلا بقرار صدر في تموز عام ١٩٦٤ م

---

(١) الآية ٥٨ ، ٥٩ من سورة النحل .

(٢) مقارنة الأديان ج/٢ د. أحمد شلبي ص ١٨٧ .

مفهوم المرأة[1] :

لقد حاول المنهج العلمي الوافد أن يخرج المرأة عن ذاتها وطبيعتها ووظيفتها ليضعها في مجال البديل الاقتصادي أو المتعة الذاتية مخالفا بذلك الفطرة والطبيعة الأصلية والتركيب الصحيح للمرأة .

لقد حرر الاسلام المرأة من آثار العبودية والإذلال ، وردَّ لها مكانتها الحقة واعترف بها شقيقة للرجل ، ومنحها المساواة في العلم والتملك والتصرف وأقام لها منهجا أصيلا في المعاملة والزواج والطلاق بما يحقق سلامة بناء الأسرة وقيام كيان المجتمع . وكشف عن مهمتها الأصلية وعن تركيبها الجسماني والعقلي وأعدّ لهذه المهمة لكل من الرجل والمرأة عمله ، ولكنه في نفس الوقت يتكامل مع عمل الآخر . فهما يقيمان معا صرح الأسرة ، ولا تعطى القوامة الموكولة الى الرجل أى ضغط أو ظلم أو سلطان متعسف بل لها قواعدها التي تتيح للمرأة الحق في العدل كما تتيح لها الحق في الانفصال إذا لم يتحقق العدل . ويستمد الفكر الاسلامي مفهومه في أمر المرأة من القرآن الكريم الذي أعطاها من الإرث نصف مأأعطى للرجل ، وكشفت الشريعة الاسلامية عن حريتها فيما تملك من مال وعقار لا يمنعها مانع من التصرف بأى نوع من التصرفات . وليس لزوجها أن يفرض عليها نفوذا في ذلك . وليس لولى الأمر أن يلزمها طلب القوت . وقد قام الزواج عقدا تصان به حرية المتعاقدين الكاملة والطلاق فرصة لكل من الزوجين أن ينفصلا عندما يتعسر الوفاق ويصبح الانفصال أمرا ضروريا .

ولا ريب أن القانون الطبيعي الذي خصص المرأة للبيت والزواج وولاة الأبناء وتربيتهم هو قانون لا يتغير . وأن كل معارضة له من شأنها أن تفسد الحياة الزوجية وتفسد الحياة الفردية للمرأة نفسها .

---

(١) أخطاء المنهج الغربي الوافد أنور الجندي ص ٣٧٤ ـــ ٣٧٥ .

وقد أحدثت التجربة آثارا بعيدة في الغرب بحيث انهارت الآداب العامة واهتزت أركان الأسرة ، وظهرت أحداث خطيرة من الإنحدار والخطأ نتيجة دخول مفهوم وافد خطير كان من أخطر عوامل تحطيم الأسرة المسلمة ونشر عوامل الانحلال فيها وابعادها عن طريقها الصحيح ، ومدخل الخطر هو الدعوة إلى الحرية الجنسية واتخاذ المرأة متعة يتمتع بها الرجل ، ومشاركة المرأة الرجل في صالات الرقص والنوادي الليلية ، ومنها قبول فكرة صديق العائلة ، وعدم تميز الفتاة بمنهج تعليمي خاص يتفق مع رسالتها وشخصيتها وخصائصها وتجاوز البناء الأخلاقي والتربوي للأسرة على أساس القدوة الحسنة والمفهوم الاسلامي الصحيح الذي عرفته في تاريخها ، والخضوع لمدارس الارساليات أو مناهجها في المدارس العامة ومن ثم فقد طرح المنهج العلمي الغربي الوافد في مجال المرأة والمجتمع مفاهيم وافدة كثيرة معارضة لطبيعة مفهومنا الاسلامي الأصيل هي حرية المرأة وملابس المرأة والزينة ، وأن سبب ذلك هي تلك النظريات التي قدمها (ماركس) و (فريد) و (دوركرام) (وليفي بريل) وأثرها السيء في تحريف مفهوم حرية المرأة وعلاقتها بالرجل والأسرة . فقد كانت هذه الدعوات تهدف أساساً إلى اخراج المرأة من مفاهيم الأديان وقيمة الأخلاق ودفعها إلى الحياة لتخوض بحار الرغبات والأهواء . وكان ذلك كله على حساب بناء المجتمع وكرامة المرأة وعفافها وعلى حساب الأجيال القادمة .

ولقد تعالت أصوات هؤلاء أصحاب النظريات حتى وصلوا إلى أن دوافع الانسان الأولى هي الجنس ـــ ولاشك أن ذلك كان عاملا خطيرا من المفاهيم التي كونت عقلية المرأة الحديثة التي أثيرت أحاسيسها بالدعوة إلى تحريرها من قوامة الرجل ونفوذه وسيطرته واعطائها الحق في أن تتصرف في أمر حياتها ورغباتها على النحو الذي تراه .

ولقد كان موقف الاسلام من الرغبات موقفا واضحا صريحا . فقد أعطى هذه الرغبات حقها من خلال إطار منظم كريم هو الزواج ، كما أعطى المرأة الحق في أن تلتمس حياة أخرى إذا عجزت عن أن تجد الأمن والطمأنينة الذي تتحقق لها مكانتها الاجتماعية والاقتصادية ، ويتعين لها أن تتحرك إلى هدف واضح هو أداء رسالتها في الأسرة ومع الزوج والأبناء والبيت .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدّراسة في المملكة فى جميع المراحل مجانية مهما اختلفت درجة ثروة الطلبة أو أوليائهم . بل وأنه لتتاح للدارسين فرص لا تتهيأ لغيرهم من الطلبة في أكثر دول العالم يدرسون وتقدم لهم الكتب دون ثمن ، وفي آخر الشهر تدفع لهم مرتبات تتراوح بين مائة وثلاثمائة وخمسين ريالا . وإذا مرض أحدهم وجد الطبيب في مدرسته نفسها وقدم له الدّواء من صيدليتها ، وإذا اضطر إلى عملية جراحية فباب المستشفى الحكومي مفتوح أمامه ، وحين يستعصى علاجه يرسل إلى بدل خارجى مع مرافق على نفقة وزارته أو معهده . وتصل السيارة إلى بيته ، فتنقله إلى مدرسته ثم تعيده وتحل العطلة فتقدم له بطاقة سفر جوى إذا كان من غير أبناء البلد لتقضيتها بين أهله وذويه .

ويفوز بالشهادة الثانوية فتستقبله الجامعات والكليات داخل المملكة مَرَحّبة أو توفده الوزارة ببعثة وقد يكون المبعوث متزوجاً ولا أولّاد فتضمن له الدولة سفر أسرته معه ، وتفرض له الراتب الكافي لحياة هنئة مريحة ، وتتيح له زيارة أهله بين الحين والحين على نفقتها . فإذا تخرج وجد أبواب الوزارات والمؤسسات مفتوحة تستقبله فيعين في المركز المناسب[1] .

أما تعليم البنات رسْميّا في المملكة العربية السُّعودية فقد تأخَّر طويلاً في العهد السُّعودي إذا لم يبدأ الشروع فيه إلاّ بعد ثلاثين عاماً تقريبا من تأسيس المملكة . وخلال هذه المدة كان تعليم البنين قد عم وقطع الأشواط ، وحلّ في كل قرية .. ويبدو لنا أن الدولة نفسها لم تسع إلى تعليمهن قصْدا في مستهل نشوئها لأن الأوضاع السياسية والاجتماعية لم تكن قد استقرت فيها بعد ، وماكان أحوجها آنذاك إلى الهدوء والسكينة . لكنها لم تتخل عن هذا التعليم أو تلغه من برامجها . وحين ألغت الحكم استقر ، والخزائن امتلأت ، والسَّاعد اشتد اتجهت إليه بكل قوتها ، وراحت تدفع المواطنين إلى المطالبة به من وراء حجاب ، وتشجع الصحف

(١) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية د. بكري شيخ أمين ص ١٦٨ .

على الخوض فيه ، وإثارة المناقشات وقد تم لها ماأرادت . وكثرت الاستفتاءات في مسألة « تعليم المرأة » ووجهت إلى العلماء والوجهاء والمثقفين وكثير من الناس الأسئلة : هل على الدولة واجب تعليم البنات ، بل هل يجوز أن تتعلم الفتاة ؟ وماذا يجب أن تتعلم ؟ وإلى أى مرحلة يكون علمها ..؟....

وقد وردت الأجوبة[1] من كل مكان ، واتفق معظمها على وجوب تعليم المرأة وأن ذلك فرض على الدولة . ولكنها اختلفت فيما تتعلم وفي المرحلة التي تبلغها فقد قال « سعد الدريبى في كتابه « فتاة الجزيرة » إن تعليم المرأة ضرورى كضرورة الماء والهواء ، ولكن لا يتجاوز تعليمها المتوسط ، أما الجامعى فلا نحبذه » وقال آخر « لا مانع من تعليمها بشرطين : الأول ألا يتنافى هذا التعليم مع تعاليم الدين والثاني ألا يتنافى ووظيفتها في الحياة[2] وقال بعض العلماء الشيخ حسين شطا المدرس بالحرم المكي « أن الرسول ﷺ كان يعلم النساء ، ويخصص لهن درسا يتلقين فيه منه أمور دينهن . ولقد سئلت عن تعلم المرأة الحساب والصحة وتدبير المنزل وغير ذلك فأقول : إن هذه العلوم تقاس على الأمور الدينية ، ويؤخذ منها بالقدر الذي لا غنى عنه مما لا تستقيم الحياة إلا به ولكن يجب مراعاة البيئة قبل كل شيء .

إن المرأة هي الخلية الأساسية التي يتركب منها جسم المجتمع فإذا كانت متعلمة ربّت جيلا متعلما يعز به المجتمع ويفخر بأعماله ونشاطه في جميع الميادين ، وإن كانت جاهلة أنشأت جيلا جاهلا يكون وبالا على المجتمع » وقال (أحمد عبد العزيز المبارك) وهو من العلماء « تعلم المرأة الطب والتمريض لا يتنافى والدين ، لكي تقى المرأة المسلمة أختها ضرورة كشف عورتها لدى كل طبيب . ويمكن أن تصل إلى هذه الغاية باقامة كلية للطب وللتمريض خاصة للبنات . أما اذا كان القصْد من دخول الجامعات مزاحمة الرجال على منصات الوظائف ، والبيع في الحوانيت والاختلاط بمن لا يؤمن فلا أراه بل أعتقد أن ذلك يضر بالمجتمع وبالمرأة على وجه الخصوص دينيا وحسّيا ومعْنويّاً ولا سيما إرسالهن إلى الخارج .

---

(١) فتاة الجزيرة لسعد الدريبي ص ٢٨ (٢) سير وتراجم لعمر عبد الجبار ص ١٠٤

وقالت المرأة : « أحبذ تعليمها الجامعي حتى تحصل على الماجستير ثم الدكتوراه لأنها أساس المجتمع وبلادنا في أشد الحاجة إلى الجامعات والمتخصصات ، بشرط أن يتفق مع دينها وآدابها ، وأن تعطى الحرية المعقولة في التعليم ، وفي التصرفات الشخصية حتى تحوز الثقة بنفسها مع مراقبة هذه الثقة . وقال آخرون لا يجوز أن تتعلم إلا القرآن في بيتها لتصح صلاتها .. وأعلنت الدولة رأيها إذ قالت « لا تستطيع الدولة أن تتحمل مسئولياتها تجاه من يطلب التعليم منهن ويكفي أن توجد فتاة واحدة تطلب التعليم ، ويقر ذلك ذووها حتى تكون الدولة ملزمة بتوفير هذه الفرصة لها[1] » وفرضت التعليم ، وجعلته في الوقت ذاته تحت إشراف السلطة الدينية ومراقبتها وأنشأت « الرئاسة العامة لمدارس البنات » وعينت عليها رجلا موثوق الدين والعقيدة معروفا بالتقى والورع وتركت له حرية اختيار أعوانه وموظفيه ، ورتبت لها ميزانية تكفيها ، وتفيض عليه .

لقد كانت هناك فئة[2] من المثقفين والعلماء تمسكوا بالمبدأ التالي : « إن المرأة نصف المجتمع وهي حصن الرجال وأمتهم ، ومدرستهم الأولى . فإذا كان هذا الشطر جاهلاً ربى الأطفال على الجهالة ، ورعاهم في ظلال التأخر والجمود والخمول بل غدت الأمة جمعاء جاهلة ، شلاء لاخير فيها . ونحن اليوم في أمسّ الحاجة إلى مجتمع سليم صحيح تدبّ في أطرافه الحياة ، والصحة ، ويسطع النور في كل جوانبه وزواياه » وهاهي ذي الدنيا بأجمعها تعترف بحق المرأة في التعليم . كما أن ديننا الاسلامي قد سبق ففرض العلم على كل مسلم ومسْلمة » .

وقال آخر : « إن تعليم المرأة ضروري كضرورة الماء والهواء ، ولكن

---

(١) التحدي الكبير نهاد الغادرى ص ١٩٨ .

(٢) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية د. بكري شيخ أمين ص ١٦٩ .

لا يتجاوز تعليمها المتوسط ، أما الجامعي فلا نحبذه » وقال (سعد الدريبي) في كتابه « فتاة الجزيرة » لا مانع من تعليمها بشرطين : الأول ألا يتنافى هذا التعليم مع تعاليم الدّين . والثاني ألا يتنافى ووظيفتها في الحياة » .

وقال الشيخ حسين شطا المدرس بالحرم المكي .. « إنَّ الرسول ﷺ كان يعلم النِّساء ويخصص لهَنَ دَرْسا يتلقين منه أمور دينهن . فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه وتعلمنا مما علّمك الله . فقال « إجتمعن في يوْم كذا وكذا في مكان كذا » فاجتمعن فأتاهنّ فعلمهن مما علَّم الله ..»

ولقد ذكر الدكتور نور الدين[1] عتر في كتابه عن المرأة بعيون « مفخرة المرأة المسلمة » حيث يقول : « من هنا نجد للمرأة في تاريخ الإسْلام مالا نجده للمرأة في العالم الحديث فعلى الرغم من الدعوة العريضة لتحرير المرأة ورفع مستواها في أوربا وأمريكا وعلى الرغم من وجود مدرسات جامعيات وطبيبات لم تبلغ منهم المرأة التي تكون لكبار الرجال إماما يأخذون عنها ، بينما نجد في مختلف عصور التاريخ الاسلامي نساءً لهن أثر بالغ يخلده التاريخ ، حيث كن قدوة للرجال والنساء . فهناك السيدة عائشة كانت شاعرة أديبة ، وعالم بالطب وفقيهة ومجتهدة يؤخذ عنها الدين والقرآن .. والسنة ـــ والفتوى ـــ وفي أتباع الصحافة نبغت حفصة بنت سيرين وأم الدرداء الصغرى في علوم الدين ، وكانت عائشة بنت عبد الرحمن وغيرها في الشعر والأدب .

وهذه كتب التاريخ المرتبة على أسماء أعلام المسلمين حافلة بالنساء اللاتى نهضن بالعلم في ظل حضارة الإسلام ، وفي كتب رجال الحديث خاصَّة باب كبير للنساء المحدّثات يشهد بأثرهن في حمل الركن الثاني من مصادر التشريع وهو السنة المطهرة .

---

(١) ماذا عن المرأة د. نور الدين عتر ص ٣٢ .

يتضح مما سبق أن تعليم المرأة لكي تعد جيلا متعلما صالحا للحياة أمر واجب وأن يكون تعليم المرأة أحكام الشريعة الاسلامية لمعرفة حقوقها وواجباتها ضرورى وهذا رأيى ، أما تعليم المرأة الحساب والصحة وتدبير المنزل وغير ذلك فتقول هذه العلوم تقاس على الأمور الدينية ويؤخذ منها بالقدر الذي لا غنى عنه ولا تستقيم الحياة إلا به » .

لقد نادى المؤرِّخ[1] المعاصر أحْمد السِّباعي إلى تعليم المرأة حيث أن المرأة عليها واجب مسئولية تربية الأطفال وهذا المقال بعنوان « حاجتنا إلى تعليم البنات » يقول « الطفل الذي ننكر عليه أنانيته ونحارب شعوره باستقلاله فيعش كئيبا مقبوض النفس والطفل الذي نترك لميوله الحرية بلا قيد ولا ضبط فينشأ شهوانيا عنيدا لا يكبح جماحه ولا يلوى عنانه ! والطفل الذي نسحق إرادته ، ونعسَر عواطفه فيربى فيه الخوف والجبن والإيمان بالأوهام ! والطفل الذي نفرط في تدليله والحنان عليه ، فلا نعلم طاعة والديه ولا نخلق فيه الثقة بهما وشعوره بالحاجة إلى كل مافي معناهما فتتركه يكبر إلا في عقله يدلل نفسه عندما يصبح رجلا ، فلا يضطلع بمسئولية ولا يخوض مع لذاته غمار الحياة ولا يعتبر نفسه مطالبا بقواعد الناس ومايربطه بهم .

هذا الطفل وذاك ، وأولئكم مجنى عليهم في نظر الدين والإنسانية والعرف من جانب واحد هو جهل الأم . الأم الجاهلة التي تكبت غرائز الطفل وتضغط على ميوله فتصوغ منه رجلا لا يمت إلى الرجولة بشيء .

والأم الجاهلة التي لا تقدر أن تسوس أخلاق طفلها وتقيد أهواءه الشاذة بضوابط تقرها التربية الحكيمة ، فتنشيء منه شريرا مجرما ـــ ثم الأم التي تفرط في العطف على طفلها وتغذي روحه بمعاني الأنوثة .

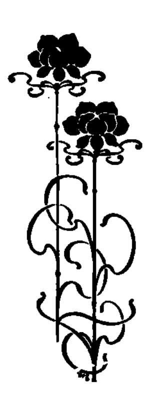
هؤلاء الأمهات يقدمن إلى المجتمع رجالا يشقى بهم وجنايتهن هذه تقع مسئولية أكبر قسط منها على من أهمل أمرهن وأنشأهن غبيات جاهلات .

---

(١) وحي الصحراء (مقالة لأحمد السباعي) .

وقد كان أحمد السبّاعي مسدّد الرأى حينما دعا إلى تعليم المرأة وخاصّة وأن عليها مسؤولية كبرى وهذه المسؤولية تستوجب التعليم ويستطرد قائلا :

« إذن فما بالنا نَغُض عن اعداد الأمهات وتعليمهن على الأقل مايلائم وظائفهن كمربيات وأمهات وربات أُسَرْ » .





الفصل الرابع

حياة الشاعر، نشأته، نسبه - اتصالاته مع رجال العصر



حياة الشّاعر طـاهر الزمخشـــري

نشأته : ولد طاهر الزمخشري بمكة المكرمة عام ١٣٣٢ هـ . وكان يعيش في بيئة فقيرة ووالده كان يعمل فراشا في محكمة ــ وتلقى تعليمه في مدرسة الفلاح وهي مدرسة أهلية ، وقد أسسها الحاج محمد على زينل وهو أحد كبار تجار اللؤلؤ بجدة ــ وكان ينفق عليها من ماله الخاص وكانت الدراسة فيها على أربع مراحل :

الأولى تحضيرية : ومدتها ثلاث سنوات وتدرس فيها سور من القرآن وشيء من التجويد وقواعد الإملاء ــ وبعض العمليات الحسابية ثم أضيف إليها بعد دخول السعوديين الفقه والتوحيد والمطالعة .

المرحلة الثانية ابتدائية : ومدتها ثلاث سنوات أيضا وفيها يدرس الطلبه القرآن وتجويده والتوحيد ، والفقه ، والحديث والسيرة ، والقواعد ، والصرف والإملاء والخط والحساب .

المرحلة الثالثة المتوسطة : ومدتها ثلاث سنوات أيضا وفيها يدرس التفسير والحديث والتوحيد على مذهب ابن عبد الوهاب ــ والفقه والسيرة ــ وعلوم العربية والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة « مسك الدفاتر » .

المرحلة الأخيرة العالية : مدتها ثلاث سنوات ويدرس الطلبة فيها بعمق التفسير وأصوله ــ والحديث ومصطلحه ، والفقه والفرائض ، والأخلاق ، والمنطق وعلوم الرياضيات بما فيها الجبر والهندسة والحساب .

وقد هيأت مدرسة الفلاح للبلاد خيرة الرجال المثقفين ، وطلابها كانوا المادة الرئيسية التي اعتمدت عليها المملكة العربية السعودية في نهضتها وخريجوها هم اليوم الوزراء والوكلاء والعلماء والأدباء ، والرعيل الأول الذي حمل على عاتقه عبء النهضة الفكرية والأدبية وأذاعها في طول البلاد وعرضها[1] .

---

(١) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية د. بكري شيخ أمين ص ١٥١ .

وأثناء مجالستي للشاعر عرفت فيه أنه بمجرد تخرجه من المدرسة وحصوله على المؤهل الدراسي يتزوج زواجا تقليديا طبقا لعرف المجتمع في هذا الوقت وهى تعبير بفرحة الطالب وكهدية له ــ ولكن الزواج في هذا الوقت كان ينقصه الجانب العاطفي وهو جانب مهم في الحياة الزَّوجية فأحب الشاعر فتاة من بيئة عالية فيها الجمال والسحر والأنوثة وبادلها الحب ــ وكان هذا الحب سببا في انفعالات الشاعر العاطفية التي كانت المشجعة له بقول الشعر ــ ونستطيع أن نقول إن عامل الحب والغرام هو سبب في انطلاقة الشاعر وإثارة وجدانه(١) .

... ولكن الزوجة ماتت وتركت له أربعة من الأولاد وتركت له أيضا الأسى والحزن العميق وفي نفس العام أيضا ماتت محبوبته ــ وعاش بعدها الشاعر في ذكريات وأوهام وخيالات وبرغم هذه الأحداث التي أثرت في حياة شاعرنا إلا أننا نجده متفائلا بالحياة ويتمتع باشرافة نفس جميلة .

وقد بدأ شاعرنا حياته العملية أستاذا بمدرسة الأيتام بالمدينة المنورة وتقلب في عدة وظائف حكومية فعمل أولا بالمطبعة الأميرية ثم عمل موظفا بأمانة العاصمة وبلدية الرياض وديوان الجمارك ثم مسؤولا بالاذاعة السعودية التي ساهم فيها مساهمة فعالة ــ وخلال ذلك قدم برامج عديدة من أهمها برنامج الأطفال (بابا طاهر) الذي التصق باسمه وأصبح معروفا به إلى اليوم .

وهو أول من أصْدر مجلة سعودية للأطفال باسم (**الروضـــة**) عمل بالصحافة فترة طويلة وكتب الشعر في فترة مبكرة من حياته ــ وقد أصْدر حتى الآن سبعة عشر ديوانا شعريا وهو يعتبر من الروّاد الأوائل الذين حملوا على عاتقهم العلم والفكر ــ بالاضافة إلى ذلك أنه أسهم مساهمة كبيرة في الأناشيد والأغاني وله عدد كبير من الأغنيات يغنيها فنانون سعوديون وفنانون عرب .

---

(١) حديث مسجل بيني وبين شاعر عن حياته الخاصّة .

رحـــلات الشّاعر :

لقد قام شاعرنا بعدة رحلات في بعض البلْدان العربية ـــ وكانت رحلاته الأولى إلى مصر ثم إلى لبنان ثم إلى تونس ثم إلى الأردن وبعد ذلك زار المغْرب مرّة واحدة ـــ وأثناء إقامته في لبنان أصْدر خمسة دواوين شعريـة ـــ وقد سافـر إلى مصر أصْدر خمسة دواوين شعرية ـــ وبعد ذلك أصدْر سبعة دواويـن ثم بعـد ذلك أصْدر ستـة دواوين في تونس ولم يصدْر إلا ديوانيه في جدة بالمملكة العربية السُّعودية .

عوامل تكوينه الشاعرية:

لقـد كانت هنـاك عدة عوامـل كانت سببـا في تكويـن شاعريـة شاعرنـا طاهـر الزمخشري وأهمها :

١ ـــ العامـل العاطفـي : كان شاعرنـا يعـيش في بيئـة فقيرة ـــ وعندمـــا كان شاعرنا مسؤولا في الإذاعة ومشرفـا على البرامج الفنيـة والثقافيـة وهـذا جعلـه يتصل بالبيئات العالية وبالتالي يريد أن يتطلع إلى حياة أفضل فكـان هذا هو الدافـع الأول في تنمية عاطفة الشاعر نحو فن الشعر .

٢ ـــ تشجيع بعض الناس من حواليه من الناحية المادية والناحية المعنويـة والتـي مكنته من مواصلة الدراسة والنبوغ الفكري والأدبي .

٣ ـــ حب الشاعر للموسيقى والأغانى ـــ وخاصّة وكان يحب أغاني الموسيقـار محمد عبد الوهاب وكوكب الشرق السيدة« أم كلثوم »

اتصالاته مع رجال العَصْر :

قابل الأستاذ « **طاهر زمخشري** » الأستـاذ الشاعـر « **أحمد الصافي** » وقـد عرض عليـه شاعرنـا إنتاجـه الأدبي وأعـجب به وأبـدى ملاحظاتـه واستفـاد منـه شاعرنـا استفادة كبيرة ومن أكبر الشخصيات الشاعرة التي التقى بها الأستاذ أحمد رامى .

كما تعرف الزمخشرى على الأستاذ الشاعر ابراهيم العريض ـــ وبعـد ذلك صارت له علاقات واسعة عدد من الأدباء والشعراء العرب وفي مقـدمتهم الأستـاذ/ ابـراهيم ناجى وكان ذلك على أثر رحلاته إلى مصر ـــ وتكـررت اللقـاءات معـه حينما كان

رئيس رابطة الأدب العالمي .

وقد استفاد شاعرنا من الأستاذ/ أحمد رامي الذي كان له الأثر في تكوين شاعريته ــ واستفاد منه في تأليف الأغاني ــ حيث ألف بعض الأغنيات مثل أغنية « أسمر حليوة لطلال مدَّاح » وأغنية « خاصمت عيني من سنين للمطرب محمد عبده » وأغنية (المروتين/ لطارق عبد الحكيم) .

وقد كان هناك بَعض الفئات المثقفة التي عايشها شَاعِرُنَا ــ وهذا المحيط الأدبي من الأصدقاء كان لها الأثر الكبير في تكوين شاعريته ــ وهم الشاعر عبد الله عريف والشاعر عزيز ضياء والشاعر محمد حسين سرحان والشاعر ضياء الدين رجب والشاعر ــ محمد عمر توفيق ــ أحمد عبد الغفور عطار .

ويرجع الفضل الأكبر للأستاذ عبد القدوس الأنصاري الذي كان يوجهه في بعض الأحيان من ناحية قواعد اللغة والألفاظ المشتقة والمترادفة .

لقد كان للمحيط الأدبي من الأصدقاء لشاعرنا طاهر زمخشري أثر كبير في تكوين شاعريته وإذا كان شاعرنا قد اتخذ منْهجا معينا في شعره الغزلي فقد استهواه التعبير عما يجيش في نفسه وعما يكابد من الحب ، ومايلقى من تباريحه وهو يعبر دائما عما يقع بنفسه عند لقائها ، أو عند وداعها ، أو عند تذكرها ــ كان جلَّ حديثه عن معشوقته حديث المشتهي إلى جسدها ، الطامع إلى وصالها ــ وهو مشغول دائما بنفسه ، وهواه ورغباته وتطلعاته . ولقد كان من الشعراء الذين تناولوا هذا الفن في عصر الزمخشري هو الشاعر (ضياء الدين رجب) ولقد كانت اللقاءات بين هؤلاء الشعراء ذات أثر كبير في نضوج شاعرية طاهر زمخشرى ــ يقول الشاعر ضياء الدين رجب مصورا حوار بينه وبينها قصيدة تقول :[(١)]

تقول : أما شاقتك منى بقية	هي النفس كل النفس والقلْب والحب
هي العهد أبقى مايلذ اذا انطوت	صبابته واستذكر النشوة والصبُّ
فآثار أقدام الحياة على المدى	مساحب أذيال بين بهاء الدرب

* * *

(١) جريدة « البلاد » تاريخ ٢٤ محرم ١٣٨٧ هـ

فقلت لها : يامي هل يـذبل الهوى　　　وهل تخصب الدنيا اذا عافها الجذب

فلـيست سن العمـر غير عوازل　　　تنافستى لكـن قلبـي هو القـلب

* * *

فقالت : أنحن اليوْم نحيا على منى　　　سوالف عاشت بين أعطافنا تحبو

أجل . فكلنا يامىّ ذنبا ولم نزل　　　نقـول بسرٍّ الحب : يارب يارب

* * *

لقد تقابل شاعرنا « طاهر زمخشري » بالشاعر أحمد الصافي العراقي في الجانب الاجتماعي في شعره وعند نصف ديوان الصافي فإننا نجده لم يركز على فكرة محدودة للاصلاح بل نجد عواطف ثائرة اتقدت عندما رأى حالة الفلاح المتردية فأراد أن يصلحها باسعاد الفلاح ورفع مستوى حياته وليس من عمل الشاعر أن يقدم مشاريع اصلاحية انما عليه ابراز الحالة السيئة لينبه الشعور ولعل قصيدة الشاعر أحمدّ الصافي هي القصيدة التي حوت جميع المعاني التي تطرق لها الشعراء وهي رائعة ، فقد افتتح بها ديوانه (الأمواج) وخاطب فيها الفلاح طالبا منه أن يترفق بنفسه ولا يحملها كل هذا التعب لأن جميع سعيه ذاهب إلى غيره ولا يعود عليه إلا بالفقر المدقع والعيش الحقير يقول الصافي(١) .

رفقـا بنـفسك أيها الفـلاح　　　تسعى وسعيك ليس فيه فلاح

لك في الصباح على عنائك غدوة　　　وعلى الطوى لك في المساء رواح

هذى الجراح براحتيك عميقـة　　　ونظيرهـا لك في الفـؤاد جراح

في الليل بيتك مثل دهرك مظلم　　　مافيـه لا شمع ولا مصبـاح

فيخرّ سقفك ان همت عين السما　　　ويـطير كوخك إن تهب ريـاح

وبالرغم من هذا العناء والعيش الذليل في الكوخ فإن الاقطاعيين لم يتركوا له حتى حريته فقد أثقلوه بالديون بعد أن أخذوا حصة الأسواق من الإنتاج الذي أذاب لأجله قلبه ودمه ــ فجاء الطامحون يستغلون هذا الربح دون رحمة :

---

(١) الشعر العراقي الحديث د. يوسف عز الدين ص ٢٧٧ .

هذى ديونك لم يسدّد بعضها عجزا فكيف تسدد الأرباح
يغضون وجهك للمشقة أسطر وعلى جنبيك للشقا ألواح
عرق الحياة يسيل منك لآلئا فيزان منها للغنى وشاح
أتصدّ جيش الطامعين ولم يكن لك في الدفاع سوى الصياح سلاح؟

ومتى سمع الطامع الصياح والبكاء فهو في شغل شاغل عنه في لذاته وشهواته ، يستبق الكأس المترعة وألحانه المغرية في قصر يفيض بالنور المشرق ويتلألأ بالسعادة الهانئة ويطفح بجمال الرياض وغالي الأثاث وبديع الثياب ـــ ومتى استمع مستغل جشع إلى صوت ضعيف معذب أحدق به البؤس وأضناه المرض وأقعده الفقر وإن كان هذا الضعف هو الحق الصريح ـــ لذلك وجدنا النجفي يثور ثورة عارمة بعد ان استيأس الاصلاح في ظل السلم والمنطق وطلب من الفلاح أن يترك العمل الذي لا يعود نفعه عليه ـــ فقال الشاعر والألم المرير القاسي الحزين في شعره :

ياغارس التمر المؤمل نفعه دعه فإن ثماره الأتراح
أقلعه فالثمر اللذيذ محرم للغارسين وللقوى مباح

ومن جانب آخر نرى شاعرنا « طاهر زمخشرى » عندما كان في مصر وتقابل مع الشاعر « إبراهيم ناجى » رئيس رابطة الأدب العربي وفي هذه الفترة التي قضاها شاعرنا في مصر والتي ألف فيها سبعة دواوين شعرية كان متأثرا بها كل التأثر بالشاعر (ابراهيم ناجي) ويغلب على شعره طابع الحزن والقلق والحيرة والشكوى وهذه سمات الرومانسية كما أوضحنا ذلك توضيحا كاملا في عوامل تكوين شاعرية الشاعر وهذه الخصائص بعينها هي نفس السمات البارزة في شعر « ابراهيم ناجي » فنجد في ديوانه قصائده التي طابعها النزعة الرومانسية مثل « الحنين ـــ النائى المحترق ـــ مناجاة الهاجر ـــ الصورة ـــ الانتظار ـــ الفراشة ـــ الأجنحة المحترقة ـــ عتاب ـــ البحر ـــ رسائل محترقة ـــ الغريب ـــ بعد الفراق ـــ النسيان ـــ المساء ـــ عاصفة ـــ عينان ـــ إليها ـــ في ظلال الصمت ـــ قصة حب ـــ خاطرة ـــ وحيد ـــ الطائر الجريح ـــ ليلة ـــ ليلة العيد ـــ نسيم البحر قيثارة الألم ـــ المقعد الخالي ـــ لمن الصمت ـــ فجر جديد ـــ اعتذار ـــ

ومن غير شك أن شاعرنا « طاهر زمخشري » كانت له ثقافة شعريةلا واسعة حينما قرأ ديوان الشاعر « ابراهيم ناجي » وتأثر به في كل الموضوعات السابقة ــ وخاصة الرباعيات التي تناولها الشاعر في دواوينه الشعرية والتي تشتمل على النجوى والشوق والحب والهجر والجمال في المحبوبة .

ويبدو لنا واضحا أنّ طابع الألم يغلب على الغزل ــ والشعراء الذين تناولوا هذا الفن حينما تطالعنا نرى صورة الألم بشتى ألوانه كالبكاء ، والأنين ، والشكوى والسُّهد ، والقلق ، والتمزق والحرمان ومماأشبه هذه الأُمور فهذا من أصدقاء شاعرنا « طاهر زمخشري » الأستاذ (حسين سرحان) يصور كأس الرحيل في شعره فيقول :[1]

أنا لن أنساك حتى ولو نسيت	سوف تنساني ولا أنسى هواك
لو تراني يوم أضحى أو أبيت	شارد الفكر ، فيا بعْد مداك

* * *

أتراءاك وطرفي لا يراك	مائلا قلبي ، وذهني والضمير
كنت ألقاك على حلو صباك	فإذا الأرض بباب في عسير

(١) ديوان أجنحة بلا ريش للشاعر حسين سرحان ص ١٩ .

نشير في هذا البحث عن المحيط الأدبي من الشعراء الذين كانوا يشكلون جماعات تتضافر كلها وتتسابق في ميدان العلم والأدب ونبدأ بالشاعر (أحمد عبد الغفور عطار) لنعطي نبذة عن حياته ثم مثالاً من شعره ــ وهو شاعر عاطفي ولكنه قليل الانتاج في الشعر وكاتب اجتماعي له مؤلفات ضخمة ــ وولد بمكة المكرمة عام ١٣٣٥ وتلقى علومه بالمدارس الحكومية بالعاصمة والمعهد العلمي السعودي[١] ويقول في قصيدة السلام :

آه ، لا أبصر الصدى　　　وانطوى الدرب واندثر
هاهنا ، ثم هاهنا　　　حفر خلقها حفر
والرياض التى زهت　　　قد عفّت وأمحى الأثر
والشياطين عربدت　　　تنشر الذعر والخطر
والسنا صار غيهبا　　　والدجى أغلق البصر
لا يرى مسلك الهوى　　　محى الطود والشجر
والورى آواه القوى　　　والردى زلزل البشر
أى شيء نرى هنا　　　ها هي الحرب لا مفر
هي حرْب وقودها　　　كل مابان واستتر
وبنوا آدم غدوا　　　من لظى الحرب في سقر
ليت شعري إلى متى　　　يلعب الناس بالشرر
ليت شعري إلى متى　　　نجرع الصاب والكدر
قال صوت مجبب　　　أسمعوا عندى الخبر
أيها العالم الذي　　　فقد النور واعتكر

ويستطرد الشاعر قائلا :

انتظر ساعة المنى　　　ساعة السلم والظفر

---

(١) شعراء الحجاز (عبد السلام الساسى) ص ٢٧٧ .

وننتقل إلى شاعر آخر وهو الشاعر « عبد الله عريف » :

وهو شاعر عاطفي قليل الانتاج ، ولكنه كاتب اجتماعي في طليعة الكتَّاب المبرزين[1] وله جولات وهمسات في عالم الأدب والفكر تشهد له بها الصحافة العربية السعودية وعلى الأخص جريدة (البلاد السعودية) التي يدير ادارتها ويرأس تحريرها ، وتلقى معارفه بمدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، ثم بمدرسة دار العلوم العليا بالقاهرة ولم يكمل دراسة السنة النهائية بها لعودته إلى وطنه بعد اعلان الحرب العالمية الثانية ــ وقد تغلب في كثير من مناصب الدولة إلى أن استقر به الحال أخذ في إدارة ورئاسة جريدة تحرير البلاد السعودية . وقد كتب لنا الكلمة الآتية عن الشعر لانقطاعه عنه زمنا طويلا فقال : انقطعت عن الشعر أكثر من عشر سنوات ولكن مواكب الجمال التي طالعتني بها في مدن (باكستان) في رحلتي الصحفية لها في عام ١٣٦٩ أنطقتني بالشعر احتفظت بأكثر لنفسي ولصديقي وزميلي في الرحلة الأستاذ السيد على حافظ ونشرت له المقطوعتين . يقول في قصيدة « مسكين » :

كلما جئت مكانا	والتقت نفسي بنفس
وبدأ للقلْب حب	غير حبي يومْ أمس
عجل الصحب رحيلي	ورموا قلبي بيأس
لم أعد أستطيع صَبرا	بعد أن فاض كأس
هل تراني باحثا	جئت عن موطن رمسي
أو تراها نقمة	حطمت قلبي وحسٌ
سألتني أنت من ذا ؟	عربي ؟ فقلت (يسٌ)
فأشارت ، أمقيم ؟	أنت يوْما ؟ فقلت (دسى)
يابلاد الحسن عفوا	أنا أودعتك حسٌي
فيك خلفت غراما	بل وأسلمتك نفسي
أنت ذكرى حلوة	لم تصب قط بوكسى
ليت أيامي طالت	يالها أيام أنسى !!

(١) شعراء الحجاز (عبد السلام الساسي) ص ٢٢٣ .

ومن الشعراء الذين عاصرهم شاعرنا « طاهر زمخشري » هو الشاعر « حسين سرحان »[1] وهو شاعر فحل مكتمل الأداة ، مجدد من المدرسة الابتداعية التي لا تهيب الماضي بل تقتحم ولكنها لا تدوسه ، يطوف بشعره آفاق الفكر ، ولا يكاد يلمّ بالعاطفة إلا قليلا لا يعيبه شيء إلا أنه لا يساهم في رسالة التجديد ولولا ذلك لكن لاسمى دون مسموع .

ولد بمكة المكرمة عام ١٣٣٢ هـ وتلقى معارفه بمدرسة الفلاح بمكة وخرج منها قبل أن يتم دراسته ، وقد تعين في كثير من الوظائف الحكومية حتى آخر وظيفة هي سكرتير بادارة المالية العامة بوزارة المالية ومازال بها حتى الآن . ويقول في قصيدته « عاشق الكوكب » :

يسرني ياحبيبي بعض منزلة ... في قلبك العذب أو في روحك السامي
تقول ذاك وترجو أن أصدقه ... فيما تقول . فوا سحقا لأحلامي
لا .. لن أصدق أن يختارني قمر ... ينجاب عن وجنتيه كل ظلام
تنكب الجو واعتام الثرى وطنا ... وصار أقرب إلى من رأس إبهامي
حسبي في الفضاء الرحب منطلقا ... يذود بروح الضنى عن قلب الدامى
وحسبي النور منه استمد به ... غلى تكبد ماألقاه .. الهامي

* * *

العمر ولى وخير العمر أوله ... فما تعلل أمثالى بأوهام
لو كنت أعرف نفسي بعض معرفة ... لما وأدت صباها قبل أعوام
ولو علمت بنعمى منك تبعثها إلى ... بين تباريحي وآلامي
لعدت واتخذتني روضة أنف ... هزارها الفرد في ترجيع أنغام
ياروضة جمعت في الحسن ماانقسمت ... من أيادي أقاليم وأقوام
ويامنى النفس . أقضى كل أمنية ... من كل نفس وأعصى مارمى الرامى
أعاذك الله من حبي فإن له ... نارا تجود على الذكرى باضرام

---

(١) شعراء الحجاز (عبد السلام الساسي) (ص ١٣١ ، ١٣٢) .

ونجد أيضا من الشعراء الذين عايشهم شاعرنا « طاهر زمخشري » هو الشاعر « محمد توفيق » وهو شاعر جيد وكاتب أجود وهو في كتاباته أكثر منه في شعره ، وُلد بمكة المكرمة عام ١٣٧٧ هـ وتخرج من القسم العالي بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة ، وتقلب في عدة مناصب للدولة آخرها وظيفة رئيس المكتب الخاص بديوان جلالة الملك المعظم.[1] يقول في قصيدة « سبيل مخدوعين » :

قالوا : ألقيت وعفت ورد المنكر ... ورضيت نهج الزاهر المتطهر

وصرفت عن بنت المدام وغيها ... وعن الهوى إن طاب طاب المشترى

وسلكت درْبا .. كل درب مثله ... لمسير في العيش .. خير مخير

قلْت الهوى .. إن طاب طاب لآمن ... شر العثار ، وخير المتعثر

اللهو في عمري قصيد ضائع ... مابين ميسور وغير ميسر

قد كان حبي منه كأس ملامة ... كالفجر .. في نيل الدجى المتعكر

عاقرتها ، وخبرتها .. حتى لقد ... أمسيت لا أصحو وإن لم أسكر

ماكنت أنشد غيرها لى سلوة ... ولو أن ساقيها حبيب المعشر

كانت علالة خاطر ووسيلتي ... للعيش ، بين مهرج ومكشر

ماكنت أخطبها مجردة ولا ... بنت القرون ولا وسيلة أعصر

إلى أن يقول الشاعر :

دنيا تموج بسحرها وفتونها ... قد صورتها الكأس خير مصوّر

---

(١) شعراء الحجاز (عبد السلام الساسي) ص ٢٣٥ .



الفصل الخامس

عوامل تكوين الشاعرية

عوامل تكوين الشاعرية
ظاهرة التأثر عند الشاعر طاهر الزمخشري

مما لاشك فيه أن هناك بعض مظاهر التأثر في شعرنا المعاصر في الحجاز ، والمتبادر إلى الذهن وتؤيده الحقائق الملموسة أن الإنسان الفنان مهما حاول أن يتلمس سبل الابداع في أعماله الفنية يجد نفسه مشدودا إلى تلك الرواسب الثقافية التي كونت استعداده وغذّت مواهبه الفطرية ، بحيث لا يمكنه التخلص منها تماما ، فهي تحاول كلما أتيحت لها الفرصة أن تطفو وتسلل إلى أعماله ، ومن هنا كانت قوة الاستجابة لاغراءات لاطار الثقافي ومكوناته قضية لا يمكن انكارها في أي عمل من الأعمال الفنية .

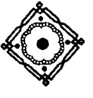
وعندما يصبح التسليم بهذه الظاهرة أمرٌ معترفا به بين المتصدين لتقويم الأعمال الفنية فإن هدف البحث عن مظاهر التأثر لا يمكن أن يقصد به اصطياد المآخذ وتهويل أمرها أو الاحتقار والحط من قيمة العمل الفني المقوّم ، وإنما يصير الغرض هو اجراء المقارنات والموازنات بهدف الكشف عن التميز الذي وصل اليه هذا العمل أو ذلك الفنان ، كما أن سبر أغوار تلك الآثار ودرسها يساعدان على تصنيف هذا الفنان وتحديد انتمائه الفني ــ ومن هنا كان جل اهتمامي بالوقوف عند هذه الناحية مِنْ الظواهر في شعر طاهر الزمخشري .

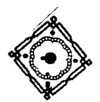
ولقد كان الحجاز منذ أوائل نهضته الحديثة فتح أبوابه لكل ألوان الثقافات المختلفة وأن جيل النهضة الذي يعتبر شاعرنا طاهر الزمخشري واحد منهم انصرفوا إلى تلك الروافد الثقافية ينهلون منها هادفين من ذلك إلى أن يلحقوا بركب التقدم الحضارى وتمشيا مع النهضة الأدبية الحديثة التي شملت مصر والشام منذ القرن التاسع عشر الميلادى ــ وقد استطاع أحد الباحثين[1] في الحجاز أن يجد مرحلتين لأهم تأثير من تأثيرات تلك الظواهر الثقافية التي ساعدت على تطور الحركة الأدبية الحديثة في الحجاز « مرحلة تأثير الأدب العربي المهجرى حين أخذ بعض الشعراء

---

(١) الأستاذ عبد المقصود في مجلة المنهل عدد فبراير عام ١٩٣٩ .

والكتاب المعاصرين في الحجاز يعجبون بما أنتجه أدباء المهجر من شعر ونثر ونقد ــ ثم مرحلة الانصراف إلى الثقافة المصرية والعكوف على انتاجها الشعري والنثري والنقدي وتمثله التأثر به .





أثر الثقافة الوافدة في شعر الحجاز

لقد كان من آثار الطموح الأدبي الذي سعت إليه تلك الفئة المثقفة من شعراء الحجاز المعاصرين ، ومن بينهم الشاعر « طاهر الزمخشري » أنها مضت تنكب وتنهل من شتى الروافد الفكرية ، وأخذت كثيرا من المؤلفات الأدبية الوافدة ذات الآراء والمضامين الاصلاحية والدعوات التجديدية ، كما أعجبت ببعض الآثار المهجرية في الشعر ونقده ، وهكذا استطاعت هذه الثقافات المختلفة الوافدة أن تجد طريقها إلى المكتبات الخاصّة لتلك الفئة ، وتترك بعض سماتها وأصباغها على شعر بعضهم أو نثره ، وقد عنى بملاحظة هذا التأثر بعض من كتب الأدب الحديث في الحجاز من أهل الحجاز أنفسهم ونشير هنا إلى بعضهم :

١ ــ إن أحمد العربي ألقى محاضرة عن (الأدب الحديث في الحجاز) في عام ١٩٢٦ وحين تحدّث عن نزعة التجديد في هذا الأدب نراه يقول : (قد كان أثر أدباء المهجر من السوريين أقوى وأظهر من أدبنا الحديث حتى عهد قريب[١] .

٢ ــ والأستاذ محمد سعيد عبد المقصود يجيب على سؤال حوْل الأثر الذي أوجده الأدب الحديث فيوضح رأيه قائلا : « وبالرغم من تأثر أكثر الشباب بالثقافة المهجرية فإن تلك الثقافة لم تنتج نتاجا طيبا إلا لدى قسم ضئيل جدا كان استعداده الشخصي قليلاً ، ولما لم تجد بعض النفوس في الثقافة المهجرية الغاية التي تقصدها بدأت تبحث عن ثقافة أكثر ملاءمة لحياتها فحولت وجهتها إلى الثقافة المصرية ..

وطغت الثقافة المصرية على الثقافة المهجرية .. وأخذ الشباب يلتهم الثقافة المصرية بنهم شديد ويهضم كل ماتنتجه ويعشق كتابها ويقلدهم لا في الكتابة والأسلوب فحسب بل في التفكير والاتجاهات أيضا .[٢]

ويحتج[٣] الأستاذ (عبد القدوس الأنصاري) في مقاله عن (الأدب الحجازي)

---

(١) وحى الصحراء لعبد الله بلخير ومحمد عبد المقصود ص ٨٨ (٣) المنهل عدد إبريل عام ١٩٣٧ .

(٢) مجلة المنهل عدد فبراير عام ١٩٣٩ المجلد الثالث .

إلى التخصص وذكر بعض الأدباء الذين تأثر بهم بعض الحجازيين فيقول : « ومن أجل هذه النزعة التصويرية في الموضوعات الأدبية رأينا أكثر أدباء مكة يعجبون بأدب الدكتور طه حسين والعقاد والمازنى ويتذوقون أدبهم تذوقاً خاصاً ومن أجل ذلك للنزعة العلمية في الموضوعات العلمية رأينا جمهرة أدباء المدينة يتنافسون في اقتناء كتب الدكتور فريد الرفاعي وأحمد أمين ومحمد عبد الله عنان ويحفلون بدراستها . وبسبب هذا الاختلاف الذوقي في الموضوع الأدبي بالحجاز لاحظنا أن الأحكام تصدر من كل واحد من الجانبين تقديرا وانتقادا بمقتضى ميوله الأدبية[1] .

٤ ــ ويذكر الأستاذ عبد الله عبد الجبار أن « أثر العقاد واضح في العطار وخاصّة في بواكير إنتاجه .. وأثر طه حسين ظاهر في عزيز ضياء لما يبدو وأثر الرافعي في محمد زيدان ..» وعندما أتيحت الفرصة لأولئك الشعراء والكتّاب من الحجازيين المعاصرين أن يخرجوا مؤلّفاتهم ودواوينهم الشّعرية إلى النور لإثبات الوجود الأدبي نجدهم أو نجد بعضا منهم يهدى تلك المؤلفات إلى كبار الأدباء الذين كانت لهم بهم صلة فكرية وأحيانا يصدرون تلك المؤلفات بمقدمات من أقلامهم .

فالشاعر العطار يهدي ديوانه الأول إلى العقاد والمازنى ويصدره برسالة من طه حسين إليه في شأن ديوانه ، والشاعر « طاهر الزمخشري » يهدي ديوانه الأول « أحلام الربيع » طبعة ١٩٤٦ إلى الأستاذ الدكتور هيكل « كثمرة من ثمار ذلك التشجيع وزهرة من الزهرات التي تعهدها بالرعاية ، اعترافا له بالجميل .

وعندما نقرأ في ديوان (أحلام الربيع) قصيدة « أين الصديق » التي يقول فيها الشاعر « طاهر الزمخشري » :

جذوة اليأس التي أشعلتهـــا يازماني قعـدت بي في الطــريق
لاهث الأنفاس مكدود الخطى متعبا يطفــو بجنبــي حــريــق

إلى أن يقول :

---

(١) المنهل (جريدة) عدد أبريل عام ١٩٣٧

(٤) التيارات الأدبية (عبد الله عبد الجبار) ص ١٧٥ .

كان لي في ثورة اليـــــأس أخ كان في غلس الوهـــم رفيـــق
جرسه الرنـــان داو أبـــدا واسع الخطوة في الكوْن الطليق
هاهـــو اليـــوم وقـــد مرّ فلا عُذْت ألقـى ماأسمّيـه الرفيـق
أثـــرى ذاب فلا ألمســــه أين منى ذلك القلْب الصـديق
أيـن منـي عبقـرى ملهـــم لشقاوتي وشَجْـوى لا يضيـق
ذلك القـلْب الـــذي عودني كيف ألقى الخطب بالصّمت العميق
ثابت الجأش طروبـا مرحـــا وإلى اللذات في الدنيا سبوق[1]

ونحن حين نقرأ تلك القصيدة نجد الشّاعر يحاول أن يتأثر بمنهج أستاذه الشّاعر المصري « ابراهيم ناجي » الذي يخاطب رفيقا من رفقائه حين يقول :[2]

لمن العيـون الفاتـرات ذبـولا ومن الخيال موسَّدا محمـولا
ياهـمّ قلبـي في صبـا أيـام وسهاد عيني في الليـالي الأولى
عينـاي كذبتا وقلبـي لم تدع دقاتـه شكـا ولا تأويـلا
ياأيها الملك العليـل أفـق تجد مضنـاك بين العائديـن عليـلا
يوم المآب انتظـرتك باكيـا وبعثت أحلامـي إليك رسولا

إلى أن يقول :

بالله قل أو ماوراءك لحظـــة جمعت خليلا هاجرا وخليـلا ؟
هي لحظة وهي الحياة ومن يعش من بعدهـا يجد الحيـاة فضولا
مر الظـلام وأنت ملء خواطري ودنا الصباح ولم أزل مشغـولا
وأتى النهار على فتـى أمسى بما حمل النهار من الشؤون ملـولا
وكـذا الحياة تمل إن هي أقفـرت ممن يهوّن عبأهـا المحمـولا
كدّ على كدّ ولست ببالـــغ إلا ضنـا متتابعـا ونحولا
صدأ الحوادث بدل الاشراق في فكري وكـدّر خاطري المصقـولا

(١) ديوان أحلام الربيع للشاعر طاهر الزمخشري ص ٤٦ — ٤٧ .

(٢) ديوان شعر (ابراهيم ناجي) ص ١٠ .

كيف نشأ الأدب المهجرى

نقل المهاجرون من العالم العربي ــ الآداب العربية إلى المهاجر الأمريكية في الشمال والجنوب ، فبانتقالهم من أوطانهم انتقلت معهم لغتهم وثقافتها وتراثها وآدابها ، والأديب العربي الذي فارق وطنه وعاش في أرض العالم الجديد لا يمكن أن يتخلى عن موهبته كما لا يمكن للنسر أن يترك التحليق في الأجواء وعندما ينتقل من مكان إلى مكان ، إنه لابدّ له من الشدو والتغريد كما يغرد الهزار إذا فارق جوه الذي نشأ فيه .. إن الأدب ملكة لا تتخلى عن الأديب ولا يستطيع أن يعيش بدونها .

وهكذا كان المهجريون ، فبعد أن استراحوا من أعباء السفر ، ومشقة الهجرة واستقروا في حياتهم الجديدة بعض الاستقرار ، بدأوا يكتبون الأدب ، وينشئون النثر ، وينظمون الشعر كما كانوا في بلادهم ، وأخذت تظهر بوادر الحياة الأدبية العربية في المهاجر بين المهاجرين ، وساعد على ظهورها حاجة المغترب إلى التنفيس عن نفسه باطلاق الحرية لموهبته الأدبية ، وإحساسه بالحنين الجارف إلى وطنه ومسارح ذكرياته ، ومواطن أهله وأحبابه وأترابه .

وهذا الأدب العربي الذي كتب في المهجر هو الذي سمى « الأدب المهجرى » والذي صار مدرسة ضخمة من مدارس الآداب العربية المعاصرة .

ويطلق الدكتور مندور على الأدب المهجري لقب « الأدب المهموس » لأنه يقع في الحس موقع الأسرار التي يتهامس بها الناس ، وكلمة الهمس في رأيه هي إحساس بالأدب المصنوع من الحياة كأنه قطعة منها .

ويقول جورج جيدج : طبعت شمس الغروب ألوانها على أوراقه « الأدب المهجري » أما لبّه فيحيا على اشعاع الشرق ، وقلبه يختلج بنسمات الصحراء ، ويجعل الموهبة الفطرية لا الثقافة هي مفتاح السرّ في تفوق أدب المهجر مع الجد والاجتهاد والتأمل العميق[1] .

ولكنا نرجع ونقول إذا كانت الموهبة الفطرية سببا من أسباب التفوق والنبوغ

---

(١) أدبنا وأدباؤنا (جورج حيدر ح ص ٥١

فلا بأس من أن تدعم هذه الموهبة بالثقافة الواسعة التي تجعل الإنسان يطل منها على نافذة الحياة .

ونستطيع[1] أن نقول أن الأُدباء المهجريين تأثروا بالمدارس الشعرية الجديدة في العالم العربي ومن بينها :

١ ـ مدرسة الكلاسيكية الجديدة ممثلة في شعر شوقي وحافظ ومحرم والرصافي .

٢ ـ مدرسة مطران التجديدية الإبداعية في الشعر الحديث ، واتجاهها رومانسى ، وهي مدرسة تتحرر من قيود التقاليد الأدبية واللغوية ، وترى الشعر تعبيرا عن ذات الشاعر ، وموهبة خلاقة تشعر بنفسها وبالحياة شعورا عميقا .

٣ ـ مدرسة شعراء الديوان : شكري والمازني والعقاد واتجاهها أيضا رومانسي ، وإن كانت لها نزعات رمزية وواقعية .

٤ ـ مدرسة شعراء أبو لو التي قامت عام ١٩٣٢ ومن غير ريب وجدت صلات فنّية وفكرية بين هذه المدرسة وبين شعراء المهجر ، وحين فكر أبو شادي في الهجرة من وطنه مصر عام ١٩٤٦ ، فكر في المهجر الأمريكي الذي يقيم فيه أعلام الشعراء المهجريين .

٥ ـ مدرسة الرسالة لصاحبها أحمد حسن الزيات ، وقد كان لها كذلك صلاتها بشعراء المهجر ، وتأثيراتها فيهم ، وهي كلاسيكية المذهب ويقول الأستاذ عبد اللطيف اليونس في كتابه « المغتربون »[2] .

« ليس في الأدب العربي ، قديمه وحديثه ، أسمى من الأدب المهجري ولا آنق ولا أحلى . وليس في الأدب العربي كالأدب المهجري : وحدة رسالة ، ووحدة هدف ووحدة اتجاه .

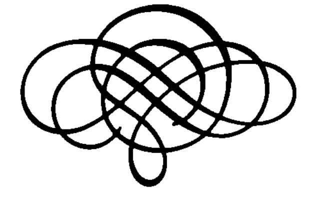
والأدب المهجري يمتاز بروحانيته الصافية في الشمال ، وبوطنيته الصارخه في الجنوب ـــ لقد نما أدب الرابطة القلمية في الشمال منحى إنسانيا صافيا ـــ وكذلك أدب الجنوب على واقعيته وجدِّيته لم يهمل الناحية الإنسانية والروحانية .

---

(١) قصة الأدب المهجري د. محمد عبد المنعم خفاجي ص ٧٣ .

(٢) المغتربون « عبد اللطيف اليونسى » .

وكلا الأدبين في أمريكا الشمالية والجنوبية كان يصْدر عن نبعة واحدةً وعاطفة واحدة ، وواقع اجتماعي شديد الشبة بواقع الآخر .



إن القصة في شعر الشعراء المهجريين فن من أهم فنون شعرهم ، والقصة التي تتناول كل أحداث الحياة ، القصة الشعرية التي تصور كل مادقّ وجلّ من أمور الوجود ، وقد نظمها شعراء المهجر وصوروا فيها حيرتهم وتساؤلهم وألمهم وأملهم وبكاءهم وفرحهم نظمها إلياس فرحات ورشيد أيوب وأبو شادي وإيليا أبو ماضي الذي تأثّر به شاعرنا « طاهر الزمخشري » بأتجاهه الفني نحو هذا الطراز يقول إيليا أبو ماضي في قصيدته (الشاعر في السماء)[1] :

رآني الله ذات يوم	في الأرض أبكي من الشقاء
فرق والله ذو حنان	على ذو الضر والعناء
وقال : ليس التراب دارا	للشعر ، فارجع إلى السماء
وشاد فوق السماك بيتي	ومدّ ملكي على الفضاء
فالتفت الشهب حول عرش	وسار في طاعتي الضياء
وسرت لا ينطوي صباح	إلا بأمرى ولا مساء
لكنني لم أزل حزينا	مكتئب الروح في العلاء
فاستغرب الله كيف أشقى	في عالم الوحي والسناء
وقال : مازال آدميّ	يصبو إلى الغيد والطلاء

وعلى ذلك نجد شاعرنا « طاهر الزمخشري » قد مرّ بتجربة قاسية استطاع أن يصورها في قصيدته التي يبلغ عدد أبياتها مائة وستة عشر بيتا ـ في هذه القصيدة الطويلة التي قسمها الشاعر إلى مقطوعة وقصيدتين وهي في الحقيقة تحكي قصة شاعرنا مع شخصية مرموقة في مجتمعنا وقد وهب الشاعر نفسه لخدمتها ولكن وجد نفسه أخيرا يجرى وراء سراب أو شبه مايشبه السراب ولكن تنبه بعض مضى الوقت الطويل لا يقل عن ربع قرن فكان جزاؤه نكران الجميل ـ وعظمة شاعرنا في أنه قدم لهذه القصيدة العصماء الطويلة بمقدمة ضمنها كل مشكلته في شكل استفهام فيه كثير من المرارة والغيظ وقد سمّى تلك المقطوعة باسم « الحرمان »[2]

(١) قصة الأدب المهجري د. محمد عبد المنعم خفاجي ص ٣١٤ .
(٢) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٤٠ .

وقد علل الأستاذ الدكتور « ماهر حسن فهمي » هذا القلق في كتابه فقال[1] :

« ومن الحق أن عصور الانتقال تخلق جوّا من القلق والتردّد في النفوس بما توجده من صراع بين التقاليد الموروثة والتقاليد المستحدثة ، ولكن إذا كان عصر الانتقال وحده هو المسئول عن ذلك الألم وتلك الهموم التي تملأ أشعارهم ، فلم يتضح عندهم بهذه الصورة القوية دون غيرهم من الشعراء الذين عاصروهم والذين تحدثنا عنهم من قبل ؟ والواقع أن الشعر الرومانتيكي الأوربي كان عميقا في نفوسهم ثم في انتاجهم ، فالذين كانوا يحسون هذا الضيق هم الذين تغذوا على ذلك الأدب الرومانتيكي . فذلك الأدب بما يصوره من أجواء حالمة تضفي على الحزن والألم لونا من العذوبة هو الذي حبب الألم إلى الشباب . وحتى القصائد التي ترجمها هؤلاء أو عربوها عن الشعر الأوربى ، تدل على مدى المجابهة وتأثرهم بذلك الشعر الحزين .» .

ونحاول في الصفحات التالية أن نوضح دواعي الهروب في شعر « طاهر الزمخشري » وأن نبرز هذا الجانب لأنه مظهر من مظاهر الرومانتكية الحديثة — وأن شاعرنا يعتبر فارس هذا الميدان — يقول الأستاذ الدكتور محمد غنمي هلال : « الرومانتيكي لاستسلامه لمشاعره وعاطفته يحس بجمال الطبيعة الخلاب ويصف كل منظر فيها ويحب العزلة بين أحضانها لا يرجع في ذلك إلى تقليد الآداب القديمة بل إلى ذات نفسه[2] » .

فهذا الاتجاه من مظاهر الشاعر الرومانتيكي يتضح أمرين الأول الاعجاب بالطبيعة والثاني حب العزلة فهو يهرب إليها وهذا يرجع إلى ذاتيته . فالرومانتيكي ذاتي غير مقلد كالكلاسيكي فكل مايقوله الرومانتيكي نابع من ذاته فشعره يفيض من قلبه من احساساته ومشاعره ولا يتقيد بالنقل والمحاكاة .

---

(١) تطور الشعر العربي الحديث في مصر للدكتور ماهر حسن فهمي ص ١٨٢ .

(٢) الرومانتيكية : دكتور محمد غنيمي هلال ص ١٦ .
المصدر نفسه .

وفي اتجاه آخر يقول : « هذه الذاتية الرومانتيكية لها خصائص تتجلى على الأخص في عدم الرضا بالحياة في عصرهم وفي القلق أمام عالمهم ومايعج به من أحداث وفي الحزن الغالب على أنفسهم في كل حال دون أن يجدوا له سببا وهذه الحال ناشئة من عدم توازن القوى النفسية عند هؤلاء الذين طغى عليهم الشعور بذات أنفسهم طغيا يدفعهم إلى النقمة على كل ماهو موجود » .

ونودُّ هنا أن الذاتية الرومانتيكية لها الخصائص التالية :

١ ــ عدم الرضا بالحياة والقلق أمام عالم ومايعج به من أحداث .

٢ ــ الحزن الغالب على أنفسهم في كل حال دون أن يجدوا سببا .

وسنحاول أن نبحث عن هذه الخصائص في شعر شاعرنا (طاهر الزمخشري) فقد تكون كلها منطبقة أو بعضها جزء منها .

ويستطرد الدكتور غنيمي هلال في حديثه عن التفاؤل فيقول :[1]

« ومن الرومانتيكيين متفائلون ومنهم متشائمون ويدفع الخيال بكل الفريقين إلى سلوك طرق متباينة ولكنه يجمع بينهما أن فيها جميعا هروبا من الواقع بضروب من أوهام العقل والقلْب أو أوهام القلب وفيها جميعا تتمثل أزمة من أزمات الاحساس والفكر كأشد ماعرف الإنسان من أزمات الفكر والشعور » .

ونحاول بقدر الجهد أن نستخلص مدى التفاؤل والتشاؤم لدى شاعرنا طاهر الزمخشري وأن نعرف النهج الذي سلكه في هروبه من الواقع ــ إذا أثبت هذا الهروب عنده ، وهل هذا الهروب من أوهام العقل أو القلب ومدى تمثل الأزمة الاحساسية والفكرية في هذا الهروب .

وبعد أن اتضح أن الهروب مظهر من مظاهر الرومانتيكية وأنه أساس من أسس الخيال الرومانتيكي نود أن نعرض للأسباب التي دفعت شاعرنا الزمخشري إلى هربه إلى الطبيعة ثم إلى الله ، إلى الطبيعة كوسيلة للراحة النفسية التي يبحث عنها وكتعويض عن حياة القسوة التي يعيشها وبحث عن شيء فقده في حياة الواقع ، وإلى الله كملجأ وصل إليه بعد أن أضناه البحث في دنيا الطبيعة .

وقد ألف شاعرنا ديوان سماه « لبيك » وهنا اتجاه روحاني لجأ إليه الشاعر وأصبح غرضا أساسيا من أغراض شعره .

(١) الرومانتيكية د. محمد غنيمي هلال ص ٥٤ .

إن شاعرنا متفائل كل التفاؤل بالحياة وليس معنى هذا أننا لا نجده متشائما منها بل ربما لازمه هذا التشاؤم في فترة الانفجار العاطفي الحزين ، وفترة السخط بمجريات الحياة القاسية التي قابلها بصبر أحيانا ، وبهروب إلى الطبيعة والتخلي عن واقعيته أحيانا أخرى ونرى ذلك واضحا في قصيدته « الصبر »[1] :

لا أريد الحياة إلا نضالا	لا ولا أرتضي الدنايا نصالا
لا ولن توهن الخطوب قناتي	فلكم أرهبت قناتي الرجالا
صارمي عزمتي وصبري شراعي	وبه أعبر الخضم اختيالا
أبدا تضحك الأماني بنفسي	وهي تجري سحابا ثقالا

وهذه الأبيات تعبر عن تجارب عاشها الشاعر وهي من تجاربه الخاصَّة ـــ والبيت الأخير هو الذي أعطى المقطوعة روحا فعبر عن كل مايريد أن يقوله فهو يعيش على الأماني الطيبة ، ولو لا هذه الأماني مااستطاع أن يصبر ويناضل وأن يرهب الرجال بقناته ولولا هذه الأماني ماتسلم بالعزيمة ، وماعبر البحر الخضم بشراع من الصبر مختالا باسما ـــ كل هذه القوة استمدها من الأمانى الكثيرة التي تجري في نفسه كأنها سحاب ثقال . إنه الأمل والتفاؤل الذي يملأ قلب الشاعر ويدفعه إلى العمل والكفاح ، ونريد أن نتساءل هل بقي على حالته أمام تيار الحياة ؟ أم لا ! .

إن الحياة قاسية وقسوتها على الشاعر أثقل من قسوتها على إنسان عادى قد يرضخ لها دون محاولة الفكاك منها ودون محاولة للوقوف أمامها أو على الأقل دون محاولة للتعبير عن ضيقه بهذه الحياة ـــ وذلك يرجع إلى حساسية الشاعر وشفافية روحه مما لا يتوفر للانسان العادي للتعبير عن ضيقه بهذه الحياة ـــ ولقد مرت بالشاعر ظروف صعبة جدا وهي موت زوجته وتركت له أربعة أولاد ومحبوبته التي كان يبادلها الحب وتركت له لوْعة الأسى وقد ماتا في سنة واحدة وتلك كانت أقسى المشكلات التي مرت بالشاعر طاهر الزمخشري .

---

(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٢٤ .

وهكذا اكتنفت شاعرنا المصاعب من كل جانب ولذا تمثلت له الحياة كصحراء قاحلة مجدبة ، فهو لا يرى في صحراء حياته مايرون ويطفيء ظمأه ومايرد إليه حياته السعيدة الهانئة ومايجعله يشعر بقيمته كفرد محترم في مجتمعه وهو إلى جانب ذلك يرى ككل شاعر أنه ليس ككل الناس لأن الذاتية وهي مظهر من مظاهر الشاعر تسيطر عليه فتجعله يصور من القليل كثيرا ويخلق من الحقير شيئا جديرا أن ينبه إليه الناس... ولكن حياته انقلبت صحراء بجوها وهوائها وأناسها حتى ساكنيها انقلبوا إلى شراسة في الطبع والخلق وكأن الصحراء المجدبة صبغتهم بصبغتها الجهوم .. فشاعرنا مرَّ بتجربة قاسية استطاع أن يصورها في قصيدته التي يبلغ عدد أبياتها مائة وستة عشر بيتا ــ في هذه القصيدة الطويلة التي قسمها الشاعر إلى مقطوعة وقصيدتين وهي في الحقيقة تحكي قصة شاعرنا مع شخصية مرموقة في مجتمعنا وهب الشاعر نفسه لخدمتها ولكن وجد نفسه أخيرا يجرى وراء سراب أو مايشبه السراب ولكنه تنبه بعد مضي الوقت الطويل لا يقل عن ربع قرن فكان جزاءه نكران الجميل .

وعظمة شاعرنا في أنه قدم لهذه القصيدة العصماء الطويلة بمقدمة ضمّنها كل مشكلته في شكل استفهام فيه كثير من المرارة والغيظ فيقول في المقطوعة التي اعتبرها مقدمة لموضوعه والتي سماها « الحرمان » يقول شاعرنا[1] :

هل تذوقت لذة الحرمــــان	وتعطشت بعْدهــا للأمــاني
ورأيت الشجون تذكى لهيبا	في حنايــا نديــة بالحنــان
وسمعت الأنين من قلب حر	أوثقتــه الصروف بالأحــزان
وإذا لم.. فإن ذوب فؤادي	في لحوني أصداء تلك المعــاني

ماأجمل هذه المقطوعة إنه يتساءل في استغراب وسخرية هل كنت قد تذوقت الحرمان وهل تعطشت بعد هذه اللّذة للأماني العذاب ؟ وهل رأيت لهيبا تذكيه الشجون في حنايا نفس ملئت حنانا حتى أصبحت لكثرة هذا الحنان ندية ؟ وهل سمعت أنينا من قلب حر لازمته الأحزان ؟ فإذا لم تتذوق لذة الحرمان ولم تر

(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٤٠ .

الشجون تزكي اللهيب في الحنايا ولم تسمع أنين قلْب الحر الموثوق فانظر إلى ، ذوب فؤادي ، واستمع إلى أصْداء لحوني لتفهم تلك المعاني ولتراها رأى العين .

مقدمة بارعة استهل بها الشاعر قصيدته ليمسك بأوتار قلوبنا ويحركها تبعا لما تمليه عليه مشاعره واحساساته ، وفي قصيدته هذه يرينا الشاعر كيف ذاب فؤاده وكيف أن هذا الذوب انطبع في ألحانه إن الشاعر يشعر بهروبه بل بوجوب هروبه من الواقع إلى الألحان والأصداء ليسمع فيها وجيب قلبه ، وليصور فيها ذوب فؤاده فيستمتع باللذة واللهيب والأنين .. وإذا قلنا إن الشاعر يشعر بوجوب هروبه من حياة الواقع فلسنا مغالين في ذلك ، إنه لم يكتف بهذه المقدمة بل يقول في أول القصيدة موجها كلامه إلى صديقه الوحيد يقول له : « لقد أفهمتني معنى العزة والكرامة كما يجب أن تفهم ، وضمدت جراحي ، وأخذت بيدي في صحراء الحياة ، بعد أن كادت تضل بي السبل ، وألهمت قيثارتي النشيد فلا عدمتك »[٤] .

أليس في هذا تأكيد لمعنى الهروب وأن شاعرنا أصبح يحس بأن حياته أصبحت صحراء يهيم فيها بقيثاره وألحانه وصدى تلك الألحان .

وشاعرنا الزمخشري حريص على أن يحتفظ بقوة شعره ، لذا لم يقيد نفسه بقافية معينة ، ففي المقدمة نجد القافية غيرها في الفصل الأول والثاني والثالث ثم يتخلص من قافية الفصول الثلاثة في الفصل الرابع ويتخلص من كل ماسبق في خاتمة القصيدة التي عنوانها : « إلى أولئك » يقول شاعرنا :

زعموا أنني بجد الطلاب	سوف أحيا مضيع الآراب
بعد أن بدّد الزمان الأماني	ثم أوهى عزائمي وشبابي
ورماني بالداء في كل عضو	وتلهى عضاله في اهابي
وأقامت لى المتاعب حرْبا	أكلت نارها رؤوس حرابي
وترامى الشجا حيالى حرورا	ضل في لجته وضاع صوابي
فطويت السنين سبعا وعشرين	مقيدا مكبلا [illegible]عاب

(١) ديوان أغاريد الصحراء لماهر الزمخشري) ص ٤١ .

الدروب الفساح تنداح دوما لعيـــــوني عن بارق كذاب
كلما لاحقت خطـاى مداه زين الوهـم لى خداع السراب
فأخذ الخطى تضيء طريقـي زفرات من لاهب صخـاب

فشاعرنا في الفصل الأول من قصيدته الطويلة يحاول أن يضع أيدينا على السبب الذي من أجله ينقم على الحياة الواقعية ، ويتمنى حياة بعيدة عن تعقد حياة الواقع بدد الزمان أمانية فيها وشنت عليه المتاعب حربا شعواء ، كيف لم يذق مر الحياة وكيف تنصب المتاعب شباكها حوْله وهو الذي طوى سبعا وعشرين سنة دون أن تتحطم هذه القيود ودون أن تنفرج أمامه سبل الانطلاق .

كان يحلم ويتخيل : يتخيل دوربا فسيحة سوْف لا يجد فيها شوْك العناد ولكن يرجع بصره بعد طول نظر كليلا مخدوعا ببارق كذاب طالما جرى خلفه وأطال خطاه ليلحقه فإذا به سراب يحسبه وهو ظمـآن إلى المجد ــ ماء إذا به سراب بقيعه ، وإذا به يعود والذي يضيء له طريق العودة زفرات من لهب لها صوت صاخب .

وهكذا يصل به ضجره من الحياة إلى أن يهرب إلى الطبيعة وإلى الله في الفصلين الثاني والثالث .. وينتهي بعدئذ إلى الخاتمة كما أعتقد والتي عنوانها « إلى أولئك » إنه يشير بأصابعه العشرة إلى من وقفوا في سبيل حياته ، وإلى من حاولوا أن يوهنوا عزيمته ويندروا فيه التقاعس ــ وقد كانت عند شاعرنا نزعة جريئة حينما تكلم عن هؤلاء « وأشار اليهم في شعره ويصور نفسه كبطل في الميدان يقف في وجه أولئك الأعداء يقول شاعرنا :[1]

زعموا أننى أعبس مضاعـا لا يكن الحيـاة عزم آبـائى
لا ولاتوهن الخطوب قنـاتي لا ولا يقهر الأسى كبريـائى
أنا كالطود كلما مرت الأيام أقـوى على احتمال البـلاء
وكفى أننى بسطت الحنايـا وهي رفافـة بصدق الـولاء

إن مضمون الأذى الذي ألحقه أعداؤه أجملوه أو أجمله هو في زعمهم أنه يعيش

(١) ديوان أغاريد الصَّحراء (طاهْر الزمخشري) ص ٤٩ .

ضائعا في الحياة ، ولكن هل يقرهم شاعرنا على زعمهم ؟ كلا ! فالحياة لا تضعف من إبائه ، ولا توهن من قناته ولا تقهر من كبريائه ، فهو طوْد يقوى على احتمال البلاء . أما فخاره الذي يفتخر به فهو أنه رحيم بأعدائه بسط يد اليهم كما بسط يده لأصدقائه بصدق الولاء ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ إن النتيجة التي وجدناها عنده هي الصورة التي استعرضها في خاتمته هذه لأعدائه فهو ذو مجهر يريه الخفايا من وراء السجوف إذ يقول :

إن لي مجْهرا يريني الخفايا	في تضاعيف زمرة أدعياء
من خؤون عاطيته الودَّ صرفا	فتوارى يكيد لى في الخفاء
أو جهول أراه في ، يماري	وهو عشواء لا ترى أضوائى
أو لئيم فتحت منه عيونا	ليرى الدرب فانبرى لعدائى
أو مداج يفتر عن مبسم الأفعى	وينقض جارحا من ورائى
أو دعى حسبته موضع السوء	إذا بي أراه أصل شقائي
كلهم أرهفوا لحقود وراحوا	يتبادرون في ادعاء الوفاء[1]

فهو يقدم خمسة نماذج أو خمس صور لمن وقفوا حجر عثرة في طريق حياته .. فأولهم خؤون اتخذه شاعرنا صديقا ، ووهبه كل وده وحبه ، ولكن الصديق كانت مهمته هي تخطيط المكايد خفية ، وأما الثاني فهو جهول ، وأعشى أيضا لا يرى الضوء اللامع « ضوء شاعرنا » أما الثالث فهو لئيم ، فكم هداه شاعرنا الى دروب النجاح فكانت النتيجة العداء السافر .. وأما الرابع : فهو مداج يبتسم في وجهه إذا قابله أما من خلفه فهو كجوارح الطير ينقض لينهش لحم شاعرنا ، أما الخامس فدعى لا أصل له وهو كالأول أعطاه الشاعر كل ودّه وكان هو سبب بلاء شاعرنا في كل محنه ومصائبه ــ أما الصفة الجامعة التي يشترك فيها الخمسة فهى أنهم جميعا يحملون حقدا وضغينة للشاعر ويتبارون ظاهرا في ادعاء الود والوفاء .

إننا نلاحظ أن تلك الصور كلها قديمة موروثة تبدو على بعضها سيمة القدم واضحة إلا أنها في حقيقتها واقعية في حياة شاعرنا ــ ومضمونها مضمون رومانتيكي ولاشك في ذلك .

(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٤٩ .

وإذا كان شاعرنا في الأبيات السابقة كانت عنده نبذة من التشاؤم من الأعداء الذين كانوا يلتفون حوْله فإننا هنا نجده متفائلا في هذه الأبيات يقول شاعرنا[1] :

ليتهم يدركـون بعض الـذي أر	جو وتطوى نفوسهم بعض دائى
يزعمون الاشفاق في شكل عتب	وهـو لم يعُـذْ لوثـة البلهـاء
ويرون الـذي أتـيت قبيحـا	أى قبـح يشين قدر بنـائى ؟
أنا للمجد أبتنيـه صروحـا	لا هراء مبـعثرا في الفضـاء
ديدني النجـح والسواء سبـيلي	ولـو أنى أسير في رمضاء
كل يوْم يمر وهـو حفيـل	بسطـور كتبتهـا بدمـائى
وستبقـى على الليـالي سجـلا	لم تشوهـه زائفـات الريـاء
بل سأحيا كما تريـد الليـالى	شامخ الأنف في الشفوف الوضاء[2]

إن شاعرنا يُبرز لنا صور من تصوراته لشخصيته فهـو صاحب الأمجاد ينها صرْحا بعد صرح ، وحليفه النجاح ، والطريق السوي سبيله ، ولـو سار في رمضاء ، ولا يمر يوم إلا وقد سجل فيه للتاريخ سطورا يكتبها بدمـه ـــ هذه السطور ستبقى مدى الدهر إذا لم يشوهها مايزيف كل إنسان ألا وهو الرياء .

ثم يستطرد الشاعر قائلا :

بل سأحيـى كما تريـد الليـالي	شامخ الأنف في الشفوف الوضاء

إن الأمل يداعبه ليعيش حياة مستقرة آمنة يشعر فيها بالعزة والفخار والكرامة ، ولكن ماذا يريد بقوله : « كما تريد الليالي » إن الصلة بينه وبين الطبيعة التي هرب إليها فترة من حياته في هذه القصيدة لايريد أن تبدأ بسرعة فمازالت الليالي تحتضن ومازال هو يطيعها ويحن إليها فهو رهن إرادتها فقد وجد في سواد الليـالي في صحراء الحياة مالم يجده في ضوء النهار في حياة الواقع .

إن الأمل مازال مرة أخرى يلح عليه ويداعبه ـــ ونحن نرى ذلك واضحا في

---

(١) (٢) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٥٠ .

نفس القصيدة الختامية يقول شاعرنا :

سوف أسعى ففي غد سوْف ألقى ... كل ماأرتجيه دون مضائي
ولئن طال في المسالك سعيي ... مطلع الفجر هازم الظلماء
فأنا في السنا أعيش وحوْلي ... فرحة تفخر المدى بالضياء
لا أداجي ولا أمالي لكسب ... مكسبي أن أعيش رمز الفداء[1]

ومن هنا نجد الشاعر طاهر الزمخشري سيسعى وسيجد في السعي وهو واثق من أنه سيحصل على كل مايرتجيه ، ويقول لخصومه : لا يغرنكم أن مسلكي طويل وشاق فإنه رغم طول الليل المظلم فإن مطلع الفجر سيبدد ماحاول الليل بكل قواه أن يصبغ به الحياة من سواد فأن رغم صلتي بالليل إلا إنني أعيش في السنا والضياء ـ إنني لا أداجي ولا أمالى لطلب جاه أو ربح مادى فكفانى أننى أعيش رمز للفداء ورْمزاً للضياء ـ وقد ظل شاعرنا طاهر الزمخشري على مثاليته للفداء والتضحية بالرغم مما يحيط به من المصاعب ولا يزال مصرّا على العمل وعدم الانسحاب من الحياة لأنه صاحب رسالة وهذا ماتؤكده الرباعيتان الآتيتان لشاعرنا الأولى بعنوان « عزم » يقول فيها :[2]

سأطوى صفحة الماضي كأني ... وليد جئت للدنيا لحيني
وأنسى كل أعدائى وصحبي ... وكل مناوىء لى أو خدين
وابتدائى الكفاح بصدق عزمي ... وأزأر كلما انتفضت شجوني
فتضحك بعض آمالي لأني ... أصاول للنجاح على يقين

فهناك ماض يحاول الشاعر بكل قواه أن يطويه على حدّ تعبيره وأن يتصور نفسه وليدا جاء لحينه لينزل إلى معترك الحياة وينسى تلك المخازي التي لطخ أعداؤه بها سود وجوههم ليبدأ الكفاح .. ولكن رغم هذا التصور وأنه سيتخيل نفسه وليدا جديدا في الحياة إلا أن صور الماضي الأسْود المظلم لم تبارح مخيلته ولذا لاحت له صورة الماضي من بعيد فقال : « وأزأر كلما انتغضت شجونى »

(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٥٠ .

(٢) المصْدر نفسه للشاعر ص ١٢١ .

فمازالت شجون الماضي تعاوده بآلامها ومازال يئن ويزأر من جروحها إلا إذا كان يريد بالزائِدِ إخافة أشباح الماضي وطردها أو أنه يريد أن يصور لنا موقفا يعيشه هو كشاعر ويحاول فيه أن يغلب فريق الآمال على فريق الشجون فكلما اقتربت الشجون لتطرد الآمال زأر هو فخافت الشجون وضحكت الآمال البيض : ضحكت لأنه يريد أن ينتصر لها على شجونه وضحكت لأنه يحاول أن ينجح في حياته ، وهم على قدم راسخة ويقين ثابت .. إنه متفائل إلى حدّ كبير وتفاؤله أكثر من تشاؤمه . وأما رباعيته الثانية وعنوانها : « ثبات فيقول فيها :

إذا ماضاق بي الوطن	وعز برحبه السكن
وضيع كل آمالي	فدكَّ عزيمتي الوهن
وناشتني الهموم به	فمزق مهجتى الشجن
سأصمد دون ماسأم	ولو طافت بي الإحن[1]

وهذه الرباعية يصل فيها إلى قمة التحدي فهو يتحدى ضيق الوطن به كما يتحدى الوهن والهموم والأشجان لأنه يجب أن يصمد دون ماسأم أو كلل ، فمهما دارت فوق رأسه الاحن والمحن إنه حبُّ العودة من الهروب رغم حبه لليل والصحراء مأوى الهروب التي وجد فيها مالم يجده في حياة الواقع .

وقد استطعنا بهذا التحليل لقصائد شاعرنا « طاهر الزمخشري » وأن نتابعه في هذه الرحلة في مجتمعه وبيئته حتى نضع أيدينا على الحقائق التي توصلنا إلى النتائج المرجوة ـــ وهذا الطواف الذي قمنا به كان من أهم داع من دواعى الهروب الذي سنلقي عليه الضوء في الفصول التالية ، وقد تمثلت هذه الرحلة خصائص الذاتية الرومانتيكية كما حدَّدها الأستاذ الدكتور محمد غنيمي هلال ، فهو غير راض بالحياة قلق من أجْل المستقبل رغم صلابته ، يغلب عليه الحزن العميق والشجن الأليم . وإننا نؤيد رأي الدكتور ماهر فهمي حيث يقول : « ذلك الأدب بما يصوره من أجواء حالمة تضفي على الحزن لونا من العذوبة ـــ هو الذي حبب الألم إلى الشباب ..»[2] .

---

(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٨٦ .

(٢) تطور الشعر العربي الحديث في مصر (د. ماهر حسن فهمي) ص ١٨٢ .

نريد بعد ذلك أن ننتقل إلى داع آخر من دواعي الهروب هذا الداعي هو ماتصوره لنا تلك الأبيات من قصيدة « ظلامة » :

أنكرت صبوتي وقالت كذوب ... زعم الحب وهو يبدو دعيًّا

وحدود الحياة تَدْرى بأني ... كنت أشقى بها وأشدو رضيا

فالليالي قطعتها صارخ الآ ... ه لشجو يكوى الأضالع كيّا

والحنايا أرسلتها في الدياجير ... دموعا تنساب من مقلتيا

وأنا صابر أعلل بالآمال ... نفسا بظلها تتفيا[1]

أما هذه الظلامة فهي محبوبته .. إنه حب عاشه شاعرنا ولكنه حب كان وهْماً أكثر منه حقيقة ، ولا لشيء إلا لأنه من وراء الغلائل والستائر فانكرت حُبّه وقالت إنه ليس حبّا حقيقيا .. وشاعرنا حياته محدّده بشقائه ورضاه ، وحدود حياته كما يراها هي الليل والحنايا ، وهو سائر يقطع بيداء ليله يبثها شجوه ويصرخ من ضلوعه المكوية وأما حناياه فهو يرسلها دموعا من مقلتيه . كل هذا لأن محبوبته كذبت حبه وادعت أنه حب ليس أصلا عميقا ، ومازال صابرا يعلل النفس بالآمال يتفيأ ظلالها لعلها تحنو عليه . فهي أولى لمسة من لمسات النكران ، نكران الحبيب لحب المحب الولهان وهو أساس جوْهري في ظاهره الهروب لدى شاعرنا .

وهناك حقيقة أخرى وهي تعتبر من دواعي الهروب كان شاعرنا ضحية حب حقيقي كان يجتمع فيه مع حبيبته على طهر ونقاء وصفاء وفقد في يوم من الأيام هذا الحبيب بسبب الموت وهذا ماحكاه الشاعر أثناء مجالستي معه فانصدع قلبه واستبكى كما يقولون وفيها يقول :

علمتني البكاء حتى تفتت وأصبحت شاعرا بكاء

وارتني الحياة ذات جمالين شقاء طوْرا وطوْرا هناء

ثم لما سعى المنون إليها جئت أرجو حسى ألون الفداء

هي كانت لي النعيم المرجىّ فأضاع المنون مني الرجاء[2]

---

(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشرى) ص ١٠٠ .

(٢) ديوان أنفاس الربيع (طاهر الزمخشرى) ص ١٢٢ .

الهروب إلى الطبيعة :

نود أن نثبت في هذا البحث هروب شاعرنا إلى الطبيعة كمظهر من مظاهر الهروب ــ ويمكن استخلاص ذلك من قصيدته التي تعبر عن هروبه من مجتمعه وحبه المنكور قصيدة « إليك عنى » التي يقول فيها :

سألت الليل وهو يمد سترا　　من الحلك الموشى بالنجوم
وفي جنحته أفراح الندامى　　تناغم بالهوى عبث النسيم
فتنشر المباهج في دجاه　　تضمدّ من جراحات الكليم
ترى ألقى لديك شقاء روحي　　فاطبق ثم قال : إليك عنّى[1]

يتجه شاعرنا أول مايتجه إلى الليل وهو الذي يضم الكون من سماء وأرض وكواكب وأقمار ومخلوقات ويهيمن عليها لفترة طويلة ، وهو يتخيل أنه ليس وحده المتجه إلى الليل ولذا يرى من خلال نظره الثاقب أن هناك ندامى غيره .. ولكنهم فرحون ليسوا مثله ، وأفراحهم تعابث النسيم فتنشر المباهج وتجدد تلك الظلم فيضمّد جراح كل ذي جرح ، فيتساءل هو أيضا هل سيجد شفاءه ؟ ولكن الليل تجهم في وجهه وقال : (إليك عني) .

الليل ينفر منه أيضا .. غريب منه هذا التصرف ، فيتجه إلى ماذا ؟ إلى النجم فيقول :

فقلت لعل هذا النجم أدرى　　بما حمل الفؤاد فعيل صبْراً
أطلَّ على العوالم من علاء　　وأرسل نوره الفضي سحرا
تصافحه القلوب مصفقات　　وتكرع من رفوف النور خمرا
مددت الطرف أسأله نصيب　　فوصوص! ثم قال: إليك عني

إنها نفس النتيجة يجدها لدى النجم رغم أنه يصافح بنوره قلْب كل حبيب فتكرع القلوب نورا دافئا كأنه الخمر ، فطلب منه نصيبه من خمر النور فكان الجواب : « إليك عني » حتى النجم يستثقله ويبعده عنه . لا ندْري لماذا . ؟ ربما لغضبه عليه لفراقه مصْدر الخمر النورى ، ولكنه لا يفقد الأمل فيتجه « إلى

---

(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري ص ٦٠ .

البذْر » ويقول له :

فقلت البذْر أعظم منه قدْرا	لماذا لا أبوح له بحالي ؟ !
فكم يصغي لزفرة كل شاج	يناغيه بأستار الليالي
إذا بالزفرة الحرّى نشيد	جرت أنغم الجذْ لى حيالي
فلما أن هممت أبث شجوى	تحجَّب إثم ثم قال : إليك عني !

لقد بلغ الشاعر حدا كبيرا من الغيظ فبدأ يفاضل بين النجم والبذْر ووصل إلى أن البذْر أعظم منه قدْرا وهي نتيجة بديهية ، إلا أنه في نظر الشاعر بادىء ذي بدء خير من يجد عنده طلبته .

وهكذا اتجه إلى البذْر فماذا سيجد عنده ؟ لقد باح له بزفرته الحري وشجوه المرير كغيره من الهائمين في حياة الصحراء ، ولكن البذْر كان أقسى مما سبق جميعاً فما أن همّ ولـمّ يبدأ ببث شجوه حتى تحجب البذْر وتناقض ضوؤه في حياة شاعرنا ، ورد نفس الردّ السابق : « إليك عنى » ولكن شاعرنا تعود له البشرى ويعود له تفاؤله وأمله عندما يلوح « الفجر « يقول الشاعر :[1]

فلما لاح الفجر هتفت بشرى	تنضدّ بالسَّنا قمم الهضاب
أرى زحف المواكب من سناه	يندي بالشذا خضر الروابي
فتنتقص الطيور مغردات	بكل خميلة لمنى عذاب
فلما أن تدانى من مكاني	تجهم ثم قال : إليك عنى

فهذه الرباعية من القصيدة أهميتها تعود إلى الصورة الفنِّية التي رسمها شاعرنا وهي صورة رائعة على كل فإن الذي يهمنا أن كل شيء في الوجود استبشر بالفجر . قمم الجبال ، والروابي الخضر ، الطيور والخمائل ــ ولكن الفجر ما أن قرب منه وهو الذي شمل بنوره مادق وجل « من الكون المظلم حتى تجهمَّ ثم قال : « إليك عني » وهذا هو حظ شاعرنا مع الروض والبحر والقفر ، فكل أولئك يرسم لهم صورة فنية رائعة في اتجاهه إليهن ولكنه لا يجد عندهن

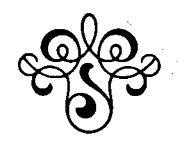
(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٦٢ .

مأربه ومبتغاه فتكون الأجوبة كلها : « إليك عني » ولكننا نجد شاعرنا في نهاية المطاف يقول :

وفي طرف البيـــوت لمحت قبرا	ومـــن ثغراتـــه ينسل دود[1]
وفي أغـــواره الموتى نيـــام	يحاضبـــن من سراتهم العبيـــد
فوارب بأبـــه لأرى مكـــاني	متـــى ضاقت مبطـــؤا في الحدود
فقلت : يئست قال : لديك روح	ومأأزهـــقتها ! فإلـــيك عنـــي

لقد انتهى به تطوافه إلى القبور ليأخذ مكانه بين الأموات فهل قبله القبر ؟ لا ! لأنه مازال فيه رمق يستطيع أن يكافح به ولا يأس مع الحياة .. أى أن شاعرنا لا يزال متفائلا ــ وربما كان منظر القبر والموتى هو الذي حوّل ذهنه إلى هذا المخرج وربما كان تفاؤله هو السبب ولكن الذي لا جدال فيه أن القبر كان جوابه هو نفس جواب ماسبقه من مظاهر الكوْن الطبيعية .

والقصيدة يظهر فيها شاعرنا على مسرح الحياة في الطبيعة وكأنه أحد من دعاماتها إلا أنه لم ينسجم معها الانسجام التام ، فإن نزعة التفاؤل وحب الحياة العادية باعدت إلى حدّ مابينه وبين الطبيعة بأجرامها ومظاهرها فهروبه في هذه القصيدة يقاس بمدى قربه وبعده من الطبيعة ومدى تصويره لمظاهر الطبيعة مما يبدو معه انفعاله الشديد وضجره بالحياة بنوعيها : الإجتماعية والعاطفية الواقعية .



(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٦٢ .

ومن ناحية نريد أن نستعرض جانبا من قصائده التي تمثل هروبه إلى الطبيعة وتبين مدى انفعاله يقول في قصيدة (في الأصيل) :

هيفاء تخطر الأنسام تستبق ... وينشر العطر من أزهارها الألق[1]

أرق من نسمة الأسحار قامتها ... وليس ترحم من قد شفه الومق

تغار شمس الضحى من شمس طلعتها ... ومن بشاشتها الاشعاع ينبثق

يلفها الحسن في أبهى غلائله ... ومن مفاتنها الألحاظ والحدق

يهفو إليها الذي أدمت حشاشته ... وينثني وهو بالحرمان يحترق

أفدى هواها بأغلى ماأضن به ... وإن أغلى الذي عندى هو الرمق

أخاف منها على حبي فاكتم ... لكن أنيني بما يخفيه ينطلق

وفي المساء الذي أرخى ذوائبه ... راشق سهام الهوى فاصطادني القلق

رأيتها وذكاء في مغاربها ... فقلت « صبح » وإن المطلع الغسق

في هذه القصيدة يكتمل التفاهم بين الطبيعة والشاعر وأصبح بينه وبينها نوع من التعاطف فالطبيعة بما فيها من النسيم العطر والأزهار — واشعاع الشمس حتى أن خيال الشاعر انبثق من مكان في جمال حتى أن شمس الضحى تغار من شمس طلعتها ولاشك أن هذا خيال رائع .

تغار شمس الضحى من طلعتها ... ومن بشاشتها الاشعاع ينبثق

إن من المؤثرات الهامة في شعر طاهر الزمخشرى[2] هو مانادى به ميخائيل نعيمة في كتابه « الغربال » وفيه دعوة للتجديد ، ولنقد الشعر وتوجيهه مقاييس يستمدها من حاجتنا النفسية ، الثابته بحيث يقوم الشعر باشباعه حاجة أو أكثر من حاجة التي أجملها في الآتي :

١ — حاجتنا إلى الافصاح عن كل ماينتابنا من العوامل النفسية ، من رجاء ويأس ، وفوز وفشل ، وإيمان وشك وحب وكره ، ولذة وألم وفرح وحزن ،

(١) ديوان عبير الزكريات (طاهر الزمخشري) ص ١٠٢ .

(٢) الغربال — ميخائيل نعيمة .

وطمأنينة وخوف وكل مايتراوح بين أقصى هذه العوامل وأدناها من الانفعالات والتأثرات .

٢ ـ حاجتنا إلى نور نهتدى به في الحياة ، وليس من نور نهتدي به غير الحقيقة ، حقيقة مافي أنفسنا ، وحقيقة مافي العالم من حوْلنا ، ونحن وإن اختلف فهمنا عن الحقيقة لسنا ننكر أن في الحياة ماكان حقيقة في عهد آدم ، ولايزال حقيقة حتى اليوم وسيبقى حقيقة إلى آخر الدهر .

٣ ـ حاجتنا إلى الجميل في كل شيء ، ففي الروح عطش لا ينطفي إلى الجمال ، وكل مافيه مظهر من مظاهر الجمال ، فإننا وإن تضاربت أذواقنا فيما نحسبه جميلا ، ونحسبه قبيحا ، لا يمكننا التعامي عن أن في الحياة جمالا مطلقا لا يختلف في ذوقان

٤ ـ حاجتنا إلى الموسيقى ، ففي الروح ميل عجيب إلى الأصوات والألحان لا ندرك كنهه فهي لقصف الرعد ، ولخرير الماء ، ولحفيف الأوراق ، ولكنها تنكمش من الأصوات المتنافرة ، وتنبسط بما تآلف منها ..

ويعد كتاب « الغربال » بحق من أمهات كتب النقد والدعوة إلى التجديد ، ويشمل حركة التجديد في الشعر في أوائل القرن العشرين .

ولقد كان ديوانه « عودة الغريب » الذي عبر فيه عن أحاسيسه ومشاعره ففي قصيدته « إلى نفس » يصور الزكريات الأليمة التي مرت به في حياته وهذا الاتجاه يعتبر اتجاها « رومانسيا » يقول الشاعر[1] :

أفر من الحيــاة إلى ذراهــا	وأرقص في الحريق على رؤاهــا
وأنثر من أسارى نجيــع دمــع	ترقــرق ساخنــا لما رآهــا
وراح يذيــع ماتطــوى الحنايـا	زوافــراً هي الحرّى صداهــا

(١) ديوان عودة الغريب للشاعر (طاهر الزمخشري) ص ١٠٢ .

لقد كان الحجاز منذ أوائل نهضته الحديثة قد فتح أبوابه لكل أبواب الثقافات المختلفة ــ وأن الشاعر « طاهر الزمخشري » يعتبر من رُوَّاد تلك النهضة الذين انصرفوا إلى تلك الروافد الثقافية ينهلون منها ــ ولقد تناول الأدب المهجري مختلف ألوان النشاط الأدبي من قصة ومقالة ونقد ونثر وشعر ومسرحية ومن فلسفة وحكمة وتجارب ومن تأملات وحنين وأنين ، وأمل وألم ، وغناء وبكاء .

ونجد شاعرنا متأثرا بالأدب المهجري وفي شعره نزعة رومانسية حينما نقرأ قصيدته « منى نفسي » يقول فيها :(١)

منى نفسي بأن أحيا وحيدا
أطوف في مدى أجراس غابة
وأنعم في مراتعها بفيء
ظليل لا تجلله كآبة
وفي أجوائها راحت تهادى
على أغصانها الجذلى سحابه
وتهمي بالرذاذ أعب منه
فتنتعش مهجي الظمآى بالصبابة

وهناك اتجاه آخر وهو لون من ألوان الفن نجده عند الشاعر « طاهر الزمخشري » وهو « الأمل » الذي ينير له طريق الحياة لاشك أن الشاعر متأثر بهذا المنحى بشعر المهْجر يقول شاعرنا :(٢)

أماني في كف الزمان وعود	بأخلافها الصبر الجميل جديد
فإن ساءني دهري بما لست أشتهي	فقد سرّه أن الغرام شديد
به أقتل اليأس الذي جدّ هوْله	وأقتحم الآفاق وهي سدود
وأقطع أيام الحياة مصفقا	بآمال نفس لا تزال تجود

(١) ديوان عودة الغريب للشاعر طاهر الزمخشري ص ١٢٩ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٥ .

وإن الناظر في الأدب المهجري يجد فيه نظرة التفاؤل والأمل ولاشك أن ذلك من عوامل نجاح الانسان في الحياة وقد تأثر شاعرنا بهذا الاتجاه فنجد في دواوينه الشعرية مايعبر عن هذا المعنى وخاصّة ديوانه « أنْفاس الربيع » الذي يقول في إحدى قصائده :[1]

سأعيش رغم الداء والأعداء ... وأصول في الدنيا بعزم آبائى
سأعيش لا أرضى المزلة هازما ... عنت الخطوب بهمة قعساء
سأعيش كالأسد المزمجر كاشرا ... عن ناب مفترس لكل شقاء
سأعيش أدعو للمحامد تاركا ... في كل معترك صدى أبنائى
سأعيش كاللحن الطروب مغردا ... ولو أن ألحاني نثار دمائى
وأظل أطوى العمر سباق الخطى ... حتى أحقق في الحياة رجائى
وأبيت أدفع للخضّم سفينتى ... صبرى شراعى والثبات حدائى
وأضم في طيِّ الجوانح خفقة ... جذابة الترنيم والأصْداء
سأعيش لاتثني الخطوب عزيمتي ... عما أروم نواله بمضائي
وتدوس أشلاء الطَّغام أناملي ... إن حاولوا صدّي عن الجوزاء
فأعيش موفور الكرامة واضعا ... نفسي الأبية في الذرى الشماء

وعلى هذا النحو نجد شاعرنا قد تأثر بشاعر المهجر « إيليا أبو ماضي » ويظهر واضحا من شعر هذا الشاعر أن حياته كانت وادعة سهلة ، فلم تعصف به ولا بقلبه عاصفة التشاؤم ، وكأنما كانت إرادة الحياة عنده أقوى من أن تقف فيها هذه العاصفة فتعصفها عن نفسه ، وإن بقيت آثارها عالقة بخياله ومشاعره ، فهو مهما فكر في آلام الانسانية ، وفي المجهول وألغازه لا يقضى إلى اليأس الخالص بل تلمع أقواس التفاؤل دائما في سماء وجدانه ــ ولعل خير قصيدة تمثل هذه النزعة عنده هي قصيدة « فلسفة الحياة » .

---

(١) أنفاس الربيع (طاهر الزمخشري) ص ٤٧ .

أيهذا المشتكي ومـــابك داء	كيف تغدو إذا غدوت عليلا
إن شرّ الجناة في الأرض نفس	تتوقى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك في الورود وتعمى	أن ترى فوقها الندى إكليلا
والذي نفسه بغير جمال لا ير	ى في الوجود شيئا جميلا
فتمتع بالصبح مادمت فيه	لا تخف أن يزول حتى يزولا
واطلب اللهو مثلما تطلب الأطـ	ـيار عند الهجر ظلا ظليلا
أنت للأرض أولا وأخيرا	كنت ملكا أو كنت عبدا ذليلا
كل نجم إلى الأقوال ولكن	آفة النجم أن يخاف الأقوالا
ما أتينا إلى الحياة لنشقى	فأريحوا أهل العقول العقولا
كن هزارا في عشه يتغنى	ومع الكبل لا يبالي الكبولا
هو عبء على الحياة ثقيل	من يظن الحياة عبئا ثقيلا
أيهذا الشاكي ومـــابك داء	كن جميلا ترى الوجود جميلا

والفكرة المسيطرة على القصيدة هو أن نأخذ المتعة من الحياة دون تفكير فيها ولا في آلامها . فالحياة جميلة ، وجمالها يرد إلى النفس ، ولا عبرة بما يبدو من منغصاتها وإن الإنسان هو الذي ينغص عيشه بيده ، فالعبرة بنفوسنا لا بقيم الأشياء في ذاتها ــ وبالرغم من الكوارث التي أصابت شاعرنا (طاهر الزمخشري) في حياته وهي موت زوجته التي تركت له أربعة من الأولاد وأيضا حبيبته التي كان يحبها ويبادلها أطراف الحديث ماتت أيضا في سنة واحدة بالاضافة إلى أنه كان يعيش في بيئة فقيرة ــ كل هذه العوامل لم تثن من عزمه في أن يواصل الجهاد والكفاح وقد أتم دراسته في مدرسة الفلاح وأصبح رجلا متعلّما ونال مناصب كثيرة في الدولة وأن نفسه المشرقة بالأمل والحياة الحرة الكريمة كانت من أهم عوامل نجاحه في الحياة وأنه لم يكن متشائما بل كان متفائلا .

---

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر د. شوقي ضيف ص ١٨٤ .

ومن الانصاف أن نقول إن من ينظر إلى الحياة نظرة أبي العتاهية فلا يرى فيها إلا الخراب والشباب والمصير المحتم إلى التراب ولكن النزعة الجديدة غير ذلك ، فإن للحياة برغم نوائبها وغيرها جانبا وضاء يستهوى الأدب الحديث — ولقد قام الأستاذ الشاعر « مصطفى صادق الرافعي في رسم طريق الحياة وقد كان موفقا في تصويره وإنني أرى أن هذه لفته جميلة أراد أن يجذبنا إليها وقد كان شاعرنا طاهر الزمخشري متأثرا به في كتابه « أواق الورد » الذي يصفه الأستاذ محمد سعيد العريان فيقول : « إن أوراق الورد منجم من المعاني الذهبية ، ولو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنز في العربية في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة في الشعر والبيان[1] » .

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في التوطئة لها تتدفق حياة الإنسان بين شاطئين يمتدان من غياهب الماضي إلى غيب المستقبل . أحدهما شاطىء الإنسانية والآخر شاطيء من رحمة الله . وبينهما تجرى الحياة إلى غايتها متدافعة متجددة لا تثبت منها قطرة على قطرة ، متى قرر الإنسان ذلك في قلبه عرف أن مايلمّ به من أكدار الحياة إنما هو سبب من أسباب الحياة وإن هذه الأكدار يحملها عنه النهر فيما يحمل »[2] .



---

(١) كتاب أوراق الورد لمصطفى صادق الرافعي ص ١١ .

(٢) الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث (أنيس المقدسي) ص ٣١٤ .

ميزة الشعر المهجري في تحرره التحرر الذي يشمل الموضوع والصياغة والروح ، فأما الموضوع : فجد منوع لأن الشعر العربي في العالم الجديد ، كان ولا يزال مشكاة وضاءة هادية لنقاد العرب ، وشعرائهم المغتربين فالأولين لهم مقاييس جديدة في النقد والهم الآخرين الابتعاد عن التطبيق والحصر ، مادامت موضوعات الحياة وهي لب الأدب ومنه الشعر لا حصر لها ، ولو أن مبلغ تجاوب النقاد والشعراء مع الأدب الغربي في المهجر متفاوت ، كما هو الحال في الأقطار المختلفة . وأما الصياغة فهي كذلك منوعة .. وربما كان حظها من التنوع أكثر من حظ الموضوع وأما الروح فهي غالبا تقدمية والحرية في هذا الفن شاملة ، ولكل إنسان أن يعبر عن خوالجه كما يشاء ، وعلى هذا النحو أبدع المهجريون في تصوير خوالجهم دون أى تحفظ وكانوا ألسنة للحرية وللكرامة الإنسانية — وعلى هذا المنوال نجد شاعرنا « طاهر الزمخشري » في ديوانه « أنفاس الربيع » يعبر فيه عن خلجات نفسه ويتضح ذلك من قصائده يقول شاعرنا في قصيدة « أسكتي يانفسي »[1] :

الشباب الغض فواح الشذا	فيك يانفس فلا تضطربي
والأماني الغر يجلوها الصبا	في حناياً ثابت الجأش الأبى
فاسكتى يانفس إن جدّ الأسى	واستريحي للغد المرتقب
أنت تدرين بجنبي الشجا	أنت تطفين بها كالحبب
واللظى الموار يدوى أضلعى	أنا أسعى لكشف الحجب
عن أمان كلما همت بها	وثبت أشباحها تهزأ بى
فأنا منها ومن اغرائها	جاهد مستغرق في النصب
ولها أصبو ولكن دونها	بهر النفس فلا تضطربي
فاسكتي أضمد جراحاتي التي	فتحت في قلبي الملتهب
وأهدائي فالصمت حَوْلى مرعب	لا تذوبي حسرة في اللهب

(١) ديوان أنفاس الربيع (طاهر الزمخشري) ص ٣٥ .

واسمعي نجواى من جوْف الدجى ... بأنيني الخافت المنسكب
وتعالى نتبارى شجنا ... أو تعالى نستمع للشهب
فهي تروى قصة عن غرد ... بات يشدو بمنى لم تجب

هناك من الموضوعات المعنوية التي تناولها الأدب الحديث والتي تدور حوْل الإنسان ومجتمعه كالوطنية والمساواة والإخاء والحرية والشجاعة والتساهل والاستبداد والمحبة والسعادة وموضوع السعادة لهج به الأدب الحديث نثرا وشعرا . فمن النثر عدد كبير من المقالات والمباحث والخطب التي يضيق المقام بذكرها وهي منتشرة في المجلات والمصنفات الأدبية .

أما الشعر فمما يذكر منه على سبيل التمثيل قصيدة « العنقاء » لإليا أبو ماضي الشاعر المهجري ــ وقد تأثر شاعرنا (طاهر الزمخشري) به تأثرا كبيرا وهذا التأثر يكون واضحا في اتجاه وفلسفة شعره ــ وقد اتخذ الشاعر (العنقاء) رمزا للسعادة التي هي ضالة الإنسان المنشودة . وخلاصة هذه القصيدة أن الإنسان لجهله يقضي عمره في التفتيش عنها خارج نفسه فلا يهتدي إليها ولا يعرف ضلاله إلا عندما يفوت الأوان ، يقول في مطلعها :[1]

أنا لست بالحسناء وأول مولع ... هي مطمع الدنيا كما هي مطمعي
فاقصص على إذا عرفت حديثها ... واسكن إذا حدثتك عنها واخشع
ألمحتها في صورة ؟ أشهدتها ... في حالة أرأيتها في موضع ؟
إنى لذو نفس تهيم وإنها ... لجميلة فوق الجمال والإبداع

وهذا الهيام بها يدفعه إلى التفتيش عنها في كل مكان ــ في الطبيعة وفي العمران ــ بين القصور وبين الأكواخ فلا يقف لها على أثر ــ ويلقى بعضهم في أذنه أن هذه الضالة لا تتجلى إلا للزهاد والمتورعين :

قالوا تورع إنها محجوبة ... إلا عن المزهد المتورع

---

(١) ديوان الجداول لايليا أبو ماضي .

فيطيعهم ويطلّق أفراحه وملذاته ملازما في النهار خطة التقشف هاجعا في الليل على فراش الحرمان . ولكن مانتيجة ذلك ؟ لا شيء وقد ظننت ــ يقول ، إنني أجدها في عالم الأحلام فهجعت على هذا الأمل .

ثم انتبهت فلم أجد في مخدعي   إلا ضلالى والفراش مخدعى[1]

وهكذا يمر ربيع الحياة وصيفها ، ويقبل الشتاء وهو دائب في التفتيش دون طائل حتى يكاد يستولى عليه اليأس والأسى ، وأخيرا يدرك وقد فات الأوان ، إن السعادة الحقيقية ليست شيئا نلتمسه خارج نفوسنا وها هو يرسم لنا هذا الإختبار في ختام قصيدته بما يلي :[2]

حتى إذا نشر القنوط ضبابه	فوقي فغيبني وغيب موضعي
وتقطعت أجراس آمالي بها	وهي التي من قبل لم تتقطع
عصر الأسى روحي فسالت أدمعا	فلمحتهاولمستها في أدمعى
وعلمت حين العلم لايجدي الفتى	إن التي ضيعتها كانت معى

وإذا صح أن السعادة ليست اختبارا داخليا في النفس ، فما هي وكيف نحصل على هذا الاختبار ؟ هنا مجال لتنوع الخوالج والأفكار فمن الأدباء من يراه في تزكية النفس بالعلم وتكميلها بالفضائل ، ومنهم من لا يرى ذلك إلا في الصبر على المكاره .

---

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث (أنيس المقدس ص ٣٢٩ .

(٢) الاتجاهات الأدبية في العالم العربى الحديث (أنيس المقدس) ص ٢٣٩ .

لقد أعجب شاعرنا (طاهر الزمخشري) إعجابا بالغا بالشاعر (جورج صيدح) وهو من شعراء المهجر ونودّ أن نعطي فكرة واضحة عن مذْهب هذا الشاعر وقد سئل عن مذْهبه الشعري فقال :[1]

« مذهبي هو أن لا يكون لي مذهب معين ولا أسلوب مفروض . على أنني مولع بالشعر الواقعي الذي ينبع من صميم الحياة اليومية ويعرض تجاربها في صدق ويسر ، موشى بتهاويل الفن ،فلا هو من الألغاز المعماة ، ولا هو من الكلام العادي المقفي الموزون إن الواقعية الشعرية ترسم الحقيقية الموضوعية صورا موشاه بأحاسيس الشاعر العاطفية وبألوان الواقع الخارجية . فيرتفع الواقع إلى مقام الفن دون أن يخرج من إطار الحقيقة ..

يقول صيدح[1]

أتحسب البعد عن دنياك أسلانا ... ياأعرف الناس ، لم تعرف طوايانا

نحن الألى حملوا أحبابهم فكرا ... يكاد يغشى علينا حين تغشانا

في كل كأس خطبناها نخاطبهم ... ولا نبدلهم بالغيد ندمانا

يقطر الليل نجوى من سرائرنا ... ويشرب الفجر معنى تحايانا

إن طالعتنا وجوه الحسن في بلد ... توسم القلْب فيها وجه البنانا

وكم شخصنا إلى الآفاق نسيرها ... لعل فيها عيون الصحب تلقانا

وكم عطفنا على الأطيار في لهف ... نملي عليها حديث الشوق ألحانا

حتى أتانا نداء من أخي ذمم ... يفضي بشكواه ، لايعني بشكوانا

يلومنا كيف تمضي لا نودّعه ... وقد نودّع أجلافا وعيدانا

تراه يضمن أن نقوى على سفر ... بعد العناق ، ولا تصلك رجلانا

ياشاعر اليوْم دعنا في هزيمتنا ... نلقى على عثرات الحظ نسيانا

في مأمن من زنابير متى شبعت ... من كفنا طبطنت تبتغي محيانا

في نجوة عن مزارات وأنديـة ... كأنها بابل ، برجا وسكانا

إلى أن يقول :

حال تزهدنا من أن نعود إلى ... عهد القوافي ، تغنه الله أغنانا

---

(١) قصة الأدب المهجري د. محمد عبد المنعم خفاجي ص ٢٣٦ .

تأثر الشاعر طاهر الزمخشري بابن الرومي :

لقد كان ابن الرومي شاعرا داخليا ، إذا جاز التعبير يغرق في تأمل نفسه ويتنصت إلى هواجسها ، منعما بالتعبير عما يطرأ عليها من هموم ، ومايتداولها من أحزان وأفراح ، وإذا ماحدّق في العالم الخارجي عراه بالوجود والانفعال أو تلهى وتروض بمحاكاته وتقليده ، واقفا منه موقفا شعريا ، عاجزا عن التكيف وفقا لضرورته ومقتضياته ولقد اشتهر ابن الرومي بالوصف الوجداني والشعر بذلك تعبير عن الوجود من خلال النفس ، أو بالأحرى تفسير للوجود الظاهر بوجود غيبي ، يتراءى للشاعر في الرؤيا والذهول أو يقتنع بايمان قلبي فيهم . ولئن كان هذا النوع من الشعر أو بالأحرى من الوصف يندر في الشعر العربي ، فإننا نرى لمعا وفلذات جميلة منه في شعر ابن الرومي تبلغ حدّ الروعة كما نشاهد في هذه الأبيات التي وصف بها أيكة الصباح :

حيتك عنا شمال ، طاف طائفها — بجنة ، نفحت روْحا وريحانا
هبت سحيرا ، فناجى الغصن صاحبه — موسْوسا وتنادى الطير اعلانا
ورْق تغنى على خضر مهدّلة — تسمو بها ، وتمسّ الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب — والغصن من هزه عطفيه نشوانا

نلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر يعمد إلى الطبيعة واصفا نشوة الطير ، صباحا حتى كأن أغصان الشجر والطبيعة في عرْس من النشوة والفرح — وأول مايبدو الوصف النفسي لديه في البيت الثاني اذ يقول[1] :

هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه — موسوسا ، وتنادى الطير اعلانا

لقد شهدت عينا الشاعر ترنح الغصون ، واهتزازها واقتراب أحدها من الآخر هذا ماكان يسميه الجاهلي تمايلا ، لكن ابن الرومي نفذ من هذه الظاهرة وترجمها ترجمة ، أو أوّلها تأويلا ، فإذا الغصن الذي كان يترنح ويقترب من جاره إذا هو يناجيه ويحدّثه بأمر نفسه وشكاته فالغصن النباتي اللامبالي أصبح انسانا يفيض بما في نفسه من حنين وبوح ، فكأنه أصبح ابن الرومي ذاته ، أو أن الشاعر عبرّ عن ذاته من خِلال الغصن .

(١) ابن الرومي (إيليا الحاوي) ص ٣١ .

فابن الرومي شاعر الطبيعة ، كما هو شاعر الوصف فالرياض والطيور ومجالس اللهو والبستانية هذه جميعا نشاهدها في شعره ، فهو قد انفرد في تغريده للطبيعة بأنغام قلما عرفها الشعر العربي ــ وهكذا نجد شاعرنا « طاهر الزمخشري » تأثر به تأثرا واضحا ونجد في ديوانه « عبير الزكريات » قصيدة بعنوان (الربيع العائد » فهو لا يتحدث عن الطبيعة كشيء مستقل منفصل ، له وجود ذاتِي محدود ، بل يغلب أن ينمى إليها أو يضف عليها مايعْتمل في نفسه من انعكاساتْ ، أضاعتْ هويتها الظاهرة وتقنَّعت بمظْهر طبيعي لذلك فإن هذا النوع من الوصف هو في الواقع امتداد لنفس الشاعر ومأساته أو فرحته عبر الطبيعة ، ولعلنا لا نفهم هذا الواقع على حقيقته إلاّ إذا تصدَّينا له من خلال نفسية الشاعر .

ونستطيع أن نقول أن حياته كانت سلسلة من الأحزان والمآسي فقد فجع الموت زوجته وحبيبته التي كان يحبها في سنة واحدة ــ وقد نتج عن ذلك شعور بالحزن الشديد ــ فحاول أن يتعوض عما افتقده بمعاشرة الناس علّه يجد فيهم الأنس والأخوة . لكن هؤلاء أيضا خدعوا به ، وكادوا عليه ، فجعل يرى أن مصيبته بهم لا تقل عن مصيبته بنفسه ــ عندئذ أخذ يتحرى عما يسعفه في وحشته وتخاذله فارتمى في أحضان الطبيعة ، أحضان الحياة السَّالبة يتعوض بالطبيعة المحبة الكريمة عن الإنسان الأناني الماكر ــ وإن الطبيعة التي أحبها ليست طبيعة الناس ، بقدر ماهي طبيعة مضمرة ، تشتعل في ذهنه إنها إنعكاس نفْسه على مظاهر الكوْن ، ولهذا سنراه في شعره في الطبيعة يحفل بكثير من البوح عن حقيقة نفسه يقول شاعرنا في قصيدته : « الربيع العائد »(1)

أهلّ الحسن وضاح الجبين	فأغرقه في السنا لجج الدجون
وغرّد صوت فرحتنا فأسرى	صدى الإنشاد بالنغم الحنون
ليعْرب عن صفاء الودّ فينا	على رغم التجافي والظنون
وفي الأعماق قد جاش التياع	فحرّك في الحشا نار الشجون

(1) ديوان عبير الزكريات (طاهر الزمخشري) ص ٨٠ .

وأبـــرد حرّ لاهبها لقـــاء	له لاحساس غرْد بالحنيـــن
وكأن البعد يلـدغ باشتيـاق	فبـاح القـرب بالسر الـدفين
فضمّـد في الحنـاكل جرْح	وأخرس بالـرضا رجـع الأنين
وعَادَ لنـا ربيـع العمـر نضرا	يصفـق بالـبشاشة والفتـون
يناغـم بالشّذا قلبـي المعنـى	ليخـلص من جواه المستـكين
وأطيـاف المسرّة قد تهادت	وطَافت بالرؤى عبر السكـون
ونـاغت كل جارحـة بلحـن	يعيـد نشيـده همس الجفـون

ويستطـرد شاعرنـا يعبر عمـا يدور في ذات نفسه من الآلام والأحـزان ـــ وأن هذا اللون من الـوصف الوجـداني قلمـا ينـدر في الأدب العـربي والشاعـر (طاهـر الـزمخشري) بمهارتـه قد أظهـر هذا الفـن الجميـل في الأدب السعـودي يقـول شاعرنا :[١]

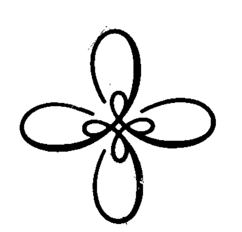
وكـنت أهيم في بحر الـتصابي	وآلامـي بلجتـه سفينى
وفي الأشباح أشْرعتي تهـادتْ	ومجدافي تسكـر في يمينـى
وأعصار الهمـوم يضج حوْلي	وقـد جرفت زوابعـه سنينـي
وإنى قد عبرت جسور صبري	إلى لقيـا أبريهـا يقينـي

ونرى شاعرنا يعبِّر في قصيدة أخرى بعنوان « رياح الأسى » وهو يعبر فيها عمـا يدور في خلجات نفسه ـــ وهكذا نجد شاعرنا « طاهر الـزمخشري » له عالم إنساني آخر وراء ظاهرة الطبيعة الهادئة اللامبالية إنه عالمه الخاص ، حبه وأشواقه وهيامه يقول شاعرنا :[٢]

ياريـاح الأسى عصفت بقلبـي	لم تبق الأشجـان فيه مكانـا
وصفير الالام يدوّي	بعـد أن جف نبضه واستكانـا
كل يوم طويت خلف ذكـرى	تركت لي وراءهـا أحزانـا
كبلّت خفقتي وألقت بخطوى	من دروب عبرتها حيرانـا
وأذابت بالسُّهو جفنـي وأذكت	في حنايـا أضالعـي نيرانـا

(١) ديوان عبير الزكريات (طاهر الزمخشري) ص ٨٢ .
(٢) ديوان عبير الزكريات (طاهر الزمخشري) ص ١٧٨ .

وأنـــا بالـــرضا أجـــدّف بالالام والوهم كان لى سفّانـــــا[1]
أقطـع الشوط في خضم الليـــالي بفـــؤاد سكبتـــه ألحانـــا
يتغنـــى بالحب والرجـــع منـــه خفقـــات تسيـــل منـــه حنانـــا
صدى مايذيـــع من أغنيـــات في الحنايـــا يحرك الأشجانـــا
والأمـــاني تخادع النـــفس في وتريـنـــي مفاتنـــا ألوانـــا
وضبـاب الهمـوم ينشر في الـدرب غبـــارا يقـــرّح الأجفانـــا
وأنـــا في الطريـــق أعبر أيامـــى وأمضى لمصرعـــى جذلانـــا
وبنفـس عزيمـة تأنـــف الـــذل وتـــأبى من الحيـــاة الهوانـــا
واحتمالي ماضاق ذرعـــا بصبرى فصمـــودى قد زادني إيمانـــا
كيـف لا أعشق الحيـــاة وأرضى بأسها وكيف أشكو الزمانـــا



(١) ديوان عبير الذكريات (طاهر الزمخشري) ص ١٧٩ .

ملامح التجديد في المضمون

إذا كان بعض شُعراءْ المُحافَظة والتقليد قد وقف شعـره على ظُروف المناسبـات ودواعيها يستجيب لها وينظم فيها فإن شعـر هذا التيـار المجدد كاد يشذ عن ذلك أو شذّ عنه صراحة ونظر إلى مهمة الشاعـر نظـرة جديـدة وجعـل من بواعثـه الذاتيـة وانفعاله بأحداث الحياة المعاصرة محور للعطـاء والانتـاج ، وظهـرت نماذج تتحـدث عن العاطفة والوجـدان الفـردي والجماعـي أحيانـا بمشاعـر واحساسات صادقـة كما ظهرتْ نَماذج تتغنى بالعاطفة الوطنية ، وأخرى تصف ماتقع عليـه حواس الشاعـر وخواطـره ، وثالثـة تتنـاول بعض نواحـي الحيـاة الاجتماعيـة وتسلـط عليها الضَّوء ، وبعبارة مُوجزة أصبح فن الشِّعر عند هذا التيار المجدد يضرب في آفاق واسعة رحبة تشمـل أكثر مجالات الحيـاة ، ولعـل هذه الدفعـة الجديـدة حدثت بسبب النظـــرة الجديدة إلى مهمة الشعر والشاعر في الحياة والمجتمـع من ناحيـة وبسبب التطلـع إلى مواكبة النهضة وتمثل روح العصر في الانتاج من ناحية أخرى .

فشاعرنا (طاهر الزمخشري هام مع (أحلام الربيع)[1] وردّد (أنشودة السلاح التائه) في محراب الخيال) وكان أحيانا يرسل (زفرة) (زفرة) (أو ثورة نفس) أو (شكوى) ولكنه لا يلبث أن يعود للهيـام في (أحـلام الشاعـر) على أن هذه القصائد ذات النزعـة الرومانسيـة بصفـة عامـة ، والتـي اشتمـل عليها هذا الديـوان الصغير (أحلام الربيع) هي أقرب إلى المحاولات أو البـواكير الأولى للشاعـر وكان يتأثر فيها ببعض شعـراء « مدرسة أبولـو » وهـي تعتبر بحق اسهامـا وطنيـا في تيـار التجديد

جماعة أبولو وأثرُها في شِعْر « طاهر الزمخشري »[2] .

لاشك أن أباشَادي إمام هذا التيار ورائده ــ والشاعـر « إبـراهيم ناجـي » يرى أنّ أبا شَادى بمجهوده الجبار وبثباته المختار خلق مدرسة ورفع علما وأخرج إلى النور شعراء كانوا بغير حق في الظلمات ووسع أفـق الشعـر العـربي وخـرج به عن قيـود

---

(١) ديوان شعر (أحلام الربيع) (لطاهر الزمخشري) طبع عام ١٩٤٦م بالقاهرة .

أثقلته وقعدت به أجيالا طوالاً » .

ويحدد ناجي ملامح جماعة أبولو بقوله « ولا جدال في أن مدرسة أبولو ، في اتصالها بالأدب العالمي ، ومتابعتها للتيارات الفكرية الجديدة ، وفي ايمانها برسالتها كمجددة للشعر العربي ، موسعة لأغراضه محددة لوظيفته كعمل إنساني شامل وكجامعة تضم شباب أدباء الشرق في ندوة واحدة ، وإن مدرسة « أبولو » قد استرعت الأنظار فهي تمثل طلاقة الفن كما تمثل التجاوب الفني بين أعضائها ، وهما الركنان الأصليان لروعة الحياة الفنية التي هي عمود الشعر الحي في أية أمة ، ومآل هذه الحركة أن تنهض بالشعر العربي من غير حدود » .

وفي نفس الوقت نجد الأستاذ أبو شادي يحدد اتجاهات « أبولو » الفنية حيث يقول : « إن أعظم أثر أحدثته مدرسة أبولو[١] الشعرية التي عملنا على تكوينها إنما جاء عن طريق التحرر الفني والطلاقة البيانية ، والاعتزاز بالشخصية الأدبية المستقلة والجرأة على الابتداع مع التمكن من وسائله ، لا عن طريق المجاراة للقديم المطروق والعبودية للرواشم المحفوظة والتقديس للتقاليد المأثورة » .

ويحدد الشاعر ابراهيم ناجي المؤثرات الثقافية للجماعة بقوله[٢] « ومن البديهي أن المدرسة الحديثة التي يرفع علمها أبو شادي في مصر ويتزعمها بحق متأثرة بالثقافة الانجليزية » .

ويحدثنا السَّحرتى[٣] عن نظراته في شعر هؤلاء الشباب بقوله « لقد جدد هؤلاء الشعراء الأسلوب الشعري والموضوعات الشعرية وأدخلوا على الشعر أبوابا كانت مجهولة عن الشعراء السابقين فتناول شعراء الشباب الشعر الوجداني وبخاصة شعر الحب كما تنبه الشعراء في شعر الطبيعة إلى موضوعات دقيقة لم تكن معروفة من قبل ، واتسع الشعر لموضوعات كانت غريبة كل الغرابة على العقل القديم من مثل الشعر القصصى وشعر الخواطر وشعر النور وشعر العلم وشعر التصوف ، ويشير إلى مقطوعات لأبى شادى وناجي محمود حسن اسماعيل يصفون فيها الطبيعة

(١) مجلة أدبي عام ١٩٣٦ ص ٣٥٧ (٢) أطياف الربيع لأبو شادي ص (ل) .

(٣) مجلة الإمام فبراير عام ١٩٣٦

فلا يقتصرون على شرح المظاهر الخارجية للأشياء ــ كما كان يفعل القدماء ــ بل راحوا يحيطون بمظاهر المرائى ويفسرون روح الأشياء » .

ومن ناحية[1] أخرى نجد مظاهر التجديد في الأسلوب وطريقة التفكير حيث يذكر أبو القاسم الشابي « أن المدرسة الجديدة تدعو إلى أن يجدد الشاعر ماشاء في أسلوبه وطريقته في التفكير والعاطفة والخيال وإلى أن يستلهم ماشاء من كل هذا التراث المعنوي العظيم الذي يشمل كل ماادخرته الإنسانية من فن وفلْسفة وراى ودين ، لا فرْق في ذلك بين ماكان منه عربيا أو أجنبيا وبالجملة فإنها تدعو إلى حرية الفن من كل قيد يمنعه الحركة والحياة »

إن جماعة أبولو الشعرية يصورون مافي نفوسهم من حزن وألم وحيرة وضياع ، ويدورون في معظم انتاجهم حوْل تجاربهم الشخصية ، يرسمون أبعادها المختلفة ويمزجونها بمظاهر الطبيعة والمرأة ويستخدمون الرموز للتعبير عن حالتهم النفسية الأليمة ــ وبهذه الخصائص استطاع شعرهم أن ينفرد بطابع خاص (الوجدان الذاتي ، التعبير الرمزي) .

وقد تعددت النزعات الشعرية عند جماعة أبولو وهي :

١ ــ النزعة التأملية . ٢ ــ النزعة العاطفية . ٣ ــ النزعة الوصفية . ٤ ــ النزعة الإجتماعية . ٥ ــ النزعة الإنسانية .

النزعة التأملية عند طاهر الزمخشري :

مما لاشك فيه أن هناك بعض مظاهر التأثر عند شاعرناً (طاهر الزمخشري) من مدرسة (أبولو) وإن هدف البحث عن هذه الظاهرة لا يمكن أن يقصد به اصطياد المآخذ وتهويل أمرها أو الاحتقار والحط من قيمة العمل الفني ، وإنما الهدف هو اجراء المقارنات والموازنات بهدف الكشف عن التميز الذي وصل إليه هذا العمل أو ذلك الفنان .

على أن النزعة التأملية عند جماعة « أبولو » امتزجت بعاطفة جياشة وروح مرهف ظامىء ، ولذلك خرجت أشعارهم في ثوب أقرب إلى العاطفة منه إلى

---

(١) من مقدمة الشابي لديوان الينبوع .

التأمل .

فالشاعر ابراهيم ناجي يجلس يوْما يستعرض الحياة ويخرج من هذا الاستعراض بقصيدة تأملية سماها الحياة يقول فيها :[1]

جلست يومـــا حين حل المساء وقـــد مضى يومـــا بلا مؤنس
أريح أقدامـــا وهت من عيـــاء وأرقت العـــــالم من مجلسى
أرقبـــه ياكـــد هذا الرقـــيب في طيب الكـــون وفي باطلـــه
وما يبـــالي ذا الخضم العجـــيب بناظـــــر يرقب في ساحلـــه
سيـــان ماأجهـــل أو أعلـــم من غامض الليـــل ولغـــز النهار
سيستمر المســـرح الأعظـــم روايـــة طالت وأيـــن الستـــار ؟

ثم يمضى ناجي في استعراض قافلة الحياة من خلال هذا الشارع من الغادة الفاتنة إلى السيارة المارقة إلى غير ذلك من الصور التي يتأملها ثم يهتف في النهاية ويقول :

يارب غفـــراك إنـــا صغـــــار ندب في الأرض دبيب الغـــرور

تلك كانت النزعة التأملية عند شاعرنا (طاهر الزمخشري) ويندرج تحت هذا النوع الشعر الصوفى[2] الذي يعرج فيه الشاعر بخياله إلى الملكوت الأعلى يقول شاعرنا في قصيدة « رباه »

رباه قد كنت لى في كل ضائقة ولا تزال مجيبــــــا حين أبتهل
وألف معصية أعفنى لها خجلا وقـــد تعثر بى من ذهلا الوجـــل
لكن عفوك عنها ليس يدفعنـــي إلا إلى حيث من رحماك أنتهل
وقد بسطت يدى أرجوك نائلة من فيضها لحياتي تبسم الأمـــل
وأنت أدرى بها من كل جارحـــة بها سألت متى أعينـــى الحيـــل
وماتبرمت والمقـــدور يعصف بي لأنني بالذي تقضيـــه أحتفـــل
فأمـــن على بما عودتنـــي فلقـــد ناشت فؤادى وأذوت عوده العلل

---

(١) مجلة أبولو المجلّد الأول ص ٢٣٥ .

(٢) عودة الغريب « طاهر الزمخشري » ص ١٠٨ .

فالـداء يشعــل في طياتــه لهبـــا وفي مآقي من جبـــارة شعـــــل

إلى أن يقول متضرعا لله :

ربـاه هذي يدي تمتـــد ضارعــة وبـرْد لطـفك رىء مالــه مثـــل

فإن رحمت ففضل أنت سابغـــه على بردا به مازلت أشتمــــــل

وإذا كان هذا اللون من الشعر قد امتزج بعاطفة جياشة وروح مرْهف ظامىء ، ومن جهة أخرى نرى شاعرنا يفيض أسى ولوعـة وفي قصيدتـه « زفـرة » يعبر فيها عن اتجاه رومـانسى وقـد تأثـر بهذا المنهج من مدرسة « أبولـو » التــي تدعـــو إلى التجديد والتي ظهر فيها شعر يتحـدث عن العاطفـة والوجـدان الفـردى والجماعـي ويعـتبر شاعرنـا قد أسهـم بقـدر واف في إطـار التجديـد الـذي يوصف به الشعـر الحديث . يقول الشاعر[1] :

حنانيك يادهري فمـازلت بالـذي أعـاني رضيـا ، والهوى في مخصب

وقيثـــار ألحاني فؤاد مصـــفـــق على رغم مايلقـى يئـن ويطـــرب

فأمشي طعينـا في الحنايا زوافـري تضج ويطـويها الفــؤاد المعـــذب

أجـر ذيـول اليـأس في كل مهيـع ينير حفـــافيها الشقـــاء المصوَّب

فلا كبـدي البـالي ينبـى عن مقـاصدي ولا أنـــا مهمـــا جرْت بي أتعـــتب

ولو تتبعنا قصائد شاعرنا في ديوانه « عودة الغريب لوجدنا فيها نزعة رومانسيـة وفي قصيدة (الحيـاة) يعبر فيها عن فلسفتـه وبـأن نفسه ذات هِمَّـة عاليـة لا تقبـل الذل والهوان وفي هذا المعنى يقول الشاعر :[2]

عِشْت لا أرتضى هَوانــــــاً

لا ولا أقبـل الحضيض مكانـــا

لا ولا ألْبس المذلَّـــة سِرْبـــالا

ولـــو ناشنـــى الأذى ألْوانـــا

---

(١) المصْدر نفسه للمؤلف ص ١٣٥ .

(٢) ديوان عودة الغريب للشاعر طاهر الزمخشرى ص ٣١ ـــ ٣٢ .

وبنــفس من الــرضا أفيــاء

وهــي تمتــد بالسنــا فينانــا

وبعينـي من رؤاهــا ومــيض

أتملى به الحيــــاة جنانــــــا

من الـروابي الـوضاء ألمح أمجـا

دا لادراكهــا عبرت الزمانــا

وهـي تختـال في مطارفهـا البيـ

ض وآمـالها تشـع حسـانـا

وبها أسكب الخوالج شدْوا

ولها أنثر الحنايـــــا بيانـــــا

وهـي في خاطـري وفي عمــق

احساسى أمـان تفيض منـى حنانـا

وهـي في حبــة الفــؤاد رواء

ولها أقطــــع المدى تيهانــــا

وعلى حبها دفــعت حيــــاتي

كيـــف بالله ترتضى أن تهانــا

إلى أن يقول :

ولى روضة قد كنت أسقـى غرسهـا

بأغلى دمـائى ، والـدم الحرّ صيب

زرعت الأمـاني البـيض في جنبـــاتها

وراح خيـالي في رؤاهـــا يشذّب

جنــيت ثمار الجهــد منها فواجعــا

رجعت بها والعمـر ضحـل مجدب

ولاشك أن الشاعر في هذه الأبيات عنده نظرة تشاؤم من الحيـاة ــ فتـارة نجد شاعرنا ملىء بالأمل ، وتارة أخرى يندب ولا نجده يسير على طريقة واحدة .

النزعة الوصفية :

وهذه نزعة أخرى في شعر جماعة « أبولو » وهي نزعة قديمة في الشعر العربي ولكنها أخذت على يد هؤلاء الرواد (شعراء المهجر) صورا جديدة ، وأشكالا مبتكرة وأهم شيء تجلى عندهم في هذه النزعة هو شعر الطبيعة ، فلقد هربوا إلى أحضانها فرارا من لهيب الحياة وقسوة الأحداث ، ودعوها أمهم الحنون ، وألقوا بين مظاهرها المتنوعة أحزان نفوسهم وخلعوا عليها مشكلاتهم ، وحلّوا فيها ، وامتزجوا فيها ، ولم يكتفوا بوصفها من الخارج بل غاصوا في أعماقها وأدركوا أسرارها وماوراء المظاهر الخارجية منْها وتوصلوا إلى روحها لذلك نجد الشاعر « إبراهيم ناجي » يقف على البحر[1] في وقت الغروب ليغرق أحزانه وآلامه في أمواجه وينطلق يناجيه بقصيدته (خواطر الغروب) :

قلت للبحر إذا وقفت ذات مساء ... كم أطْلت الوقوف والإصغاء

وجعلت النسيم زادا لروحي ... وشربت الظلال والأضواء

وكأن الألوان مختلفات ... جعلت منك روضة غناء

مرّ بي عطرها فأسكر نفسي ... وسرى في جوانحي كيف شاء

وكأني أرى بعين خيالي ... ساحر المقلتين يغض حياء

وكأن الوجود لم يحو إلا ... حسنه والطبيعة الحسناء

نشوة لم تطل : صحا القلب منها ... مثلما كان أو أشد عناء

إنما يفهم الشبيه شبيها ... أيها البحر نحن لسنا سواء

أنت عات ، ونحن حرْب الليالي ... مزقتنا وصيرتنا هباء

إلى أن يقول :

ماتقول الأمواج ماآلم الشمس ... فراحت حزينة صفراء

فنجد الشاعر[2] هنا يتجاوب مع الطبيعة ، ويجعل النسيم زادا لروحي ويشرب الظلال والأضواء ويجسم الألوان ، ويحيلها إلى روضة غناء تسبح على ماء البحر ، ويوقظ عطرها في نفسه ذكرى حبيبته فيراها بعين خياله وهي تغض حياء

---

(١) ديوان وراء الغمام للشاعر (ابراهيم ناجي) ص ٨٥ .

(٢) جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث (عبد العزيز الدسوقي ض ٤٥٣ .

وخجلا ، ويسبح في نشوة ولكنها لا تطول إذ يستيقظ قلبه أشد عناء ـــ ويبدأ الشاعر يناجي البحر مقارنا بين عتوه وجبروته ، وبين نفسه الضعيفة الممزقة ، ثم يْخلع في النِّهاية مافي نفسه من أحزان قاتمة خَرْساء على الطبيعة فتتحول الشَّمس عنده حزينة صفراء .

وعلى نفس النهج تأثر شاعرنا « طاهر الزمخشري » بالشّاعر « إبراهيم ناجي » يناجي الشاعر البحر ويقول لها سلى البحر عني والشواطىء وكيف أمشي بالحزن والأسى يفعم قلبي يقول شاعرنا في قصيدة « إلى الحمراء »[1]

فسلى البحر والشواطىء عنـــي كيف أمشي بلوعـة خرســـاء

ومن الحسن إلــف لوْن حيــاتي لا أرى في جمالها من عزاء

يضحك الموج من سهومي ويلقي بي بين الحســان في الـرمضاء

وأرى خطــوتي تسابـــق ظلى في جفون على بســاط العــراء

وعلى مقلتي مجامــر تكـــوى نظــراتى بأثمد الإغضـــاء

ونجد بعد ذلك أن الشاعر يذكر حبيبته عند الغروب أمام البحر ويمزج بين آلامه وأحزانه وبين الطبيعة وفي هذا المشهد مشهد الأصيل تثير الشمس المودعة « ذكريات الوداع والحب ثم يعود الشاعر إلى تصوير آلامه وأحزانه وخلعها على الطبيعة يقول شاعرنا[2]

والأصيل الــذي يزغــرد حوْلى عبقري الرؤى شفيف الضيــاء

ضمنـــى في وشاحـــه وتمطَّـــى بى فوق الأديم في الخضراء

وعـــروس الإلهام تحمـــل ورْدا شاعـــرى العطـــاء والأشذاذ

وبسمعـــي تصب أحلى نشيـــد وتـــروح الأنفـــاس بالأصداء

قد أثارت فيّ الشجون وطارت بي عبر الأثيــــر للحمــــراء

وعلى رفرف من الصمت تسرى باشتيـــاقي للربـــوة الشمـــاء

في ضفـــاف بها تلـــوح أمـــان مالها غير مهجتـــــي من رواء

وبما في جوانحي من حنين لهفتي صفقت لقـــرب اللقـــاء

---

(١) معازف الأشجان للشاعر (طاهر الزمخشري) ص ١٤٢ .

(٢) المصْدر نفسه ص ١٤٢ .

ومن جهة أخرى يلجأ الشّاعر إلى الطبيعة يبث فيها أشْجانه وأحْزانه ويتخذ من السحاب صُورة شعرية تستوجب العطف والحنان لأن في روحه جمرة من نار وفي عينيه جمرة أخرى ولا يطفىء تلك الجمرات إلا برد الرضا يقول شاعرنا في هذا المعنى[1] :

أنا في غربتي بجفز رواب — وردها راقص الرؤى بالحنان
كلما هزني إليك اشتياق — غمرت بالعبير جو المكان
ومن السحب هاطل ينزى — ويصب الرذاذ في الأغصان
وأنا تحت معطفي لاهث الأنفاس — مما أحسُّ من غليان
من حريق بمهجتي يتلظى — وبعيني من ناره جمرتان
جمرة تحمل السهاد وأخرى — نافست باللظى ندى الهتان
وعجيب أن يشعل لبرْد نارا — وقدها زاد لاعج الحرّان
فإذا ماذكرت .. ياليت ترْحل — وطافت بي الرؤى في المغاني
وببرد الرِّضا تمدَّ روامَا — فحملي الشوك والألوان
وعلى رفرف من الشوق خفاق — يناجي بأيكة غصن بان
فإذا باللقاء يحلو مع البعد — بدينا يجوبها « غردان »

وإذا كان لنا أن نقرر شيئا هاما في هذه النزعة « النزعة الوصفية » لا نبالغ إذا قلنا أن الشاعر « طاهر الزمخشري » قد أضاف شيئا جديدا للشعر العربي في مضمونه وألفاظه . وأن النزعة الرومانسية التي تتجلى في معظم أشعاره وفي عناوين القصائد ومنها قصيدة « الربيع العائد يقول فيها شاعرنا[2] :

ياربيعا مغرّد القسمات — مشرقا كالضحى بوجه الحياة
عدت لي والأسى يبعثر أفكاري — ويرمي خواطري بالشتات
ويذوب الجراح تنثر أوصالى — وتلهى بأعظمى النخرات
عدت لى والهموم تملأ نفسي — فغسلت الهموم بالبسمات

---

(١) ديوان معازف الأشجان للشاعر « طاهر الزمخشري » ص ١٣٢ .

(٢) ديوان معازف الأشجان نفس المؤلف ص ١٧٢ .

وكأن الربيع في جماله ونشوته وتفتح الأزهار في البساتين قد نشرت الأفراح من حول الشاعر وبأحلى مايتمناه وهذه صورة شعرية جميلة أتى بها الشاعر وهذه براعة الفن في تصوير الشيء المعنوي بالمحسوس وفي هذا المعنى يقول :[1]

ونشرت الأفـــراح حوْلي بأحلى ماتمنـــــــيت من رؤى غردات
رجعت بي إلى الصِّبـا والليـالي في الـربى من شهـار والمثفـاة
فطـويت السنين عوْدا إلى الماضي وأيقـظت صبـوتي من سبـات
يوم كنـا بين السلامــة والرّيـان نشدو بالهمس والنظـــــرات
وخطى البذْر في كهوف من الليل تمدّ الضيـــاء في الرحبـــات
وحفيف الأغصان بين الشجيرات يعيد الضـرى من الهمســـات
والغمامـات حوْلنـا تسكب الطـل فتنـدى الشفـاه بالقطـــرات
والحنين الـذي نديـر به النجـوى يروي المشاعـــر الظامئـــات
والسكـون المخمـور يعفــو على الصخر وفي جفنه الرؤى الحالمات
والمقاديـــر من رواء المسافـــات تبث الصروف من الطرقـــات
فسقينـــا من الشتـــات قراحـــا ثم ألـقت بنــــا إلى الحسرات
نتباكـى على الـذي مات منـــا ونــروي ذكــراه بالــعبرات
وعلى جسر صبرنـــا قد وقفنـــا في ارتقـــاب لهازم اللـــذات
وعلى ذكــره سنطــوى الليــالي وإليـه نفـىء بالأمنيـــــــات
فالخريـف المنهــوك عانـق أحـلام ربيـع مغــــرّد القسمـــــات
والأساريـــر من محيــــاه تجرى بنمير من أعـذب الذكريــــات

---

(١) ديوان معازف الأشجان للشاعر طاهر الزَّمخشري ص ١٧٣ .

النزعة العاطفية :

لقد تميز شعر (أبولو) بالنزعة العاطفية ـ فإن ظروف الحياة التي عاش فيها هؤلاء الشبان قضت أن يجيء شعرهم ذاتيا بهذه النزعة العاطفية ، فشعر الحب عندهم واللهفة والاحساس بالضياع وتصوير مفاتن المرأة والحنين الدائم للوطن ومواطن الذكريات يدخل تحت هذه النزعة ـ ومن جهة أخرى فإن الظروف السياسية المظلمة واضطراب الأحوال وأحداث الحياة أيضا هي التي أرهقت نفوس هؤلاء الشبان وصابتهم بحالة من الحزن والتشاؤم واليأس ، وهي حالة شبيهة بمرض العصر الذي أصيب به الشعراء الرومانسيون في الآداب الأوربية ، ولذلك يمكن أن نطلق على هذا التيار من شعرنا بأنه تيار رومانسي ، ويبدو أن المضمون الرومانسي الوجداني لشعرهم لم يستنفد مافي نفوسهم من حزن وألم وحنين وطموح مضطهد فلجأوا إلى التعبير بالرمز ليشعل لهم المناطق المظلمة في نفوسهم وهم يسيرون غورها ليوحوا إلى القارىء بما فيها من المعاني التي لا يمكن إدراكها إلا عن طريق الرمز والإيحاء ، فالشاعر ابراهيم ناجي الذي كان شاعرنا « طاهر الزمخشري » متأثرا به عاش مع هذا الشعر فترة طويلة وترجم ديوان « أزهار الشر » لشارل بودلير وقد نشر بعد وفاته ، وعلى « محمود طه » قد تحدث في كتابه « أرواح شاردة » عن فرلين والأستاذ « أحمد زكي أبوشادي » يشير إلى كثير من معاني الرمزية في ديوانه « الشفق الباكي» فيقول : [1]« كلما سما الفن كان رمزيا في بلاغته لأنه بهذا الرمز يثير التفكير والتأمل ويثير عواطف شتى مكتومة ، ويحي ذكريات ، ويكون علاقات ذهنية ونفسية متنوعة بين صور الحياة ، وشعر بأن هذا الاتساق الجامع المتعدد الإلهام هو الجمال كلما كان شاذا في قوته عدّنا در الجمال ـ وأن الفن والجمال توأمان يربطان ـ بإيحائهما ـ الحاضر بالماضي والمستقبل سواء وعينا ذلك، أم لم نعه بل غالبا لا نعيه لأن كل هذا متصل بفعلنا الماضي .

---

(١) الشفق الباكي لأحمد زكي أبو شادي .

حينما[1] أراد شاعرنا « طاهر الزمخشري» أن يعبر بطريقة الرَّمز في قصيدة الفجر فإنه لا يريد أن يصف الفجر ولكنه يريد أن يقول كان له ماض مفعم بالذكريات التي كانت ذات أثر في نفسه وبعد برْهة انقشع هذا الماضي وأصبح بعيش بالأمل الذي ينير للانسان طريق الحياة يقول الشاعر في قصيدته « الفجر »[2] :

أنا في الليل وهذا الصمت من حوْلي يناغي أمنياتي
وعلى البعد رؤى الفتنة بالالهام تروى أغنياتي
وعلى الدرب تباشير صباح من وراء الغيب آت
مشرق الصفحة في كفيه آمالي العذاب المشرقات
والسفوح البيض بالفرحة تهفو للأماني المقبلات

* * *

وأنا أشدو من الغبطة للفجر ونار خفقاتى
والترانيم التي أسكب أنفاس النشاوى الخضرات
كلما طاف الماضي ترامت بشتيت الذكريات
بين أمس كان باللوعة مخضوب المدى والجنبات
وغد تضحك في أفيائه البشرى وتسخو بالهبات
وأنا جاث على الربوة في جنبي تلهو صبواتى

* * *

أسأل الحاضر عن أمس فيربد ويجرى زفراتي
وأرى الأيام من عمرى ، وقد ضاعت هباء في الشكاة
من هموم أعشت الطرف وأدمت بالمآسي خلجاتي
وشكاوات على مرجلها العاتي أضاعت أمسياتي
بين آه تعلن الحسرة في صوت حبيس النبرات
وأنين يحرق القلب فيجرى لاهبا في عبراتي
وليال كلما أوغلت فيها سابقتني عثراتي

* * *

(١) ديوان عودة الغريب للشاعر (طاهر الزمخشري) ص ١٣٧ .
(٢) عودة الغريب (طاهر الزمخشري) ص ٣٧ — ٣٨ .

وأنـا أحمل آلامـي ــ وأقتـاد لحتفـي خطـواتي
وإلى أن أيقـظ الفجـر أحـاسيسي وداني شرفـاتي
هتـفت بيض الأمـاني لليـالي وأيـام حيـاتي

ومن جهة أخرى أراد الشاعر « طاهر الزمخشري » أن يعبر في قصيدة « إلى نجمة » بالرمز وهو لا يريد أن يصف النجمة ولكنه أراد أن يثير التفكير والتأمل ويثير العواطف المكنونة في داخل نفسه وأن يسعد بتحقيق الأمل الوضاء يقول شاعرنا :[1]

أغالب الشوق في نفسي بنجواك	فيضحك البشر من حولي بمعناك
فأملأ الأفـق ألحانـا مغـردة	من الحنايا التي تشدو بذكـراك
وتغمر الصمت جنح الليل أغنية	يذوب في رجعها النشوان مضناك

* * *

يانجمـة في سماء الحب مشرقـة	يناغم الومض منها قلبي الشاكي
يرجـو بآهـة محزون ممزقـة	أن يستريح من الشكوى بتبـاك
إذ ليس يطفىء مافي النـفس من	حرق إلا متى رنت بالسحر عينـاك
وأين ألقاك والدنيـا على سعـة	ضاقت بما رحبت في طرف الباكـي
وماتـواريت إذا مازالت دانيـة	لكن قطوف حماها نصل فتاك

ويلاحظ في البيت الرابع أنه اقتبس شطر البيت الثاني من الآية الكريمة « **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم** »[2] .

والحسن إن يعسف بالـواهين به	يصنع ستار الجفا من نسج أفاك
رمى الوشاية سهامـا أصاب به	إلا الفؤاد الذي مازال يرعـاك

ويستطر الشاعر قائلا :

---

(١) ديوان عودة الغريب (لطاهر الزمخشري) ص ٩٧ .

(٢) سورة التوبة الآية رقم ١١٨ .

أسرح الطرف من حوْلي فيرجع لي ... مقرح الجفن لم يظفر برؤياك

وكان طيفك في الديجور يؤنسني ... ويبعد النوم عن عيني بنجواك

فعدت أرجو ولو إيماء بارقة ... من الفتون الذي يلهو بسراك

وهل أسير بغير الحسن يوثقه ... بقيد حبك ومض من ثناياك ؟!

وكان يسقي بكأس الود صافيه ... فمصورة من زهور في محياك

فصار لا يحتسي إلا مصفقة ... من الحنين إلى أكفاف مغناك

وأنت في بردة راح المراح بها ... يشيع في روضة النشوان ريّاك[1]

حيث الزهور التي قد بات ضاحكها ... يندي ويهدي الربا من عطرك الزاكي

حيث السفوح وفي أغوارها قبس ... من الشعاع أبقاه مسراك

فإن تناءيت عن تلك السفوح ... فما يزال فيها حديث عن ضحاياك

---

(١) ديوان عودة الغريب (طاهر الزمخشري) ص ٩٨ .

النزعة الإنسانية

لقد كان من أوائل الداعين لهذه النزعة رائد جماعة (أبولو) الأستاذ أحمد زكي أبو شادي فهو يرى أن الشاعر الحق هو « الشاعر الإنساني » وله قصيدة بهذا العنوان يقول فيها :[1]

لا أرى غيره فينا بعرش	لنظيم يعيش في الأجيال
هو يبني مع الطبيعة ملكا	لحياة غنية الأجيال
ليس يكفي للشعر فنا تلاه	فهو روح الفتوى المتعالى
كل شعر سواه لحن ضئيل	وشعاع يموت طي الليالي

وهذه النزعة تدفع الشاعر إلى الإيمان بالإنسانية في صورتها العليا والإرتفاع على النزعات العارضة الوقتية ــ وقد تأثر شاعرنا بهذا الاتجاه فنجد في ديوانه « عودة الغريب » ينفر من الضغائن التي في النفوس ويدعو إلى التسامح فيقول :[2]

في الحنايا عقارب وثعابين ، ومن سمها اشتعال الضغائن
فالحسود الذي يكاتمك البغضاء إما مخادع أو مداهن
والحقود الذي تثور به الشحناء يبدي مايختفي في المباطن

وفي قصيدة أخرى لشاعرنا نراه يدعو إلى الصفح وهذا الخلق هو سمة الكرام يقول الشاعر :[3]

على الماضي الملوث بالخطايا	تحاول أن يعود إليك ودي
وكيف أنت ترجو للمخازى	وتورى بالضغينة شرٌ زند
وللأحقاد زمجرة الضوارى	على شذقيك ماتخفيه تبدى
فإن عاثت سهامك في فؤادى	فصفحى عن عقوقك خير ردٌ

---

(١) ديوان الشفق الباكي لأحمد زكي أبوشادي ص ٨٣٣ (٣) المصدر نفسه ص ٦٦ .

(٢) ديوان عودة الغريب (طاهر الزمخشري) ص ٦٧ .

ومن ناحية أخرى إلى الحب وفي الحب يجد الإنسان حياة الصفاء والرخاء ويعم الخير على البشرية يقول الشاعر طاهر الزمخشري :[1]

أحب نفسي لأني في نقـــــاوتها ... أرى الحياة بما تحويـــه تزدحـــم

وأنها لي مرآة تطالعنـــــــــــي ... منها الأمـاني يناغـي حلوهـا النغـم

ولا أكدّرهــــــا إذ في بشاشتها ... صفـو بنشوتـــه الأيـــام تبـتسم

إن النفـوس متـى ضاقت سريـرتها ... بالحب مادامت على دنيا الـورى النعـم

يتضح مما سبق أن شاعرنا (طاهر الزمخشري) قد تأثر كثيرا بمدرسة (أبولـو) وعلى الأخص أحـد روادهـا (ابـراهيم ناجـي) الـــذي اتبـــع أصحـــاب المدرسة الرومانسية من الأوربيـة ، ونسج على منوالهم ، فجاء شعره فرديـا يصور فيـه حبه ومشاعـره ، وفي نفس الإتجاه نرى القصائـد الشعريـة التـي في دواويـــن (طاهـــر الزمخشري) وهي عودة الغريب ـــ معازف الأشجان ـــ أحلام الربيع ، يظهـر فيها آثـار الرومانسيـة ونحس أيضا في قصائـده بالحزن والقلـق والحيرة ، كما تظهـر لنـــا بوضوح عنده الشغف بالـتساؤل في أكثر من قصيـدة ففـي رباعياتـه عناويـن هي : سؤال .. ؟ من هي .. ؟ كيف أعيش ؟ .. استفهام ؟ ..

ولقد كان (طاهر الزمخشري) وجدانيا يصوِّر في شعره عاطفة متقدة ، ويسمو بفكره وفنّه ونحن نجده يحس بالحيرة والعذاب فالوجدان ينفعل على درجـات والحدة تخالف الليونة والرقـة لأن روح الشاعـر تنعـكس على وجدانـه قوة وضعفـا ويظهـر ذلك واضحا في تعبيراته ونجد شاعرنا قد أسهم بنصيب طيب في تيـار التجديـد في الشعر الحديث .



(١) ديوان عودة الغريب (طاهر الزمخشري) ص ٥٣ .

مدرسة الديوان

إن قيام مدرسة الديوان وفي أعقابها أو في ركابها مدرسة شعراء المهجر الأمريكي كان هزّة قوية في دنيا الشعر والنقد لأنها لم تقتصر في تجديدها على التعبير اللفظى ، وإنما جعلت هدفها إعادة الشعر إلى مهمته الأولى .. مهمة التعبير عن النفس ، وتصوير العواطف في صدق واخلاص ، لذلك عكفت المدرستان في السعى على الموضوعات القديمة والأصلية والصور المستمدة من بيئات لا يكاد يعرف الشاعر عنها إلا ماحفظ » وهو لذلك عبد لما حفظ في كل مايتصل بتصويرها ، وكان لهجوم المدرستين على مجرد الألفاظ وحشد التعبيرات المتخفية الأثرية في كلام موزون مقفى ان برىء الشعر الحديث في كثير ، وإن ظل يعاني إلى اليوم جزءا ليس يسيرا من هذه الظاهرة[1] .

تأثر جماعة الديوان بالرومانتيكية :

وقد اهتمت هذه الجماعة التجديدية بالاطلاع على الآداب الغربية ونخص بالذكر (كارليل جون ستيورات مل وبايرون ووردزرث) كما كان هازلت أمامهم في النقد ، فقد هداهم إلى معاني الشعر والفنون وأغراض الكتابة ومواضع المقارنة والاستشهاد أى أن هذه المدرسة قد تأثرت بالمدرسة الرومانتكية في أوربا إذ كانت الفلسفة السائدة في عصر البرجوازية هي الفلسفة الفردية « فالروح البرجوازى انتاج فردى بمعنى أن الدافع إليه هو المنفعة الخاصة لا المنفعة العامة .

والرومانتيكية أهم تيار أدبي في تاريخ الآداب الأوربية لأنها فتحت الطريق أمام الإنسان للحصول على حقوقه ، وكانت إشارة البدء للثورات الوطنية التي قامت في فرنسا وغيرها على قلاع الاقطاع والكنيسة ، لما كانت معارضة حامية ضد الأدب الكلاسيكي الذي خضع خضوعا كاملا للعقل الذي كبح جماح العاطفة ولم يترك لها الفرصة لتتنفس أو تعبر عن ثوراتها وتطلعاتها إلى الحرية والمستقبل الأفضل .

---

(١) حوْل التجديد في الشعر المعاصر د. سهير القلماوى ص ١٨٢ .

وقد تأثر أدباء الرومانتيكية على العقل وعلى الحقيقة المستنبطة من الواقع وذهبوا إلى أحضان الطبيعة ، وانطلقوا ليعبروا عن آلامهم وعذابهم فهم دائما تعتلهم السآمة ولا شيء يبهجهم سواء أكان هذا الشيء عصا الملك أو عصا الرأى كما قال شاتوبريان . وهم يبحثون عن الحياة الجميلة التي تزدحم بالأحاسيس السَّارة فهم لا ينشدون في أدبهم الحقيقة التي اصطلح الناس عليها ويتصورون أن الصورة والأخيلة المستخدمة في الأحلام ولغة التنبؤ الشعري توجد في الطبيعة المحيطة بهم ، ولهذا يهيم الرومانتيكي بالطبيعة ، ويصف مناظرها ويملك كل مابها من روعة وخيال بارع غير أن السِّمة البارزة في هذا الأدب هو أنه أدب ثورة وتحرر .. يكثر فيه الشعر الوجداني والافضاء بذات النفس في قوة تبين عن طابع العزة وتعبر عن آلامه فهو أدب ذاتي مشبوب[1] .

تأثر الشاعر الزمخشري بابراهيم المازني :

الحب قيثارة الحياة الجميلة ، فأوتاره تعزف أعذب الألحان ، وأنغامه تبعث الحياة والقوة في النفوس التي تحب ، ومنذ قديم الزمان حين عرف الإنسان التعبير اتجه إلى قلبه ليستكشف هذا الوجيب والخفقان المحبب الذي حار في تفسيره النظاميون والحكماء ، وكانت الأنثي دائما هي التي تثير عنده هذه المشاعر المختلفة من السعادة والشقاء فأخذ يتجه نحوها بتعبيره محاولا أن يرْسم صورة صادقة لها ، أو أن يفهم هذا المخلوق الغامض الذي يتيه في أضواء الحسن وروعة الكمال[2] .

وقد كتب المازني تحت عنوان (في الحب والمرأة) « الحب يعمر النفس يذهلها عن لذاته وحلاوته ، ويشغلها بالوجيب والقلق والخوْت والرغبة والغيرة ولهذا كان أمتع مافيه ذكراه .

والمازني ولوع بالجمال يتملاه في كل منظر ويتخيله في كل صورة بلا استثناء ، وعنده أن الرجل الذي يفقده الحب القدرة على الاعجاب بالجمال في صوره المختلفة يكون فاسد الذوق ، ولو اعتلت المرأة لكان هذا كافيا لتشكيكها في رأيه فيها .[3]

---

(١) الرومانتيكية د. محمد غنيمي (٢) جماعة الديوان د. يسري محمد سلامة ص ١٣٢ .
(٣) أدب المازني د. (نعمات أحمد فؤاد) ص ٣٣٤ .

ويقول أيضا « إنه من الممكن إرضاء عاطفة الحب عند الرجل السليم المعافى بالنظر إلى المرأة ، والاستماع إلى حديثها ، والتمتع بابتسامتها ، ورشاقة وقفتها ، والذي يقنع من المرأة بذلك يكون أحوج إلى الطبيب المداوي منه إلى المرأة . .

ولقد كان المازني يهيم بالجمال كثيرا وقصائده تعبر عن ذلك أصْدق تعبير يقول المازني :[1]

أرق من دمعة التوديع طلعته
وقد تحمل للتوديع خلصان
ومالابتسامة ولهانين لنهما
بعد النوى وانصداع الشمل لعيانا
يوْما بأعذب من حسن تسرْبله
عليه منه على الأيام ريعان
عبدت فيه إلها كنت أكفره
دهرا فاعقب نكرانيه عرفان
هذا نبي لم يبعث وليس له
إلا الجمال وآى الحسن قرآن
آمنت بالعين عن طوْع وفي سعة
وآمنت من نفوس الناس آذان
لو أنه كان في وسعي ومقدرتي
أن ترسم اللحظ ألفاظ لها شأن
وأن أصور في القرطاس فتنته
لقالت الناس هذا منك بهتان
سحر لعمرك لم يمنحه أحد
إلا الملائك لا إنس ولا جان

---

(١) ديوان المازني شعر الجزء الثاني ص ٥٠ .

وشاعر لبق التصوير يحكمه
إحكامه وخيال الفحل معوان
يكسوه من شعره ثوْبا يخلده
وليس يبلى جديد الشعر أزمان

وفي الأبيات السابقة نجد شاعرنا يعيش في جو من الصفاء والحب ــ الحب الذي يهيم على الطبيعة يجد فيه شاعرنا معاني الجمال وسحر الوجود .

ويستطرد الشاعر « ابراهيم المازني » في مناجاة الهاجر حيث يقول :

لا كالرياح سمير حين ثورتها ... إذا ما لأسرارها في الصدر أجفان
تفضى إليك بنجواها هازما زمها ... ثم الصبح بما يطويه أدجان

وقد لجأ الشاعر بهذا التعبير الجميل الذي عبّر به أصدق تعبير حيث اجتمعت له أدوات الشاعر الموهوب من رهافة حس وسعة خيال وقدرة على التعبير يقول :[1]

إذا الفتى كان ذو شجو يميد به ... معذبا بالمنى من معشر خانوا
فنعم مسكنه غار له أبدا ... من السحاب قلادات وتيجان
ونعم أقرانه بحر له زجل ... وساقيات لها سجع وأوزان
وما أبالى وقد أصبحت مطرحا ... إذا خلت لى من الانسان أوطان
مابي إلى الناس أطراب فافقدهم ... إذا اعتزلت وهل للدّاء فقدان
بيني وبين الورى بون فاحج بأن ... يكون بيني وبين الناس وديان
إني شغلت بمعراض أخى ملل ... فلست أدرى فوق الأرض سكانا
سيان عندي إذا ماازور عن نظري ... واظلم الجوّ إنسان وغيران
وما على الناس من أربى ... إن قطعَت بيننا بيد وغدران
هيهات آنسى بالانسان ثانية ... من يألف الكأس يألم وهو صديان

وإذا كان الشاعر هنا قد فقد الأمل باليأس فإننا نجده في الأبيات التالية يستأنس بالطبيعة الجميلة البحر ــ والموج والرياح ويستطر قائلا :

خل الرياح تناجيني وتعزف لى ... فللرياح كما للناس ألحان

(١) ديوان المازني ــ الجزء الأول ص ١٠٨ .

إن يستخف بما ألقى أخو عنف ... لا رفق فيه فإن البحر حنان
تسليك منه وإن أشجتك روعته ... وقد تسرى من الأشجان أشجان
والبحر للنفس مرآة ترى صورا ... منها بها ولعجم الموج تبيان

وعلى هذا النهج نرى شاعرنا (طاهر الزمخشري) قد تأثر بالشاعر « إبراهيم المازني » تأثرا بالغا لذا فإننا نراه يخاطب البحْر فيقول[1] :

ويك يابحر من غريق رماه ... في عميق القرار منك الضياع
هل تحدّى الاعصار فيك فألقاه ... إلى قاعك السحيق الصّراع
كان لي زورق على موجك ... الراقص والخافق المعنى الشراع
هل عويل الرياح يستدرج السارى ... وقد طاب للسُّرى الاقلاع
كيف أغرقتني وإني سباح ... ولي في اقتحام هوْلك باع

وبعد أن استعرضنا شعر (طاهر الزمخشري) في دواوينه الكثيرة نرى بوضوح أن الصفة الغالبة على شعره هي قصائد الغزل وأن الغاية التي يرمي إليها الشاعر هو حب الجمال وحب الحياة وإننا نرى الشاعر (عبد الرحمن شكري) الذي يطالعنا في مقدمة ديوانه (زهور الربيع بقوله :[2]

« ولقد رأيت بعض القراء لا يفهم منزلة الغزل في الشعر . أن مزية الغزل سببها أن حب الجمال حب الحياة ، وكلما كان نصيب المرء من حب الجمال أوفر كان نصيبه من حب الحياة أعظم . وحب الحياة والجمال من العوامل الاجتماعية القوية التي تزجى الأمم إلى التفوق والاستعلاء ــ ولا أعني بالغزل غزل الشهوات بل الغزل الروحاني الذي يترفع عن أوصاف الجسم إلا ما بدأ للروح أثر فيه .

والحب أعلق العواطف بالنفس ومنه تنشأ عواطف كثيرة مثل البغض أو الود أو الرجاء أو اليأس ، أو الحسد أو الندم أو الشجاعة أو الجبن أو حب العلاء أو الجود

---

(١) ديوان عبير الذكريات (طاهر الزمخشري) ص ١٣٧ .

(٢) جماعة الديوان (د. يسرى سلامه) ص ١٤٨ .

ومظهر دروسها فالغزل يعبر عن العواطف النّفسية ومن حيث أن حب الجمال حب للحياة ، ونرى فيه آراء لشاعر وكل مايعتوره في الحياة من الخواطر ، ويصيبه من التجارب وكل مايسمو إليه فكره أو يحنُّ إليه قلبه وكل مايعالجه من أساليب الحياة . وهذا الغزل هو واسطة القلادة وسلك العقد وروح الشعر ليس من شروطه تعليق العاطفة بفرد من أفراد الناس وقصرها عليه . وإن كان ذلك أدعى إلى ظهورها فإن الغزل الذي نعنيه سببه العاطفة التي تجعل المرء يحس الجمال احساسا شديدا في جميع مظاهره سَواء جمال الوجوه والأجسام أم جمال الأزهار والأنهار أو جمال البرق في السحاب أو جمال الليل ونجومه أو الصباح ونسيمه أو جمال النفوس والأخلاق أو جمال الصفات .

وليست محبة الفرد إلا مظهرا من مظاهر هذه العاطفة الواسعة التي تحنو على جمال يستجلى في الحياة — وهذه العاطفة الشعرية تفيض ضياءها على كل شيء حتى على جوانب الحياة المظلمة الكريهة فتحيوها جمالا فنيا مثل جمال الصورة البديعة التي يعجب المرء بجمالها الفني ، حتى ولو كانت صورة مذبحة أو جمال الأنغام الحزينة التي تذيب القلْب »[1] .

الإسلام والشّعر :

لقد كان العرب كما سبق الاشارة يعتبرون الشعر ديوانهم الأسمى ويقيمون له منزلة عظيمة في نفوسهم ، وكان للشعراء في ظل الجاهلية مكانتهم المرموقة التي يحسدون عليها فماذا كان شأن الشعر في الاسلام ؟

لقد قال الله في حق نبيه ﷺ « **وماعلمناه الشعر وماينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** » وهذه الآية توضح صرْف النبي ﷺ عن قوْل الشعر على الرغم من انتشاره الواسع في وقته ، حتى لم يكن يتركه أحد وهي ترد على ادعاء المشركين بأنه شاعر ، وأن القرآن شعر ، وفي ذلك رفع لمكانة القرآن الكريم المعجز ببيانه وفصاحته التي تفوق فصاحة الفصحاء وشعر الشعراء .

---

(١) جماعة الديوان (د. يُسْري سلامة) ص ١٤٩ .

ولكن انصراف النبي ﷺ عن قول الشعر ليس معناه كراهيته له ، فقد أثر عنه أنه كان يستحسن الجيد منه ويشجع عليه وهو القائل : إن من البيان لسحْرا ، وإن من الشعر لحكمة ومناسبة هذا الحديث هي :

« جاء في زهر الآداب : وفد إلى رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم فقال الزبرقان : يارسول الله ، أنا سيد تميم ، والمطاع فيهم ، والمجاب منهم ، آخذ بحقهم وأمنعهم من الظلم ، وهذا يعلم ذلك يعني عمرا فقال عمرو : أجل يارسول الله : إنه مانع لحوزته ، مطاع في عشيرته ، شديد العارضة فيهم ، فقال الزبرقان : أما انه والله قد علم أكثر مما قال ولكنه حسد لي شعرا ، فقال عمرو : أما لئن قال ماقال فو الله ماعلمته إلا لضيق العطن زمن المروءة أحمق الأب ، ليئم الخال ، حديث الغنى ، فرأى الكراهة في وجْه رسول الله ﷺ لما اختلف قوْله فقال : يارسول الله ، رضيت فقلت أحْسن ماعملت وغضبت فقلت أقبح ماعلمت ، وماكذبت في الأولى لقد صدقت في الثانية . فقال رسول الله ﷺ : إن من البيان لسحْرا ، وإن من الشعر لحكمه ، وقد روى لعمر أبياتا من الشعر في فتح مكة يقول فيها :

ألم تر أن الله أظهر دينه	على كل دين قبل ذلك حائد
واسلبه من أهل مكة بعدما	تداعوا إلى أمرين الغى فاسد
عداة أجال الخيل في عرصاتها	مسوقة بين الزبير وخالد
فأمسى رسول الله قد عز نصره	وأمسى عداه من قتيل وشارد

وعمر رضي الله عنه كان يحتفل بالشعر ، ويفهم مراميه ، وينقده نقد البصر ، ويدعو إلى تعلمه ، وقد ذكر صاحب الكتاب « الأدب العربي وتاريخه أنه كان يعْرف قدْر الشَعر وهو الذي يقول : أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في حاجته ، ويستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلْب اللئيم وكتب إلى أبي موسى الأشعري يقول . مرّ من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب ومن أقواله : تعلموا العربية فإنها تثبت العقول وتزيد المروءة . وكان يحب سماع الشعر وقد أثاب عليه بقميصه الذي لم يجد مايعطيه غيره ، وهو الذي قال لبعض ولد هرم وقد أنشده قوْل زهير في

أبيه : إنه كان ليحسن فيكم القول ، فقال له ونحن كنا نحسن له العطاء قال : ذهب ماأعطيتموه وبقى ماأعطاكم »

يتضح من هذا عناية الصحابة بالشعر . وإلى أن الإسلام لم يغض من قدْره ولم يمنع ، ولم يمنع عدم قوْل النبي ﷺ له أن يظل الشعر مرفوع الهامة منصوب القامة حيثُ اتخذه الاسْلام سِلاحاً من أسلحته التي رمى بها في المقتل[1] .

أدب الوجدانيات :

لم يكن « اللون الوجداني » في النثر العربي المعاصر واضحا تمام الوضوح في خلال فترة مابين الحربين ، وربما كان واضحا في الشعر باعتباره فنا من فنون الوجدان الأصلية التي تقوم على العاطفة ــ ومن أبرز الكتاب الذين كتبوا في هذا اللون هو الأديب (مصطفى صادق الرافعى وهو أول من ابتدع رسائل الحب المكتوبة في الأدب العربي المعاصر ــ فقد أصدْر عام ١٩٢٤ كتابه « رسائل الأحزان » لا لأنها من الحزن جاءت . ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ، ثم لأنها من لسان كان سلما يترجم عن قلْب كان حرْبا ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة . وكان كالحياة ماضيا إلى قبر .

ثم أصدر الرافعي بعد كتابه « أوراق الورد » عام ١٩٣٠ وقال إن فلسفة الحب والجمال فن مستحدث في اللغة العربية ، وأنه هو أول من كتب فيه من مؤلفاته الثلاثة : السحاب الأحمر ، ورسائل الأحزان ، وأوراق الورد ، وأنه بهذه الكتب سد المكان الخالي في الأدب العربي من أول تاريخه إلى اليوم ، وأعطى العربية كتابا في رسائل الحب وفلسفته وأوصافه ، يقابل به مافي اللغات الأخرى[2]

وقال إن هدفه هو تطهير فكرة الحب ، وتهذيب معانيه في نفوس الشباب والفتيات والسموّ بهذه الفكرة إلى الروحانية ، لتسمو بها النفس بدلا من أن

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦ .

(٢) أضواء على الأدب العربي المعاصر (أنور الجندي) ص ٥٨ .

تسقط ، ووضع عمل حاسم يفصل في النزاع القائم بين القديم والجديد لأنه نزاع كلامي ، إلى أن يصنع أحد المذهبين عملا يعجز المذْهب الآخر عنه .

وقال مؤرخو الرافعي إن هذا الكتاب سدَّ المكان الخالي في الأدب العربي المعاصر ، ووصفه الرافعي بأنه كتاب العربية ومعجزاتها في هذا الباب وكان حب الرافعي ولاشك هو الذي دفعه إلى ابداع هذا اللون هذا الحب الذى امتد حياته كلها . الحب الذي عرفه بعد أن فات الشباب وتزوج وأنشأ الأسرة ، فكان له في نفسه هزَّة باهرة ، لم يجد السبيل إلى التفتيش عنها إلا بكتابة هذا اللون من الرسائل الموجهة إلى غير أحد .

وقد تأثر شاعرنا بغزل الرافعي ففي قصيدة له بعنوان « رسالة الابتسامة » يقول فيها[1] .

يدوم الحب على قلبه	كأنه في نفسه ينهدم
برجفة حاملها لم يزل	ممزقا في القلْب لا يلتئم
زلازل البركان لما دعت	أن سئمت بركانها المحتدم
أجابها الله ألطفي وارجفي	من شفتي محبوبة تبتسم .. ![2]

ونفس هذا المعنى قد ذكره شاعرنا في قصيدة « ابتسامة » يقول فيها :[3]

أسفر الصبح بالمحيا المنير	حاملا للهوى معازف نور
مرحا ترقص المفاتن فيه	فوْق طرْف مغرّد التعبير
وارتعاشات لحظة بالترانيم	أزاحت ستائر الدّيجور
لترينا أن الفتون الموشي	بابتسامة ، وطرْف مثير
يتهادى به الضياء ويختال	على دربنا لعمق الشعور

---

(١) رسائل الوْرد (مصطفى صادق الرافعي) ص ٨٥ .

(٢) رسائل الورد (مصطفى صادق الرافعى) ص ٨٥ .

(٣) نافذة على القمر (طاهر الزمخشري) ص ٨٥ .



الفصل السادس

الأخلاق - الاتجاه الإنسانى - المدح - الغزل

الرثاء - الروحانيات - الوطنيات



مفاهيم الأخلاق

تقوم النظرية الغربية على القول بأن مبادىء الأخلاق إن هي إلا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل في بنائها ، أو فضل في الايمان بها ، وتقول أن الأخلاق تختلف عن الدين ، إذ ليس من الضروري أن كل من يعتقد في دين معين أن يصبح أخلاقيا كما أنه ليس من الضروري أن يكون كل ملحد لا أخلاق له ، وأن الأخلاق هي استجابة النفس إلى الوسط ، فإذا تغير الوسط تغيرت الأخلاق . وهذا الوسط يتسع وينحصر باختلاف الزمان والمكان . وأن الأمم ليست بحاجة إلى الدين ، ولكنها بحاجة إلى الأخلاق ، فالأخلاق هي التي ترفع الأمم إلى مستوى الرقي وليس الدين . وأن أوربا لم تنهض إلا بالأخلاق وإنه يمكن الاستغناء عن الأديان اكتفاء بالضمير الإنساني الدافع إلى فعل الخير .

وهناك[1] ماتطرحه النظرية الماركسية من أن الأخلاق قبل السياسة والقانون تخضع للأحوال الاقتصادية والظروف المعيشية لكل مجتمع . ومجمل النظرية الغربية التي يطرحها المنهج العلمي الغربي أن الأخلاق نتاج للبيئة ، وأنها تختلف من شعب إلى شعب ومن حقبة إلى أخرى — ويبدو ومن مجمل النظرية أنها مادية الأساس . ولذلك فهي ليبيرالية وماركسية في وقت واحد .

ولا ريب أن الفكر الاسلامي لا يجد في هذه النظرية نفسه ولا حاجته ولا قيمه الأساسية . بل يجد فيها خلطا بين الأخلاق والتقاليد ، وبين الأصول التي جاءت بها الأديان السماوية والأعراف التي أقامها الناس .

ولا ريب أن الأخلاق ذات جذور من الدين لا تنفك عنه وهي أصْل قائم داخل اطاره يطبع كل التصرفات وأعمال السلوك ويطبع السياسة والاجتماع والتربية والسياسة بطابعه — وتقوم الأخلاق في الاسلام على أساس الالتزام . وفي نطاق المسئولية الفردية . والدين والأخلاق حقيقتان لا تنفصلان في الاسلام ، كما تتلازمان في جميع الأديان ، والقرآن الكريم أصل الأخلاق الاسلامية . وليس هناك

---

(١) أخطاء المنهج الغربي الوافد (أنور الجندى) ص ٣٨٠ .

انفصال بين النظرية والسلوك العملي ، والأخلاق في الاسلام منهج عملي غايته التعاون في الحياة واحترام القيم الانسانية ، وإذا كانت الأخلاق في نظر أرسطو وأفلاطون وأرسطاطاليس لا تخرج عن دائرة السعادة (التي هي راحة النفس وسرور الفرد) نراها في الاسلام تقوم على أساس التقوى والجمع بين الدنيا والآخرة وفي هذا المعنى يقول الله سبحانه « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين** » .

فالأخلاق الاسلامية هي أخلاق تقوى بكل ماتحمل من معان سلبية وايجابية أى تجنب الحرام ، والاقبال على الحلال .

ومن هذا المنطلق اختلفت الأخلاق الاسلامية عن الأخلاق المسيحية والأخلاق اليونانية والأخلاق المعاصرة على السواء ، فالمسلمون ينظرون إلى الأخلاق على أنها موضوع جدال أو نقاش . ولا على أنها جانب نظري من النشاط العقلي ، ذلك لأن الاسلام جعل من الأخلاق منهاجا عمليا غايته التعاون في الحياة ، واحترام القيم الإنسانية وحسن المعاملة ومبدأ الأخلاق الاسلامي يقو على أساس الإرادة والمسئولية والجزاء .

أما النظرية الأخلاقية المسيحية فقد انطلقت من فكرة الخطيئة التي تحول دون الالتزام والمسئولية ، وتجعل وجود الإنسان وتصرفاته خاضعتين لجبرية قسرية .

وإذا كان الأستاذ (أنور الجندى)[1] قد ذكر في كتابه فقال : « تقوم الأخلاق في الاسلام على أساس الالتزام . ذلك أنه لا أخلاق من غير حرية كما أنه لا تكليف من غير اخلاق .

ويستطرد قائلا : « إن الإرادة حركة نفسية داخلية لذلك يقرر الإسلام أن المكره إذا فعل مايكره عليه غاضبا غير راض كان له عذره ، وقد سمى الاسلام حرية الإرادة اختيارا ، وجعلها مناط التكليف . ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلقي متصفا بالطاعة صادرا عن إرادة طيبة في حب الخير والحق

---

(١) أخطاء المنهج الغربي (أنور الجندي) ص ٣٨٢ .
(٢) سورة القصص اية رقم ٧٧ .

والفضيلة .

وقد أوضحت الدكتورة عائشة عبد الرحمن[1] هذه الفكرة وضوحا جليا حينما ذكرت « أن حرية الإرادة ليست في الواقع إلا عنصرا جوهريا من كل لا يتجزأ هو الحرية الكاملة للانسان بمعنى حمله أمانته الصّعبة .

وإذا كان شرْط التكليف الاختيار — بنص عبارة ابن رشد[2] فكيف نتصور أنه يحتمل الإنسان الرشيد تبعة التكليف إذا فقد الاختيار الذي هو شرطه ؟ ..

وقد ربط الاسلام بين الدين والأخلاق ، وجعل الإيمان بالله وعاء الأخلاق وفرق بين الأخلاق والتقاليد ، فالأخلاق ثابته ومتصله بالقيم العليا لأنها من صنع الله — أما التقاليد فهي وسائل عارضة تختلف وتتغير مع تغير الزمان لأنها من صنع الناس .

ولا ريب أن فكرة الالتزام الخلقى هى العنصر الأساسى أو المحور الذي تدور حوْله القيم الأخلاقية .. « فإذا زالت فكرة الالزام قضى جوهر الحكمة العقلية والعملية التي تهدف الأخلاق إلى تحقيقها . فإذا انعدم الإلزام انعدمت المسئولية . وإذا انعدمت المسئولية ضاع كل أمل في وضع الحق في نصابه وإقامة العدالة .

يتضح مما سبق أن فكرة المنهج العلمي الغربي الوافد في الدعوة إلى أخلاق بلا إلزام ولا جزاء عملا نظريا محضا لا يؤدى إلى تحقيق غاية ما .



(١) القرآن وقضايا الانسان د. عائشة عبد الرحمن ص ١٢٥ .

(٢) فصل المقال لابن رشد .

الأخلاق في الاسـلام :

للاسلام شعب تكليفية اعتبرت منه الأساس الأول ، ليكون المرء مسْلماً عند الله وهي شعبة العقيدة ، شعبة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوْم الآخر ، وشعبة العبادات والتقرب إلى الله وهي الأثر للصدق في الشعبة الأولى ، وفي الوقت نفسه غذاء يقويها وينميها وشعبة النظم التي تساس بها الحياة ، وتجيء المعاملات على مقتضاها وفق ميزان العدل والحكمة .

وهناك شعب أخرى إرشادية توجيهية نذكر منها شعبة علاقة الإنسان بالحياة ومافيها من نعيم . وشعبة الكون أمام الإنسان .

وقد أباح الاسلام للانسان في علاقته بالحياة ، أن يمتع نفسه بكل نعمة من نعمها على وجه لا يخرجه عن حد القصدْ والاعتدال : « **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق** .»[1].

وبشعبة الكوْن أمام الانسان أشعره بالعبارة الجلية الواضحة أنه بسط الكوْن أمامه ، وسخره له ليعمل فيه ويكافح ، وكان من ذلك قوْله تعالى : « **هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعا** » وفي هذا السبيل سخر له الشمس والقمر ، والليل والنهار والبحار والأنهار ، والأرض والجبال وسخر له كل مافي الكوْن ووجهه إلى بحثه والنظر فيه واستخراج أسراره . وليس من شك في أن قوام الإنتفاع بهاتين الشعبتين وقوام الصدق في شعب العقيدة والعبادة والنظم ، إنّما هو التمسك بشعبة أخرى هي « شعبة الأخلاق » .

لقد دل تاريخ الرسالات الإلهية في جميع مراحلها على أن السعادة التي جعلت[2] هذه الشعب سبيلا إليها لابد من الحصول عليها من حسن الخلق ، وأن الإيمان الذي يرجع فقط إلى مجرد العلم بوحدانية الله ، والعبادة التي ترجع فقط إلى الصور والأشكال ، وأن النظم التي ترجع فقط إلى مواد القوانين والفقه المحفوظ في الصدور وأن المتعة بالحياة التي ترجع فقط إلى إصابة لذائذها ، وأن نظرة الإنسان إلى الكون التي ترجع فقط إلى مظاهره العامّة ــ دل تاريخ تلك الرسالات

---

(١) سورة الأعراف آية ٣٢ .

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة للامام محمد شلتوت ص ٤٦٣ .

وإرشاداتها على أن انقطاع هذه الشعب في جوهرها عن شعبة الأخلاق هكذا أو انقطاع شعبة الأخلاق عنها مما يهدم في النفوس ، وفي الحياة الأثر الذي ترتبه الحكمة الإلهية في الإنسان على التكليف بهذه الشعب والإرشاد إلى التمسك بها .

وليس الخلق المطلوب في صوْن هذه الشعب التي يرجع إليها الدين عند الله مجرّد أن يعْرف أن الصّدق فضيلة والكذب رذيلة وأن الإخلاص سمو ، والمكر والخداع انحطاط ولا مجرد الحديث فيما بين الناس عن ذلك وأن الناس تخلوا عن الأخلاق الفاضلة وإنما الخلق هو انفعال النفس وتأثرها بما ينبغي أن يكون فيعقل ، وبما لا ينبغي أن يكون فيترك ـــ والخلق بهذا المعنى هو الصمام لهذه الشعب وهو المعتصم الذي يتمسك به من أراد أن يكون « مسلما حقا » والعقيدة وما أليها دون خلق شجرة لا ظل لها ولا ثمرة والخلق دون عقيدة ظل لشبح غير مستقر .

ومن هنا كانت عناية[1] الاسلام بالخلق عناية تفوق كل عناية ولقد وصلت هذه العناية عند رسول الله ﷺ إلى أن جعل الخلق متعلق برسالته « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وقد كثرت توصيات الرسول ﷺ حتى قال : « أثقل مايوضع في الميزان يوم القيامة ، تقوى الله وحسن الخلق » وحتى جاءه رجل ذات مرة ووقف بين يديه وسأله : « ماالدين يارسول الله ؟ فقال : حسن الخلق ـــ فجاءه من قبل يمينه وسأله السؤال نفسه وكان الجواب : حسن الخلق ، ثم جاءه من الشمال ومن الخلف ، وسأله السؤال وكان الجواب هو الجواب » .

وما أشد وقع حكم الرسول ﷺ التي قيل له فيها : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق ، تؤذي جيرانها بلسانها فقال : لا خير فيها هي من أهل النار . ما أشد وقع هذا الحكم على هؤلاء الذين وقفوا من الدين عند الهمهمة بالتسبيح ، وكثرة التحدث عن الفضيلة وصور العبادات وأشكالها ، ثم كانت نفوسهم منطوية إلا على الغش والمكر والخداع والملق والنفاق يدبرون السوء ، ويفسدون مابين الناس من روابط ، مستعينين بتشويه الحقائق ودسّ الأكاذيب ،

---

(١) الاسلام عقيدة وشريعة للامام الأكبر محمود شلتوت ص ٤٦٤ .

والعمل على كل مايقوّض دَعائم الحياة الطَّيبة الفاضلة هؤلاء في واقعهـم ، ليسوا من التدين في شيء ، وأن الله سبحانه لم يجعل الإيمان به أساس دينه ولم يجعـل العبـادات أركانـا له إلا لما تحدثـه من أثـر طيب في النفـوس ، يكـون عنصرا لتكويـن الخلـق الفاضل يقول الله سبحانه « **قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ومالم ينـزل به سلطانـا ، وأن تقولـوا على الله مالا تعلمون** »[1]

صلاح الظاهر من صلاح الباطن :

وفي ظل هذه الشعبة ، شعبة الأخلاق ، يكون الربانيـون والشهـداء والصالحون وفي ظلها يكون الأئمـة والهداة والمرشدون . وفيظلهـا تطهـر النـفس الانسانيـة من الحقد والحسد والنفاق والجبن والكذب والخيانة وما إلى ذلك من الأخـلاق السيئـة التي كثيرا ماأفسدت على الناس حياتهم ، وتـوارت في ظلـمتها القـاتمة وسائـل الخير والصلاح .

إن اصلاح الباطن[2] أساس لكل اصلاح ظاهرى ، ولا بقـاء لاصلاح خارجـى إلا إذا تركز وكان نتيجة وأثـرا للاصلاح الباطنـي . وشعبـة الأخـلاق هي الكفيلـة بالاصلاح الباطني ، وهي الشجرة الطيبة التي ثبت أصلها ، وبسق فرعها ، وطاب ثمرها .

ولعل قوْل الرسول ﷺ « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القـلْب » ومـن أقـوى العبـارات المأثـورة في تقريـر القضيـة الطبيعيـة ، قضيـة الضمير وهـي « صلاح الظاهـر نتيجـــة لصلاح الباطن » .

وقد ذكر الإمام أبو حامـد الغـزالي في كتابـه « احيـاء علـوم الديـن » أن هنـاك شواهـد من أربـاب البصائـر على أن الطريـق في معـالجة أمـــراض القـــلْب « ترك الشهوات » .

---

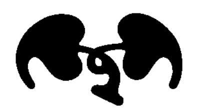
(١) سورة الأعراف الآية رقم ٣٣ .

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة للامام الأكبر محمود شلتوت ص ٤٦٦ .

« قال يحيى بن معاذ الرازي : جاهد نفسك بأسياف الرياضة ، والرياضة على أربعة أوجه : القوت من الطعام ، والغمض من المنام ، والحاجة من الكلام وحمل الأذى من جميع الأنام فيتولد من قلة الطعام موت الشهوات ومن قلة المنام صفو الإرادات ، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات ، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات[١] .

وليس على العبد[٢] شيء أشد من الحلم عند الجفاء والصَّبر على الأذى وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام وهاجت منها حلاوة فضول الكلام جردت سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام ، وضربتها بأيدي الخمولة وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام وتصفيها من ظلمة شهواتها فتنجو من غوائل آفاتها ، فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية فتجول في ميدان الخيرات وتسير في مسالك الطاعات كالفرس الفارة في الميدان ـ وقال أيضا : أعداء الانسان ثلاثة : دنياه وشيطانه ونفسه ، فاحترس من الدنيا بالزهد فيها ومن الشيطان بمخالفته ومن النفس بترك الشهوات .

إذن فالإمام الغزالي كان من الرواد الأوائل الذي روضوا نفوسهم للمجاهدة حتى وصلت إلى الله وبعد ذلك اكتسبت الفيض الرباني من العلم والفضل والخلق الكريم ولا يتم ذلك إلا بتطهير القلْب من الشهوات ، إذن فقضية صلاح الظاهر من صلاح الباطن مستمدة من الشرع الحكيم ومن قوْل الرسول ﷺ : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .



---

(١) إحياء علوم الدين الجزء الثالث للغزالي ص ٦٦ .

(٢) إحياء علوم الدين للامام الغزالي الجزء الثالث ص ٦٦ .

الاتجـاه الإنســاني

من القضايا[١] التي يثيرها النقاد كثيرا قضية الأدب والحياة الإجتماعية ، والذي لاشك فيه أن الأديب لا يكتب أدبه لنفسه ، وإنما يكتبه لمجتمعه ، لأن من صفة الأديب أن يكون على وعى كامل بكل قضايا مجتمعه وأحداثه ومشاكله .

والمجتمع السليم هو الذي تتضامن وحداته في حياته ، فيكون لكل وحدة دورها في كيانه ووجوده وتكاليفه وواجباته ، ولا يوجد الأدباء في الأمة عبثا ، فهم لها هداة الطريق وهم مرآتها الصافية النقية التي ينبغي أن تصور آلامها وآمالها ومواقفها وكل ماحلمت به في الماضي وتحلم به في الحاضر — وإن الأديب من أمته ولها يذيع أفكارها ومشاعرها وكل ماهزها وأثر فيها من أحداث ظاهرة أو باطنة .

نقد المجتمع : لعل من الأسباب التي تجعل الأدب في خدمة الحياة والمجتمع هو ملاحظة الشعراء مشاكل المجْتمع ومايطرأ عليه من هموم كاشفين وناقدين حينا أو داعين إلى الفضيلة أو منفّرين من الرذيلة ولكل شاعر له طريقته في هذا الموضوع .

لهذا نجد الشاعر « طاهر الزمخشري » يكشف عن معادن الناس في بعض قصائده وفهم نقس الجوهر والمزيف وهذا يرجع إلى احتكاكه بالمجتمع الذي يعيش فيه يقول الشاعر :[٢]

إذا المرء قد غابت عليك أصوله
فأعماله أقوى دليل يعرف
لأنا رأينا معدن الناس واحدا
وفيهم نقى جوْهرا ومزيفً
فإن أنت لما طيف الأصيل مودة
نعمت بود صفوه ليس يوصف
وأما خسيس الأصل بلقاك باسما
وتنأى فيغدو في فرائك ينسف

(١) في النقد الأدبي د. شوقي ضيف ص ١٩١ .
(٢) ديوان عودة الغريب للشاعر طاهر الزمخشري ص ٦٣ .

ومن ناحية أخرى يدعو الشاعر طاهر الزمخشري إلى عمل الفضيلة وهي فعل المعروف دون أن ينتظر الإنسان جزاء من أحد وهذا هو سر الاخلاص في العمل ــ ومن جهة أخرى ينفر من الزهو والخيلاء للانسان الذي يفعل المعروف يقول الشاعر :[1]

الناس أنت فإن تحسن تجد سندا
مما صنعت وإن لاقيت نكرانا
فأنت كالغيث إن نالته مخصبة
ريت وأعطت من الخيرات ألوانا
ولا يُضيرك إن أسديت مكرمة
فلم تلاق لما أسديت عرفانا
فالشر أن تصنع المعروف مفتخرا
تْروى الأحاديث مزْهوًّاً ومنَّاناً

مما تقدم نستطيع أن نقول إن الشاعر (طاهر الزَّمخشري) قد جعل أدبه لخدمة المجتمع الذي يعيش فيه والمعبر عنه وعن أحاسيسه ومشاكله .

ومن جهة أخرى يلجأ الشاعر إلى التمسك بخلق كريم وهو الصّبر ومن هذا المنطلق نؤيد رأى الدكتور (عمر الطيب الساسى) حينما قال عنه « إن لطاهر الزمخشري فلسفة خاصة يمكن استخلاصها من شعره ، وأنه لا سبيل للفنان في هذه الحياة إلا أن ينتصر على أحزانها وآلامها ومآسيها لذلك دعا الشاعر إلى التحلي بخلق الصّبر يقول شاعرنا[2] :

إذا هتفت بيض الأماني بهمتي   فإن جميل الصّبر أقوى مضاربي
وأجتاز آماد الحياة بعْزمة   تنال مع الأيام أحلى الرغائب
وكف القضاء السمح يمتد فيضها   بعوْن يريني غايتي ومذاهبي
فإن أرهفت سود الخطوب نصالها   تهاوت تجدَّ الصَّبر من كل جانب

---

(١) ديوان عودة الغريب للشاعر (طاهر الزمخشري) ص ٦٢ .

(٢) نفسه ص ٥٩ .

وينطلق الشّاعر من منْطلق آخر في قضية إجتماعية تهم المجتمع وهي نصرة المظلوم والمكلوم ، ولاشك أنه بذلك الإتجاه يعالج قضايا المجتمع وآماله وآلامه ، والأديب كما قيل « هو الذي يبكى الحياة وهو يبكيها[1] ويحاول القضاء على العادات الإجتماعية السيئة ، ويسدّ الخلل في حياة الناس يقول شاعرنا في قصيدة « ثمرة التآخي »[2]

مارمينا بغير أمر العليم	ماانتصرنا بغير عوْن الكريم
نوّر الدرب هَدْيه فانْطلقنا	في طريق مُمهّد مُستقيم
واقتربنا من النهاية منه	بالتآخي لنصرة المظلوم
وجمعنا شتاتنا ذات يوم	باهر الوجه بالسّنا للحضوم
واندفعنا نخوضها باعتزاز	ورجعنا بنصرنا المحتوم
لا بحوْل منا ولكن بوعْد	من نصير المظلوم والمكلوم
كل نسْر يطير به العزم	على رفرف من التصميم
يتخطى الأبعاد في مسبح الجون	ويجتاز سابحات النجوم
وهو في أفقه المجلّى شهاب	قد رمى من فلولهم بالرجوم
غشيتهم صواعق مزقتهم	وتلهى شواظها بالحلوم
لا يرون الطريق للقصد إلا	في عثار يقودهم للجحيم
وضربنا الأعناق منهم وكانت	موثقات بذلها المستديم
ومن اللعنة التي طاردتهم	وكبلتهم فداحة التحطيم
وضمير الإنسان يصرخ فيهم	أن أصيخوا للسّلم بالتسليم

لقد تناول موضوع الأخلاق عند الأدباء طرائق شتى فنجد شاعرنا (طاهر الزمخشري) فيه كرم الشمائل وصفاء النفس الإنسانية والرضا وكل هذه الخصال يتمثلها شاعرنا لكي تكون موضع نظر واهتمام للمجتمع ولاشك أن هذه دعوة إيجابية إلى التمسك بالأخلاق يقول شاعرنا :[3]

---

(١) تيارات أدبية بين الشرق والغرب د. ابراهيم سلامة ص ٣٣٨ .

(٢) ديوان الشراع الرفاف (طاهر الزمخشري) ص ٤٥ .

(٣) على الضفاف (طاهر الزمخشري) ص ٢٢ ، ٢٣ .

أريـــد حيـــــاتــــه ويريـــــد قتلي   على أنّـــى النبيـــل بما أريـــــــد
سامنحـــه الوفـــاء على جحــود   لأني بالسمــــــــــــاح به أسود
وأكرمــــه وأغمـــــره بعطفـــــــى   وإن أبــــدى الاساءة استزيـــــد

* * *

وحسبي أننى أرضـــيت نفسي   بما ينبـــــي به المجد التليـــــــد
صفـــاء في أشعتـــه هنـــــــاء   يصفّق من بشاشته الوجــــود
وبـــيض شمـــائــل ونقـــاد ودٍّ   توشى صفوه الضاحى الــورود

* * *

أطـــوف بها على الأيـــام جذْلى   وآمـــالى العـــذاب بها بنـــود
وأضحك لا تلين قنـــاة عزمـــي   متى شهدت مضاربها الكنـــود
وحسبـــي أن لى من الله عوْنـــا   ولى من فيضه الهامــــــى برود

* * *

سيبرد بالـــرضا أغـــوار نفسي   رواء من دوافعـــــه السعـــود
أحسّ به رخـــاء في حيـــاتب   أنـــا في ظل وارفــــه سعيـــد
وأرنـو للحــوادث وهـــي ثكلى   تئـــــــن وفي ضراوتها لحود

* * *

تضم من الضغائـــن ماتلظـــــى   وتطـــوى ماتؤججـــه الحقـــود
وتـــردى كل من يبغـــي بسوء   وفي أعماقـــه ضغـــن عتيـــد
وحسبـــي أننـــى آبى سفـــالا   متى أذكى مساعـــره الكنـــود
أهش له ليرجـــع وهـــو أعش   تضيــــــق به المسالك والحدود
وتـــأكل في جوانبــــه هموم   متـــى فنـيت بما يلقـــى تعـــود
فيعـــبس للأمـــانى إن تراءت   ويضحك للدواهي وهـــى سود
ومـــن حاك الاساءة بالدنايـــا .   شبـــــاكا في مخالبها يرود[1]
تطوف به كؤوس البغي صرْفـــا   وعلقمهـــا لمن ينعـــي مبيـــد

---

(١) ديوان على الضفاف للشاعر (طاهر الزمخشري) ص ٢٣ .

ونلاحظ في هذين البيتين أن شاعرنا قد اقتبس المعنى من القرآن الكريم يقول سبحانه « **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا** » .

وهذا اقتباس جميل عرضه الشاعر في شعره ليربط جانب الأخلاق بالدين .

ومن ناحية أخرى نرى الشاعر يعرض في بعض قصائده « قماقم السوء » وهم الكذابون والمخادعون وأن مثل هؤلاء شر ووباء في المجتمع ويجب الاحتراس منهم لأنهم يعملون في الظلام ويظنون أن الدسّ وسيلة من وسائل النجاح يقول شاعرنا :[1]

هاجه الغيظ فاستشاط وثارا ... واكتوى بالقذى فالهب نارا
وارتمى في سعيره يتلظى ... بعد أن ذاق في الحياة العثارا
إن عوى فالهراء رجع صداه ... أو نوى فالسحيق كان القرارا
والأشلاء مزقتها الليالي ... ليس ترضى إلا المفاتن دارا ؟
مالحوباء حوصرت في حقود ... تنفث الدَّاء كي تفك الحصارا ؟
ومناكير في سراديب خالوا ... مطلع الشمس يبهر الأبصارا ؟
فتعاموا عن الضياء وأنى ... لعم أن يلامس الأنوارا ؟
ليس للكاذب المخادع إلا ... لطخة العاركي يزيد تيارا
وهُراء النعام رعد وبرق ... لسراب ولا يطيق انهمارا
قمقم السوء ناضح بوباء ... وصقال الفرند يسطو جهارا
زاعم ينسج الحبائل وهما ... والضحى سافر فاكدى وخارا
واختفى في خبائه فتردى ... إذ له الويل لو أزاح الستارا

---

(١) ديوان أنفاس الربيع (طاهر الزمخشري) ص ٥٩ .

المدح عند الشاعر :

منذ تنفس الانسان على هذه الأرض ، ووعى ذاته ، وماحوْله ، وأحسّ بالفوارق المختلفة بينه وبيْن الآخرين ، وشعر باختلاف مواهبه عن مواهب سواه ، وقدره عن أقدار غيره ، ولد المديح ، وخلق الثناء . وسواء أكان نابعا من قرارة نفس المادح ، أم كان وسيلة زلفى إلى من شعر أنهم يفوقونه قوة ، أو مالا ، أو مزايا خلقية .

وماكان العرب بدعا بين الأمم ، ولا خلقا متفردا عن جميع الناس ولقد ساهموا في هذا الثناء ، وخاضوا ميدان اكبار المتفوقين ، وورثة الخلف عن السّلف ، واتصلت حلقات السلسلة دون انقطاع ، غير مقتصرة على قطر دون قطر ، وعصر دون عصر .

ولربما[1] كان ديوان المديح أكبر دواوين الشعراء وأضخمها أو قد يعدل كثرة ماقيل في الغزل والنسيب . وإن نظرة سريعة إلى ماخلّف لنا الآباء والأجداد من أشعار توقفنا على هذه الحقيقة ، وتطلعنا على التراث الضخم الهائل في فن المديح بشكل خاص . ولا شك في أن هذه الكمية من الثناء تلفت النظر ، وتسترعى الاهتمام .

وليس أبناء الجزيرة العربية إلا سلالة أولئك الآباء المدّاحين ، فلا غرو أن يرثوا من أسلافهم الأقربين والأبعدين حبّ مديح الآخرين ، والثناء عليهم والاعتراف بأفضالهم ومآثرهم . و عجب بعْد هذا إذا تصفحنا مانظمه شاعرنا في هذا الميدان فهو يمدح صاحب السمو الملكي الأمير (فيصل بن فهد) بمناسبة زيارته لتونس يقول :[2]

ياابن من صاغ للمحبة عهْدا	صان ميثاقه الصدق والوفاء
ياابن من ضاء في المحافل نبراسا	بشوش الأقوال والآراء
ياابن من لا يزال في الدرب	رأدا سعيه واسع الخطى للعلاء
والمجلى الذي به المجد عنى	فسرى في الحياة رجع الغناء

(١) الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية د. بكري شيخ أمين ص ٢٤٠ .

(٢) ديوان عبير الذكريات (لطاهر الزمخشري) ص ٢٦ ، ٢٧ .

وهـو « الفهـد » عزم يدفـع الـركب ويسمو بجهده البنـاء
أنت فرع له وأكـرم بفـرع عطـره فاح زاكيـا بالعطـاء
فيصل أنت جده أكـرم الفكـر وأعطـاه شحنـة للنمـاء
ونهاك الـذي يخطـط للفـن ليبقـى مغـرّد الأصْـداء
وقـد تفـوقت بالحصافـة في الرأى ونضج مشبـع بالـذكاء
وتحلـيت بالمكـارم تزهـو بنداهـا وشيمـة الآباء
ياسليـل الأبـاة فيك الـذي فيهم وسر الآباء في الأبنـاء

* * *

قد تحديت المعـاني الـذي فيك فقـدت الشبـاب للعليـاء
القـوى فيهم تبـارك شأوا أنت أعليـه بعـزم مضاء
فإذا نحن في الجزيرة نشدو بالـذي قاد جحفـل الأقويـاء
فهـم في النـدى والبر والبحـر وفـوق الـذى وتحت الماء
مابأجسامهـم تبـاهـوا ولكـن بعقـول وأنفس نقـاء
فإذا صحت العقـول فإن الجسم رهـن بصحـة الأهـواء[1]

وينتقل شاعرنا إلى لوْن آخر من ألوان المديح وعنوان القصيدة « الـود الصافي » الذي يعبر فيها عن المودة والوفاء للأصْدقاء يقول شاعرنا[2] :

عشت ياابـن العمران للود رمـزا مالـه في وفائـه من نظير
تمنـح الحب للجميـع فيشدو بالسجايا الصغير قبـل الكـبير
وصدى مايـبث من أغنيـات بسمـات رفافـة في الثغـور
أنت عاطـيتها المودة صِرْفـا فانـتشى الحب في حنايـا الصدور
وصفـاء الـوداد بالألفـة الحلـوة ميثاقـه بعمـق الشعـور
فإذا فاضت المشاعـر بالاخـلاص أدّت فرائـض التقـديـر
للـذي دام فرحـة تجمع الشمـل برأى المحنـك المستـنير

---

(١) ديوان عبير الذكريات للشاعر (طاهر الزمخشري) ص ٢٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣١ .

وخصال بها تفوق حتى صار نبراسها بكل الأمور

يتحاشى الإيذاء ، يدفع بالإحسان يعفو عن زلة التقصير

للمسئين من عطاياه صفح ولهم من نداءه عفو القدير

ونلاحظ في الأبيات السابقة أن شاعرنا يصف ممدوحه بصفات عالية نابعة من مكارم الأخلاق وهي صفات الصفح والعفو عن المسيء ولاشك أن ذلك نابع من أخلاق الاسلام ورسول الاسلام ثم يستطرد قائلا :[1]

لا يرائى ولا يمن بخير فاض من كفه على المستجير

فلقد مدّ بالمكارم ظلا الرضا فيه مزهو للسرور

وروابح الخضراء تشهد أنا ماشدوْنا بغير لحن الشكور

للذى ضمنا إليه أخلاء وفاضت آلاؤه كالنمير

فارتوى كل خافق من يمين الأماني بها خميل زهور

وبأنفاسها الجوانح تشدو لوفاء وماله من نظير

لابن عمر أن من به المحب غنى وله الحب رائع التصوير

ونرى في قصيدة أخْرى للشّاعر يمْدح فيها الأستاذ الفاضل (محمد عبده يماني) تحية اعجاب بوفائه يقول شاعرنا :

التحيات من فؤادى العانى للذى أخْرس الشجا في كيانى

من ينمى في الناس عاطفة الحب ويروى شعورنا بالحنان

قد حباني بالعطف منه وواسى من جراحى وفك قيد لسانى

فإذا بى أصوغ خالص شكرى من فؤاد مغرّد بامتنان

للذى ضمّد الجراح بكف بسطتها مكارم الرحمن

لك يامن لك الجوانح تدعو ويعيد الأصْداء صوْت الأذان

ألف ذكرى تحركت في حنايا ملأتها الأيام بالأحزان

أنت حركتها بلطفك فاسلم يامعيد الذكرى إلى الأذهان

---

(١) ديوان عبير الذكريات (طاهر الزمخشري) ص ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٨ .

الغزل عند طاهر الزمخشري

ومن البديهي أن شعراء الحجاز المعاصرون قد أولوا شعر الوجدان والعاطفة عناية تكاد تقف بهم في صفوف نظرائهم من شعراء العربية المعاصرين ، وبخاصة شعراء مدرسة « أبولو » ولقد كان شاعرنا « طاهر الزمخشري » رائد هذا الفن واشتهر به شهرة فائقة ، وغلب هذا اللون على كثير من دواوينه الشعرية ففي ديوانه « عبير الذكريات » اشتمل على خمسة أقسام جعل لكل قسم منها عنوانا يعبر عن عاطفة ، فالقسم الأول بعنوان « أغاريد الوفاء » والقسم الثاني « عبير الذكريات » والقسم الثالث « الرسائل المطوية » والقسم الرابع من النافذة » والقسم الخامس « من رباعياتي » وسنحاول أن نعطي ضوءا على تلك القصائد الشعرية .

وفي قصيدة لشاعرنا (طاهر الزمخشري) بعنوان « ذكرياتي نجده يتحدث عن الشوق الذي في حناياه والهوى والسهاد الذي يجول بفكره ويقول إن عمر الإنسان يظل شبابا طالما كان مولعا بالحب والغرام يقول طاهر الزمخشري :[1]

ذكرياتي على الصدى من أنيني ... أشعلت في الدماء نار شجوني
ورؤاها التي طويت بأمسي ... نشرتها الآلام بين جفوني
خلت أني أسلمتها للتناسي ... مذ توارت وراء سواد الدجون
وتلاشت كتائبا من ضباب ... فأراحت هواجس ظنوني
وعلى حرْف ناظرى أخيلات ... ناغمت في الظلام همس الكون
فصحا الشوق في الحنايا وألقى ... بفؤادى للاعج مستكين
هو أني الذي قبرت بنفسي ... عدت أهفو له بفرط حنيني
والسُّهاد الذي يجول بفكري ... عاد بي للوراء عبر السنين
فإذا بي أسوح من طيوف ... عن شمالي تراقصت ويميني
يرجع الطرف إن رآها ... وهو يقفو دقات قلبي الحزين
سامري لم يعد يجنح الليالي ... غير أشباح وحشة تحتويني

---

(١) عبير الذكريات (طاهر الزمخشري) ص ٦١ .

إلى أن يقول :

إن عمـــر الفتـــى يدوم شبابـــا طالما كان مولعـــا بالفتـــون

وفي قصيـدة للشاعـر « أحمد رامـي » نجد شاعرنـا قد تأثـر به ونـــرى في تلك القصيدة العاطفة المؤثرة من ذلك في قوله[١] :

يا صورة الغـابـر الدفيـــن أيقـظت مانـام من شجـونى
أوشكت أنسى الـــذي تولى فجئتنـــى اليـــوم تذكرينـــي
أريتنيـــه وقـــد تبـــدى لناظـــرى واضح الجبيـــن
أكاد أصغـــــى الى صداه يرن في قلبـــي الحزيـــن
إذا غاب عن عيـــــوني بكت على بعـــده عيـــوني
وإن أردت البعـــاد عنـــه أصبـــحت أدنى إلى الجنـــون
أقـــول من ياتـــرى روىّ يشرب حسن الحبـــيب دونى
وأى أذن إليـــه تصغـــي تلقـــط من دره الثـــمين

ونجد عاطفة الشاعر هنا وقادة في هذا البيت حيث يقول :[٢]

آفـــــاق الحب في فؤادى تغلغـــل الماء في الـــغصون
وأرسل الحسن في نسيبـــى من نوره الـــواضح المبين
فجـــاء أحْلى من الأمـــاني بسمـــة لليـــائس الغبيـــن

ونرى في قصيدة أخرى للشاعر (طاهر الزمخشري) بعنـوان « وحـدى » وفيها يعبر عما يدور في خلجات نفسه وبما يدور في خاطره وهـذه ناحيـة رومانسيـة لجأ إليها الشاعر في نهج قصائده الشعرية يقول شاعرنا[٣] :

وحـدى أطـارد بالنسيـان أوهامـى والسهد يطرد من عينـي أحلامـى

---

(١) ديوان شعر (أحمد رامى) ص ٤٩ .

(٢) ديوان شعر (أحمد رامي) ص ٥٠ .

(٣) عبير الزكريات للشاعر طاهر الزمخشري ص ٩٢ .

وحدى وحـوْلى رؤى لم تحص عدتها خواطري وقراطـيسى وأقــلامــى
رمت بها للـبلى يمحــو معالمهـا كف القضاء التي جادت باكـرام
ومـن مكارمهـا راح الغنـاء بها وبين طيـاتها أطيـاف أعـوام
وكل عام توارى خلـف نائبـة كانت تحاول بالإرهـاق ارغامـى
نسيتها لم أعـد أهفـو لرؤيتها شفـاء دائى نسيـاني لآلامـى

* * *

فالجرح في كبدي يغفـو على ثبج من اللهيب الـذي أذكتـه أوهامى
وبالصمود الذي في الصدر مركبة شرعهـا خفقـة تسرى بأنغامـى
بها أرود دروب العيش في كنـف من الظـلام الـذي قد حدّا قدامى
وماأكتفي بل آثار اليـأس يعصف بى لما تمطـى الأسى في قلبـي الدّامـى

* * *

وماشكوت حياة كلمـا انتقصت بها المآسي روت خفـاق الظامـي
فعاد يصدح والأصْداء من شجنى كم أسعفت خفقـة الشادى بالهام
وأرسل الطرف مبهورا وأرجفـه والتيـه يمتـد من خلفـي وقدامـى
أمشى وإن الخطـى تمشى على حسك قد أخرْس الوخز منه وقع أقدمـي

* * *

تحيط بي عثرات كلمـا زحـفت زادت موجعهـا من وخـز وايـلام
والعـزم منـي لم يظفـر بغايتـه وكيـف يظفـر موثـوق باحجـام
من الحيـاة بدينا كلمـا رحـبت ضاقت مسالكهـا في عين مقـدام

* * *

ومـاتبرمت حسبي أنى لى كبـدا يهدهـد الجرح فيها ثغـر بسام
يعطي ويأخـذ من أيـام نعمـا وبـعض أفضالها تغريـد رنـام
كم يسكب من أناتـه نغمـا طافت بأصدائـه أنفـاس أنسام

* * *

لقد اشتهر (طاهر الزمخشري) بفن الغزل شهر فائقة ، وغلب هذا اللون من الفن على كثير من دواوينه الشعرية ففي ديوانه « معازف الأشجان » يقول : « مازلت بها .. ولها أغني بعد أن عادت بناء حطام قيثارتي .. وإني أحملها بالأمل المتجدد في نفسي دائما .. ويجعلني أعيش الحياة بالأمل .. الذي يعرف كيف يعطي البسمة المغردة دائما . ولاشك أن شاعرنا كانت له موهبة فطرية ساعدته على ولوج فن الشعر وقد تأثر بالشاعر « ابراهيم ناجى » الذي اشتهر بالغزل وغلبت طبيعة الغزل على شعره وفي حديثه عن الحب يقول : « الحب أن يسلم شخص تماما نفسه للآخر ، وأن يتنازل له عما يملك ومايعتقد فلا يرى إلا بعينه ، ولا يسمع إلا بأذنه أى أن تصير واحدا في الأثنين بحيث لا يعرف ، هل أنت ؟ أم أنت الآخر ، وفي قصيدة الشاعر « الجمال المحجب » يملك الحب عليه مسلك ويكون كاللهيب يقول :[1]

تسائلني ماذا لقيت من الهوى	فقلت عذابا وهو عندى محبب
أحِنُّ إليه إن نأديت وإنني	لأهفو وأما إن تدانيت أرهب
ومن حرّه بين الضلوع لوافح	عليها فؤاد خافق يتوثب
لأن الهوى نار أحب لهيبها	ومنها لها رغم احتراقي اهرب
إذا الليل أضواه تهيم به الرؤى	وقام به للحسن ملهى وملعب
وإن رق ملتاعا تلظى به الجوى	فما هو بالشاكي ولا هو يعتب
ويرضى عذابا لا يريد بديله	لأن عذاب الحب للقلب مطلب
وقالت : وهل يحلو ببعدى لك الهوى	فقلت : وإن الحب بالبعد أعذب
أراك خيالا كلما الشوق هزني	ويذكى الجوى فيّ الجمال المحجب
وإنك في سمعي نشيد وفي دمي	لهيب وفي عيني لشمسك معزب

يقول ابراهيم ناجى الشاعر :

وإذا حلّ الهوى	هيهات تدرى كيف كان
فإذا مامــلك الأنفس	أصلاها عسوانا
فهو نصل مستقر	ولهيب لا يدانى

(١) ديوان (معازف الأشجان) ــ طاهر الزمخشرى ــ ص ٢٠٤ .

وفي قصيدة أخرى لجأ إلى أسلوب القسم لكي تعرف أنها الوحيدة وليس غيرها هي التي تسكن قلبه وهذا يدل على الاخلاص في الحب يقول في قصيدته « واحدة أنت »[1]

أقسم بالله ومرضـاتــــــه	ومـن سعــى الكــل لميقاتــه
يا أعـذب الحبّ الـذي شفّنـي	ولم أذف بعــــد لذاذاتـــــه
ماأنت إلا الهدى والمنــــــى	لخافـــق يشدو بدقاتـــــه
يعيش في القـــرب بأحلامــه	وأنت في البعـــد بطياتـــه
والحسن لو لا أنت ماشاقنـــي	وماتغـــــزلت برباتـــــه
فلا تقـــولى : تلك كانت له	صاحبـــه أو من حبيباتـــــه
واحــــدة أنت وشرع الهوى	يحب من أدى التزاماتـــــــه
والشرك في الحب حرام على	من أنت في الأعماق من ذاته
ليس لى غيرك من صبـــــوة	وأشهـــــد الله وآياتـــــــه

وفي قصيدة أخـرى تصور أن محبوبتـه روحـه ودواء جرحـه وبها يحيـا يقـول في قصيدته « سلمت روحى »

سلمت روحي التي تسأل عنى	هي فوق المشتهى ، فوق التمنى
امتزجنـــا بالهوى في وحــــدة	أنا منها وهي في الأعماق منى
هي روحـي وبها أحيا فهــــل	ياتـرى أرض بأن تفضل عنـى
فليقـــل ماشاء أن يعذلنـــــا	فكلانـا بالـــرضى راح يغنـــي
والمزامير فؤاد خافـــــــــق	يسكب الحب لقلْب المطمئن
كم شدا الــطير بنـــا في فنــن	وانبرى يقفـز من غصن لغصن
وهنـا يروى لأزهـــار الـــربى	عن هوى أعـذب من شدو المغني
عن هوى إلـفين ذابا شجنـــا	واستحـالا غفـــوة في كل أذن
كلمـــا صاخ إليها سامــــــع	صاح من غيرتـــه يالـــيت أنى
ليتنـــي أنعـــم بالحب الــذي	ليس إلا في خيـــال المتمنـــى

(١) ديوان معازف الأشجان (طاهر الزمخشري) ص ١٩٦ .

الرثاء عند طاهر الزمخشرى

مما لاشك فيه أن شاعرنا كان مرهف الحس لدرجة كبيرة وحينما نتصفح جميع أشعاره نجد فيها لونا من الحزن ـ ونظرا لما قد أصاب الشاعر من أحداث في حياته وأعظمها موت زوجته التي كان يعتبرها هي كل شيء في حياته تخفف عنه أعباء الحياة وآلامها ، ونظرا لما وجد عندها من الوفاء والاخلاص فقد تعسر عليه الأمر أن يجد مثيلا لها ـ ولذلك حينما نجد الشاعر يطرق هذا اللون من الفن الشعري نجده يرثي بحرارة فائقة ونراه يعتصر قلبه حين يرثي إنسانا يعز عليه كثيرا ويقول معبرا عن هذا المعنى في ديوانه « معازف الأشجان » الموت نهاية المتاعب ، وبداية للراحة الأبدية التي نترقبها وإننا بالدموع التى تنزف من الجراح نبكي على من وافاه الأجل ، ونعيش معه بالذكريات التي تبقى في أعماق نفوسنا »

ونراه يرثي المغفور له الملك فيصل رحمه الله برحمته الواسعة فيقول :[1]

فيصل العرب قد أناب مآبا	للذي قدَّر الممات كتابا
فيد الغدر لم تصبه ولكن	أجل بالمنون كشر نابا
ليرينا أن الفريسة شعب	قد أضاعت منه المنايا الصوابا
فإصابته لا يموت المفدى	بل لأن النداء لم يلق بابا
كلنا بالنداء نلقى المنايا	بأرواحنا نصدّ المصابا
والردّى مصْلت بكف قضاء	بمقاديره يحز الرقابا
سددّت سهمها المصيب فأردى	كل قلب من الفجيعة ذابا
جمد الدمع في العيون فسالت	من حنايا به تجود سحابا
لا بكاء كما تريد الرزايا	بل دعاء نعيده كي ثيابا
لا من الموت وهو يقبض نفسا	قد تزكت بما أتته احتسابا
آمنت بالذي يميت ويحى	وبايمانها استحقت ثوابا

(١) معازف الأشجان للشاعر طاهر الزمخشري ص ٤٢ ، ٤٣ .

ونلاحظ في آخر الأبيات أن الشاعر عنده نور الايمان واليقين لذلك فهو احتسب لقضاء الله وقدره وهي تعتبر روعة الإيمان حين يستعلي الإنسان على مصائب الحياة .

ويستطرد الشاعر في وصف مآثر الملك عبد العزيز (رحمه الله) فيقول عنه لقد كان فارسا مقداما وكان كريما في غاية الكرم حتى أن التراب يصير في يديه ذهبا وكان من صفاته أيضا أن روحه صافية وقد روى من حوْله من هذا الصفاء الجميل يقول شاعرنا :[1]

أى شأو يريد دون مراميه	فقد كان فارسا غلابا
ولقد أخصبت بيمناه أرض	وبه اليمن زادها اخْصابا
فإذا بالتراب ينضح تبرا	حاك منه براحتيه ثيابا
كل من في الحياة يلبس منها	برْدا لفّها السّنا خَلاّبا
وعلى الأرض وشيها قد ترامى	ناضرا ينشر الشذا مستطابا
ومن الحب كان يرى الحنايا	ومن الصفو يترع الأكوابا
كما سقانا من الصفاء فأروى	وهو أحلى ندى وأشهى شرابا

ويختم حديثه في الرثاء بالدعاء له بالرحمة والمغفرة فيقول :

أمة السلم والعروبة والاسلام	في يوم تعيد الحسابا
توجز القول إنه كان فذا	وله المجد قد تناهى انتسابا
فله رحمة الاله ظلالا	نتلاقى في فيئها أحبابا
بالإخاء الصّدوق في آل بيت	كلهم فيصل إذا الخطْب نابا

وينتقل الشاعر إلى رثاء زوج إبنته « سميرة » وهي تعتبر كبرى بناته وقد اعتصرها الألم والحزن يوم وفاة زوجها ، والشاعر هنا يرثي ابنته وفي قلبه حزن عميق يقول في قصيدته :

ياخضم الآلام زورق أيامي مغذ	وموغل في الذهاب
والشراع الرفاف كف الأماني	نسجته في مغزل من سراب

---

(١) ديوان معارف الأشجان (طاهر الزمخشري) ص ٤٤ — ٤٦ .
(٢) المصدر نفسه (طاهر الزمخشري) ص ٥٢ .

وبــه أقطــع الحيـــــاة بدرب طوقتـــــه مخاوفي بالصعـــــاب
والوجوم الـذي يكبـل احساسى يعيــد الخطــى على الأعقـــاب
يتحدى الأسى اصطبارى فأجثو في طريقـي ، وأحتمـى باكتئـــابي
والـقضاءُ المحتوم يَزْحـــف حَوْلى ليـــدس الهُمـــوم طى ثيـــابى

ويستطرد في حديثه عن القدر ويصفـه بأنـه قدر عاصف ويؤخـذ عليـه من هذا الوصف وكان الأولى به أن يستسلم لقضاء الله وقدره يقول الشاعر :[1]

قدر عاصف أصاب غراسا سوف تروى بدمعنـــــا المنساب
فإذا كنت يوم فقـــدك للـــه جل تذوبين تحت وقــــــع المصاب
سأبـــاريك بالشجـــا يترامـــــى بأنين .. ولوعـــة ، وانتحـــاب

إلى أن يقول إذا كان البكاء يعيد نفسا لساوم على عودتها بفيض السحـاب وبما يملك .

لو يعيد البكـاء نفســاً لساومت على عوده بفــيض السحـــــاب

وفي رثاء الشّاعر « أم كلثوم » بعد أن مَلأتْ الدُّنيا غناءً بقيت أغنية خالـدة على فم الزمان تغمدها الله برحمته الواسعة يقول الشاعر :

يابحر حسبك قلبـي كاد يتفطـــر فالعمـر قد ضاع والآمال ينتحـــر
إنى حملت الأسى في طى خافقـــه بها التبـاريح تجرى وهـي تستعـــر
وقـــد أتيـــــتك والآلام تهصرني والفكـر بعثر من أشتـات الضّجر

حزن وألم كادا يسيطران على قلب الشاعر على فقـدان سيـدة الغنـاء العـربي « أم كلثوم » يقول الشاعر[2] :

تمضى الليالي وتمضي وهـي صامتـه
إن جادهـا النطـق قالت وهـي تبتـــدر
الموت حوض وكل النـاس وارده
وإننـــا لإرتشاف منـــه ننتظـــر

---

(١) ديوان معازف الأشجان (طاهر الزمخشري) ص ٥٤ .

(٢) المصدر نفسه (طاهر الزمخشري) ص ٥٧ .

الروحانيات عند الشاعر :

لعل من الأغراض الهامة التي تناولها شاعرنـا هي « الروحانيـات » وذلك بحكم نشأته في مكة المكرمة بلد القداسة والطهر ومهبط الوحي والذي دعـاني إلى جعـل هذا الاتجاه غرضا من أغراض شعره فإننا نجد في جميع دواوينه الشعرية ظاهرة الابتهال والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ففي ديوانه « أغاريد الصحراء » يوجد خمس قصائد شعرية ـــ القصيدة الأولى بعنوان « الله أكبر » وفيها يقول[1]

بما كنت أخفى أصبح الطرف يجهر
وفوق خدودي دمْعة تتحـدر
ذنوب طوت آماد عمرى وسوّدت
صحائف أيامي ، ففاض التحسر
فجاشت براكين إليك أزفها
زوافر تدعو ، وعي قلب مفطّر
يناديك ياربـاه أكـرم واهب
إليه يلوذ المذْنب المتـحير
دعوتك أرجـو منك محو اساءتى
فأنت الذي تعطي وتعفو وتغفر
وأنت الذي تمحو الذنوب جميعها
وعفوك أدنى ماينـال المقصر
دعوتك ياربـاه فاقبـل ضراعتى
وزدني يقينـا أنك الله أكبر

وإن هذه النزعة الصوفية التي لجأ إليها شاعرنا إنما هي من دواعي الايمـان الذي يدفع الانسان إلى الأمام وإلى الحياة بالأمل ـــ وعلى ذلك يقول عباس العقاد في كتابه « الله » وخاتم المطاف إن الحسَّ والعقل والوعى البديهي جميعاً تستقيم على سواء الخلق حين تستقيم على الايمان بالـذات الإلهيـة ، وإن هذا الإيمان هو خير

---

(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر زمخشري) ص ٩ .

تفسير لسر الخليقة يفعله المؤمن ويدين به المفكر ويتطلبه العقل السليم »

ونستطيع أن نقول إن في الشعر الحديث كثير من هذه الخواطر وخاصة في شعر المهجر فأبوماضى الذي تأثر به شاعرنا طاهر الزمخشري يجعل هذا الاتجاه : الفكر المبدع والشعور الفياض[1] يقول شاعرنا في قصيدة « رباه »[2]

رباه كفارتى عن كل معصية ... أنى أتيت ؟ وملء النفس ايمان

أتيت أطرق بابا كل مجترم ... أتاه يرجع عنه ، وهو جذلان

قد استضاف كريما لا يمنّ بما ... يعطي وفي منه للعبد رضوان

فاغفر وسامح وتب واصفح ففي ... كبدي الإثم يصرخ والاحسان يقظان

* * *

رباه هذي يدى تمتد ضارعة ... ومن نداك لها صفح وغفران

وفي الحنايا بركين معربدة ... ومن لظاها على الخدّين طوفان

جرت به عين من ناداك معترفا ... بالذنب وهو لما قد فات ندمان

أيامه البيض فرّت من أنامله ... لمّا عصاك فعاثت فيه أحزان

* * *

رباه جاءك لا يرجوك نائلة ... إلا رضاك ففي العين هاتان

جاشت به حسرة في النفس جامحة ... وانساب فيه فؤاد وهو حرّان

فإن أخذت مسيئا بالذي اقترفت ... منه اليمين ، فقد أغواه شيطان

فقال عدْلا ولم تخسر بضاعته ... فالعدْل شرْعك ، والغفران احسان

وإن رحمت ففضل واسع كرما ... وأنت بالفضل حنان ومنان

وحينما نتلمس جانب الروحانيات في شعر شاعرنا « طاهر زمخشري » في قصيدة « في يوم عرفات يقول الشاعر :[3]

---

(١) الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث (أنيس المقدسي) ص ٣٢٠ .

(٢) أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشرى) ص ١٠ — ١١ .

(٣) ديوان ألحان مغترب « طاهر زمخشري » ص ١١ .

رب لبيك ياسميع الدعاء لمنيب إليك في الضرّاء

من بعيد عن المشاعر قد جاء منيبا ينوء بالحوباء

أنت قدّرت فاستراح مطيعا للنوى عن رحابك السمحاء

الشعاع الرفاف من أوجها السامى منار يضيء للأهواء

لترى رشدْها متى صلها الإثم وتمشي على الطريق السَّواء

* * *

كنت فيها الصَّداح أسْكب ألحاني طروب التغريد والأصْداء

وفؤادى بها يرف لدى البطحاء في مهبط الهدى مجْلى الهناءْ

فرماه القضاء منك بداء فتداوى بصبره للبلاء

فإذا الرحب في الحياة مضيق هو في جوفه أليف الشتاء

وهذا الأغرّ « يوم عرفات » يقف المسلمون جميعا في مكان واحد متضرعين خاشعين يرجون من الله المغفرة والغفران ويتجلى المولى الكريم عليهم بالرضا والقبول فتروى نفوسهم بالصفاء والنقاء — وفي هذا المعنى يقول شاعرنا :

طرفه ينظم المدامع سُؤالا يتسامى إليك ربّ السماء

ويداه مبسوطتان بيوم قد تجليت سافر اللألاء

وضجيج الداعين يخترق الآفاق في يومك البشوش المرائى

في صعيد به المآزر أنقى من صفاء الضياء في الرمضاء

خشّعا يرتجون منك المثوبات ويرجون عودة بالعطاء

ويرون الجلال في رحبك الضاحى فتروى نفوسهم بالصَّفاء

يوم أشْرفت من علاك وأغدقت نوالا يسحُّ بالآلاء

يوم جاءوا إليك من كل فج يتنادون ياسميع الدُّعاء

يامغيث المكروب ياكاشف الضرَّ ويامن إليك يعلو ندائى

بأنيني ، بزفرتي ، بالبقايا من فؤاد مفزَّع بكاء

لتجيب الداعي ، وتمحو بالغفران	إنما أتيتـــه في الخفـــاء
وتواريت خلف سترك للعاصي	فوارى جميلــــه أسوائى
أنت أدرى بما اقترفت فلا تبخل	وجدْ بالسمـــاح ياذا العطـاء
فلقد عشت أسحب الذيـل تيها	ملء بردى غبطـة السُّعـداء
فأنـر بالهدى سبـيلي وزدنى	من أياديك فرحـة العتقـاء
وكفـانى أنى بلطـفك أزهـو	وأنـاديك مخلصا في النـداء
رب لبـيك ياسميـع الدعـاء	لمنـيب إليــك في الضَّراء

ونجد شاعرنا أيضا يفتتح ديوانه « على الضفاف » بقصيدة « لبيك » وهـذا هو الحب الصوفي كما يعبر عنه ــ وليس الحب الحق إلا باعثا من أقوى البواعث على التمسك بالفضائل والوقوف على الأخلاق الحميدة وتلقينها :[1] والعشق في أسمى صوره ارتقاء من المحسوسات إلى المعقولات ، ومن الأجسام إلى الأرواح نتيجة لتهذيب النفوس وارتقائها ورياضتها ، اذ تتـدرج من حب الأشكـال إلى حب الصُّورة المجردة في عالم الأرواح إذ أن جميع المحاسن والزينة ــ ماهي إلا نقـوش وأصباغ ورسوم . قد زينت بها ظهور الأجسام » يقول شاعرنا في ديوانه على الضفاف[2]

لبيك رب العالمين
لبيك جئنا طائعين
لبـيك بالدمـع الهتـون وجَـل ورغب
فالعين ترنو للسماء ، ودمعها الهدّار سحْب
والقلْب يلهج بالدعاء وقد تلجلج فيه ذنب
أدعوك يارب العباد ، وليس لى إلاك ربٌّ
وهداك للغفران درْب
وإليه بالآلام نحبو

(١) رسائل اخوان الصفاء جزء ثالث ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ .
(٢) ديوان على الصفاف (طاهر الزمخشري) ص ١٠ .

لبيك صرخة ضارع نثر الخوالج في الأنين
قد جاء يدفعه الرجاء وقد تزود باليقين
ظمآن يلتمس الرّواء ، وأنت وِرْد الظامئين
فاغفر ذنوب التأيبين وقد تنادوا سائلين

ونحن نجد في ديوان (الشراع الرفاف) دعاء وابتهال يعبر فيه الشاعر عما يدور بخلجات نفسه لأن نفس الشاعر كما عرفنا مزقتها الآلام ولابدَّ أن يْطرق الشاعر باب الرحمة والعطف حتى يجد مايروى ظمأه يقول الشاعر :[1]

ياباسط الرزق ياربـاه خذ بيـدي	فأنت بالعفـو حنـان ومنّـان
ولا تكلنـي إلى حوْلى يغـرر بى	فأنت بالطـول يا الله حنـان
فاغفر وسامح وزدني بالرضا كرما	فمن ظلالك للدّاعين أفنـان
فمـا لجأت إلى ظل أفىء له	إلا نداك وفي العيـنين هتـان
وقد سألتك أرجو منك مغفرة	وإن جودك بالغفران إحسـان
فيا غفور ، وياغفـار يمنعنـي	عن ذكرماابتغي ذنب وعصيان
ومن سواك يثيب المذنـبين اذا	أتوه يدفعهـم في الـدرب إيمان
فأنت أنت رحيم بالذي فقـدت	به الذنوب فأغض وهو ندمـان
وأنت أنت مجيب الكـريم بما	يرجو المسىء الذي أغواه شيطان
وأنت أنت رؤوف والحليم بمن	عصى لأنك بالعاصين رحمـان

وفي قصيدة أخرى لشاعرنا (طاهر الزمخشري) بعنوان « لبيك » نجد أنه يدعو الله بدعوة المضطر الذي يغيث المكروب والذي يرفع البأس وجميع صنوف البلاء والذي ينصر المظلوم ـــ وهذا الاتجاه الروحاني الذي يلجأ إليه شاعرنا إنما يريد به الخلاص من الشدائد التي يعيشها ويريد أن يحيا حياة روحية صافية ليس فيها مايعكر صفو حياته إنها حياة الأوفياء المخلصين يقول شاعرنا في قصيدة

(١) ديوان الشراع الرّفاف طاهر الزمخشري ص ٩ .

« لبيـــك »[1]

رب لبيك ياكـريم العطـــاء يارجاء الدَّاعى ونور السّمـــاء
يارؤوفا ومنعمـــا ورحيمـــا ومـلاذا وكاشـــف الضـــراء
يامغيث المظلوم،ياملجأ المحروم يامـــن يجود بالســـــراء
يارحيمـا بنـا ، يامسْد الأستار فوق الذنـوب والأخطـــاء
ياغفـــور لما فعلنـــا من الآثام في جهرنـــا وطيّ الخفـــاء
فخطـوي ويئـد والضلالـة تقـودى ولكـن ايماني على الـدرب مغْبر[2]
وجسر يقيني لا يزال امتـداده منيرا فلا أكبـو ولا أتـــعثر
لأنى بالايمان رغـــــم مآثمى سأقصد ورْدا منه بالعفو أصْدر
وجـودك ياربـاه أعـذب مورد وفيه العطاء السمح برد وكوثر
ولـيس سوى محو الذنـوب جميعها أريـــــــد لأني مذنب مقصِّر
ومـلء وفـاضى ياإلهي كبائـــر فزدني يقينـــا أنك الله أكبر

ونرى شاعرنا مرة أخرى يفتتح ديوانه بدعاء « جميل » وهذا الدعاء يستلهم منه شاعرنا القوة من الله ويطلب منه العفو والصفح والغفران يقول :[3]

ربـاه كفـــارتي عن كل معصيـــة أنى أتـيت ومـــلء النـــفس إيمان
وقـد قطـعت خضمـاً والعبـاب به كبائـــر وأنـــا في التيـــه سفـــان
والفـلك في اللـج قد جاد والأيـــام به عن الطريـــق فهـــل يثنيـــه غفـــران
فالبحـر مضطـرب والموج ملتهب والنار من خافقـي خزى وخسران
بها تآكل مابالكـــف من نعـــم وإن لاهبها في النـــفس أحـــزان
وقـــد تكسر مجدافي ومابـــرحت به المآثم تلهـــو وهـــو عيـــدان
فهل ببرد الرضا يرسو السفين على رحب وفيـه من الـرحمن شطـــآن
عفـو وصفـــح وغفـــران ورحمة بغيرها ليس لى من في اللج أعْـوان

---

(١) المصدر نفسه ص ١٢ .

(٢) ديوان حقيبة الذكريات (طاهر الزمخشري) ص ٦ .

(٣) ديوان معازف الأشجان (طاهر الزمخشري) ص ٧ .

ومن ناحية أخرى نرى شاعرنا يفتتح ديوان « نافذة على القمر » بدعاء جميل والذي نراه من وجهة نظرنا أن تلك الابتهالات والأدعية التي يبدأ بها الشاعر دواوينه إنما هي بمثابة حافز يحفزه للأمل والحياة ـــ الأمل الذي يحيا به الشاعر في هذه الحياة ولولا هذا الشعاع الذي يبين له الطريق لما رأيناه متفائلا في شعره يقول شاعرنا[1] :

ياكريم العطاء ضاقت حياتي	بذنوب قد أخرست نفثاتي
أثلمت عزمتى ، وأكدت بخطوي	وترامت به على العثرات
وعلى كاهلي من الإثم عبء	عجزت دون حمله قدراتي
كل نعمي أسبغتها إلا هي	ضيعتها يداي في المعصيات
فمن استجير إلا بمن يعفو	ويمحو الذنوب بالمغفرات
أنت يامن تجود من غير منٍّ	وتجيب الداعين في الحالكات
فأغثني فالكرب دكّ كياني	وسقاني كؤوسه المترعات
واجرني فقد انبت وإنى	سائل أن تمدني بالهبات
أنت أدرى بما اقترفت وإنى	لا أطيق الإفصاح عن سيئاتى
فاسدْل الستر ياالهي عليها	واهدنى يامغيث للصالحات

ونراه مرَّة أخرى يشدو بلحنه العذب حينما يفتتح ديوانه « حقيبة الذكريات » بدعاء وهذا الدعاء يستلهم منه الإيمان ـــ الإيمان الذي يقوده في الحياة إلى طريق الحق والهداية والنور وهذا مادعاه لأن يبدأ ديوانه بالدعاء وهو في هذا يمثل شباب المتصوفة حينما لا يكون لهم أنس وابتهال إلا بالاتصال بالملأ الأعلى وهذا هو الحب الصوفي يقول شاعرنا :[2]

إلهى خطايا عن يميني ويسرتى	تلاحق خطْواكم بها تبعثر
وأشباحها سدَّت طريق مسالكي	بليل طويل صحبه ليس يسفر
وعزمي كليل ، كيف يحمل خطواتي	ويمضي بها والرشد منسى محيّر
أسير بليل ستره حالك الرؤى	فكيف به يمشى الكليل المعثر ؟

(١) ديوان نافذة على القمر (طاهر الزمخشري) ص ٥ .
(٢) ديوان حقيبة الذكريات (طاهر الزمخشري) ص ٥ .

إن الذي دعاني إلى الخوض في هذا البحث وجدت شاعرنا (طاهر الزمخشري) يبدأ كل ديوان من دواوينه الشعرية بقصيدة فيها ابتهال وتضرع إلى الله سبحانه وتعالى ويرجع ذلك إلى عناية الشاعر بهذا اللون من الفن وحتى تجعلنا نعد شاعرنا من بيئة المتصوفة ولا يمكن اغفال البيئة التي كان يعيش فيها الشاعر وهي مكة المكرمة وهي مهبط الرسالات السماوية وماانبثق نور العلم فلابد إذن أن يبدأ بقصائد الابتهال .

الوطنيـات عند الشـاعر

قضية فلسطين : يكـاد الأدب العربي السعودي ألم بهذه القضيـة إلماما واسعا من شتى الجوانب ، ولأن هنـاك بين الحجاز وبين البـلاد العربيـة الأخرى من أواصر القربى والمصير الواحد فلابدع اذن أن تتـردد أصْداء المشاركـة الوجدانيـة في نماذج من الشعر كلما ألْمت نائبة بأحد أجزاء الوطن العربي ـ ولا تمرّ حادثة عبر التاريخ إلا وريشة الفنان تلتقطه ، وتصوغه الصياغة الفنّيـة ـ ولقـد تحدث أدبـاء الجزيـرة العربية عن كل هذه الأحـداث ومنهم شاعرنـا « طاهـر الـزمخشري » الـذي أعطـى لقضيـة فلسطين اهتماما كبيرا وتعـددت الموضوعـات التـي تحدث فيها الأدبـاء منها ـ وعد بلفور ـ تقسيم فلسطين واللاجئين ـ نكسة حزيران ـ الإشادة بالأبطال الذيـن شاركـوا في حرب رمضان كما اقترحـوا للـنصر وسائـل عدة منها الحرب ـ والوحـدة ، والعـودة إلى الديـن ـ والبـذل وسلاح البتـرول ـ وكانـوا في اقتراحاتهم ينهجون نهجا معينا ، له أسسه وسماته المتميزة من تنـاول الأدبـاء العـرب الآخرين فهذا شاعرنا « طاهر الزمخشري » يدعو للجهـاد لقضيـة فلسطين بقصيـدة عنوانها « نداء فلسطين » يقول :[1]

خرس البيـان فللقذائـف منطـق	ونثـار ماصاغت نفـوس نرهـق
وتـبسم الموت الـزؤام فأبـرقت	أصْداء بسمتـه فضاق المأزق
كتب الجهاد على الاباءة فاقدموا	وعلى الجواء لهم سنين شيّـق
تخذوا من الصلب الحديـد مراكبا	ورمـوا العـدو بحملـة لا تشفـق
هذه فلسطين الأبيـة مرحـل	فسلوا العداة: أما كفاهم مالقوا ؟
ثبتوا غرورا للقـواصف واللظـى	لم يعلمـوا أنـابهم نترفـق
زعمـوا النجـاة ، ولا نجاة لعاثـر	إن الدمـار مصير من يتـمشدق
فمتـى تأذن أن نبيـد جموعهـم	سير المجير لهم بأنـا أصْدق
قوم نخوض غمارهـا لا نبتغـي	إلا العقيـدة ، والمنايـا أنيـق
نستقبـل الحرب الضروس بواسما	لكـن نكـر إذ رجاهـا تطبـق

(١) أنفاس الربيع (طاهر الزمخشري) ص ١٣٩ .

ونخوض معترك الحياة ونثنني والغار من فوق الخميس محلق
ولنا من الله المعز لدينه رايات نصر أين سرنا نخفق

وفي قرار التقسيم نرى شاعرنا (طاهر الزمخشري) يرفض قرار التقسيم ويأبى عليه وطنيته ذلك فيقول في هذه القصيدة معبّرا عن شعوره أصدق تعبير يقول شاعرنا[1] في قصيدة (صرخة مدوية) :

ليس في الأرض للذليل ديار وفلسطين للعروبة دار
وقرار التقسيم أسْود داج وجلاء اليهود عنها نهار

* * *

أعلوج ترى أدْعاء حمانا ؟ صيحة العلج إن توالت خوار
بالشارات مجدنا وهو صرح لم يصدَّع ولو طغى الفجار
إن تناسوا حقوقنا في حماها سوف يحمي حقوقنا البتار
عزة العرب في حماها وإنا لا نبالي إذ في هواها نغار
إن تعاموا عن الضياء جهارا وحْدة الدين والظبى أنصار
فابعثوها نفائسا ونفوسا ثمن النصر أنفس ونضار
واتركونا من الألى زعموا الأمن ومنهم على الأذى إنذار
أي عهد وأين من إذا لم تتمتع بحقها الأقطار ؟

ولاشك أن شاعرنا قد ألهب بحماسة شعره وجدان الإنسان الذي اهتز لموقف هؤلاء الأعداء إن تناسوا هؤلاء الأعداء حقوقنا فلا يوجد إلا السيف وهو الذي يحمي حقوقنا ـ وإنني لا أجد أروع من هذا البيت الذي يقول فيه :

فابعثوها نفائسا ونفوساً ثمن النصر أنْفُسُ ونُضار

ولقد ابتهج شاعرنا عندما انتصر العرب واستعادة لمجد العرب يقول شاعرنا في قصيدة (ياضمير الانسان)[2] :

ياضمير الإنسان إن دمانا قد تلطت مسعورة في حمانا

---

(١) ديوان أنفاس الربيع (طاهر الزمخشري) ص ١٣٧ .

(٢) ديوان الشراع الرفاف (طاهر الزمخشري) ص ٤١ .

تطلب الثأر صارخا من طغاة   دنّسوا الأرض غدرة لا طعانا
وتباهوا بأنهم قد أصابوا   ماأرادوا فالجموا خذلانا
بعد أن أرهفوا العداء سلاحا   زاده الحقد فيهم عنفوانا
كبكبوا في جهنم أشعلوها   وارتموا في لهيبها عيدانا

ونريد أن نوضح هنا أنه اقتبس (كبكبوا) من القرآن الكريم حيث يقول :[٢] « **ثم كبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون** » وهذا اقتباس لا بأس به ويستطرد في تعبيره عن فرحته بالنصر المبين في تلك المعركة فيقول :[١]

ياضمير الانسان إنا كما كنا   نلبي النِّداء إن مادعانا
نقهر الصّعب لا نريد عداء   ونعدّ الردى لمن عادانا
ونشيد السلام صرْحا على القوة   ويبقى موطّدا أركانا
لا هراء كما يريد التلاحي   بل نضالا لا نجيد فيه الطعانا
نتحدى إذا تمادى التعدى   أو يمارى من رامنا عدونا
والسلام وهو لواء   قد بسطنا من حوْله الايمانا
وانتفضنا نذود عنه ونمضى   في طريق ممهَّد لخطانا
كلنا يحمل الكتاب سلاحا   وهو مازال في الورى فرقانا
وحدّتنا آياته وأنارت   كل درْب نروده إخوانا

إننا نرى شاعرنا يعبر في هذه الأبيات عن روح الاسلام وهو أن الاسلام لا ينصب العداء لأحد ولكن الاسلام يدعو للسلام والأمن والرخاء وهذا السلام يحتاج لقوة تحميه وأخذنا بأسباب القوة وأقواها هو الالتزام بكتاب الله سبحانه وتعالى فبفضل آياته توحد المسلمون وأنارت طريقهم إلى الخير والرشاد .

---

(١) ديوان الشراع الرفاف (طاهر زمخشري) ص ٤٣ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ٩٤ .

الثورة الجزائرية الكبرى :

تلك الثورة التي استعرت سبع سنوات ضد الغزاة الفرنسيين ، مما يلفت النظر أن ماقاله السعوديون في هذه المعركة الطاحنة كان ضخما ، فيضا من ألوان التعبير ، قصيدة وقصة ، ومقالة — ولقد اتخذ الأدباء في التعبير عن هذا الموضوع مواقف عدة فمنهم من وقف بعيدا عن حمى المعارك ، وتراشق النيران ، ويرقب التضحيات ولقد كان شاعرنا (طاهر الزمخشري) يتابع تلك الأحداث فالجزائر لا زالت نبع البطولات « وجميلة بوحريد » مثال الفتاة العربية انساقت إلى السجن بدون ذنب ، ولا تزال أغنية الزمن يتغنى الشعراء والأدباء ببطولاتها يقول شاعرنا مشيدا بتلك البطولات :

القرون الطوال من أى عهد	لم تخلد بطولة كجميلة
خطرت غضة تميس إلى السج	ن خلا خيلها القيود الثقيلة
وعلى زندها سوار حديد	رق كالخز فوق كف نحيله
حسبوا أنها تحس وثاقا	فإذا بالوثاق خير وسيلة
للفداء المحبوب للايثار	قد مهّد العذارى سبيله



(١) ديوان أغاريد الصحراء (طاهر الزمخشري) ص ٣٢ .



الفصل السابع

الخصائص الفنية في شعر طاهر زمخشري

الألفاظ - قضية اللفظ والمعنى - الخيال - العاطفة

الخاتمة



مما لاشك فيه أن شاعرنا كان مجددا في الشكل الخارجي من حيث التفنن البياني والتجديد العروض وفي التنويع في الأوزان والشكل . وسنتناول هذه الخصائص الفنية عند الشاعر وتشمل الألفاظ والخيال والعاطفة .

أولا الألفاظ : لتتبعنا لقصائد الشاعر نجد فيها أشعة وظلال وأنغام وأصداء وعطر وشذى وأشباح وأطياف ونحوها .

ولعل شاعرنا تأثر بشعراء جماعة (أبولو) الذين تأثروا بالرمزية إلى جانب مافي نفوسهم من عاطفة جياشة هو الذي دفعهم إلى التحرر من الأجواء المادية والسبح في المجهول والغيب ، والأحلام المبْهمة وحوّل الألفاظ عندهم إلى شيء جديد له طعم ولون ، يوحى ويثير ويجسم بطريقة دافقة بالشعور غنية بالرؤى والظلال ، وهذا مادفعهم إلى الأجواء الصوفية ولعلهم يجدون فيها ريا لنفوسهم المتعطشة .

وحينما أراد شاعرنا أن يستخدم ألفاظه فكانت تشير بالرمز الذي هو سمة أصيلة في شعر الشاعر وهو بهذا يضفي على قصائده الشعرية البراعة والجمال ويثير في نفس القارىء التأمل والتفكير « وكما يقول الأستاذ أحمد أبو شادى « كلما سما الفن كان رمزيا في بلاغته .. » وفي قصيدته « الشوق العائد » من رمزية في اختيار ألفاظه يقول :[1]

ياذكى الاحساس والنبضات	كيف حال اللَّيلات والأمسيات
كيف حال الزهور في دربنا	الضاحى بنور يشيع بالنظرات
نرجسُ الشعاع ، ضاحى التعابير	بهمس الجفون واللمحات
كيف حال الفضول يسترق	السمع إلى مانعيد من همسات
ويحار السؤال عن وجهة القصْد	وردّ الجواب باللفتات

(١) ديوان نافذة على القمر للشاعر طاهر الزّمخشري ص ١٦١ .

وحينما ألف شاعرنا ديوانه الشعري « نافذة على القمر » بدأه بدعاء ــ وقد كان موفقا في اختيار ألفاظه التي تدل على النجوى والابتهال والتضرع لله سبحانه لأنه بيده وحده نيل العطاء والنجاة من كل مكروب ولذا فإنه اختار الألفاظ التي توحي بهذا المعنى مثل : ياكريم العطاء ــ كل نعمى اسبغتها ــ بمن أستجير ــ أنت يامن تجود . أغثني ــ أجرني ــ اسْدل الستر .

يقول شاعرنا في قصيدته : « دعاء »[1]

ياكريم العطاء ضاقت حياتي	بذنوب قد أخرست نفثاتى
أقلمت عزمتى ــ وأكدت بخطوتى	وترامت به على العثرات
وعلى كاهلي من الاثم عبء	عجزت دون حمله قدراتى
كل نعمى أسبغتها ياإلهى	ضيعتها يداى في المعصيات
فمن أستجد إلا بمن يعفو	ويمحو الذنوب بالمغفرات
أنت يامن تجود من غير منٍّ	وتجيب الداعين في الحالكات
فأغثني فالكرب دك كيانى	وسقاني كؤوسه المترعات
وأجرنى فقد أنبت وإنى	سائل أن تمدنى بالهبات
أنت أدرى بما اقترفت وانى	لا أطيق الافصاح عن سيئاتى
فاسْدل الستر ياالهي عليها	واهدني يامغيث للصالحات



(١) نافذة على القمر للشاعر طاهر الزمخشري ص ٥ .

شاعرية الألفاظ :

ما أقوى العلاقة القائمة بين الشعر وبين الحالات النفسية ! ذلك بأن المعايير النقدية التي يخضع الشعر لسلطانها على اختلافها وتباينها ، تتضاءل جميعا إذا قيست بالمعيار النفسي . على أن للمعيار النفسي في نقد الشعر عوامل كثيرة أقواها تأثيرا منحصر في شاعرية الألفاظ ، ثم يأتي بعد ذلك الموسيقى المستمدة من القافية والروى ومنها قوة الخيال .

والواقع[1] أننا نقول إن شاعرا بارد الأنفاس ، وأن آخر غير ماهر في اختيار الألفاظ ، إنما نُعبر بهذا عن حقائق نفسية ، تنزل من أنفسنا منزلة أبعد الأشياء اندساسا في أغوار الفطرة — فإن من الحقائق النفسية مادعاه النفسيون : « تداعى الأفكار » فإن اللفظ الجميل المعنى يدعو إلى الفكر دائما كل المعاني الجميلة التي تلابسه أو تقاربه ، ولفظا نابياً أو محزنا يدعو إلى الفكر كل المعاني التي تدانيه أو تمتُّ إليه بسبب من الأسباب مثل ذلك إذا قلت « الشاطىء المخضوضر » دعت هذه العبارة إلى ذهنك كل المعاني الجميلة التي تلابسها . فالنهر المنساب والماء الصافي والظل الوارف وصوادح الطير والرضا النفسى والأخوة الروحية ، كل هذه المعاني تؤاتيك غير مختارة لمجرد أن العبارة الأولى قد حملها وعيكم فدعا معها جميع المعاني التي ترتبط بها وجميع الملابسات المرحة الجميلة التي تلازم الشاطىء المخضوضر — وإذا قلنا القبر الصامت — دعت هذه العبارة إلى وعينا جميع المعاني المحزنة التي تلابس القبر .

هذه الحقيقة لها في نقد الشعر أعظم الأثر . فإن لفظا جميل المعنى حسن الملابسات يدعو إلى الذهن شتى المعاني الأخاذة الجذابة ، إن ورد في سياق الشعر أحدث في النفس شعورا بالرضى والجمال وزاد إلى موسيقى الشعر القائم على جمال الوزن والقافية ، موسيقى نفسية — تزيد الشعر تأثيرا في النفس وتفيق الخيال فيشرف الوعى من خلال ذلك اللفظ على آفاق من الجمال اللامتناهى تزيد من قيمة الشعر بقدر مايكون لألفاظه من أثر في استدعاء ألوان الجمال أو التأمل أو

---

(١) في الأدب والحياة (لإسماعيل مظهر) ص ٨٦ .

العظة أو الحكمة إلى غير ذلك . وعلى عكس هذا تماما مايحدثه لفظ ردىء الملابسات فاسد المعنى . وهذا ولاشك مايقصده النقاد إذ يقولون بأن الألفاظ شاعرية . على أن شاعرية الألفاظ إنما يحدّدها دائما استعمال اللفظ من حيث ينبغي أن يستعمل فيكون مطابقا تماما لمقتضى الحال .

وإذا نحن تتبعنا القصائد الشعرية لشاعرنا (طاهر الزمخشري) نجد أنّها تلائم الموضوع الذي يتناوله هذا الاحساس المرهف من الشاعر الذي جعله يختار ألفاظا توحى بالقلق والحيرة والاضطراب في قصيدة (انتظار) يقول الشاعر :[1]

أنا في انتظارك فوق جفنى المسْهد	طيف يذكرنى بقرب المْوعد
تتراقص الأحلام حوْل وسائدى	وأنا أرامق بينها فجر الغد
تتسابق اللحظات ، وهي مغذة	نحو الصباح وراء سجف أسود
العين تقطعه بنظرة وامق	والقلب يعبره بخفق مجهْد
وغدى يوصوص بالسنا من طلعة	فاقت ملامحها جمال الفرقد
والنظرة النجلاء تومض بالسنا	لتنير أفقى بالهوى المتجدد

والكلمات التي اختارها الشاعر مناسبة تماما للموضوع الذي يطرقه فالكلمات ــ طيف تتراقص الأحلام ــ تتسابق اللحظات ــ العين تقطعه ــ القلب يعبره ــ خفق ، وأحدثت هذه الكلمات في النفس شعورا بالرضى والجمال ــ ويستطرد الشاعر بعد ذلك وهو ينتظر الأمل بشغف االقاء يقول شاعرنا :[2]

والوهم مثير في الظلام هواجس	وأنا ألملمها بحرف المقعد
والنفس تسبح من خيوط رجائها	أملا يطالعها بفجر مسْعد
فالليل أوشك أن يلمّ وشاحه	لينير بالأمل المسرجىّ مقعدى
وأنا أهيم وملء نفسى فرحة	أزهارها ابتسمت لمن لم يولد
لغد وفيه المحب يملأ ناظرى	نورا وأقتطف الأزاهر باليد

(١) نافذة على القمر (طاهر الزمخشري) ص ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٤ .

وفي قصيدة أخرى لشاعرنا بعنوان « ابتسامة » نجد أنه اختار الألفاظ الموحية الجذابة وزاد إلى موسيقى الشعر القائمة على جمال الوزن والقافية موسيقى نفسية تزيد الشعر تأثيرا في النفس يقول الشاعر :[1]

أسفر الصبح بالمحيا المنير حاملا للهوى معازف نور
مرحا ترقص المفاتن فيه فوق طرْب مغرّد التعبير
وارتعاشات لحظه بالترانيم أزاحت ستائر الديجور
لترينا أن الجمال الموشى بابتساماته ، وظرف مثير
يتهادى به الضياء ويختال على دربنا لعمق الشعور

ويستطرد الشاعر في قصيدته قائلا :

السنا راقص الأهلة فيه بالأفانين من سنا وعبير
والفراشات بالأزاهر تلهو وهو يلهو بنا بدرّ نثير
وصدى البسمة المشعة تعطى ألقاً يلهب الجوى في الضمير
ويرينا كيف الصباح يوشي صفحة الكوْن بالسنا المنثور

وفي قصيدة أخرى بعنوان « الأذن تعشق » نجد شاعرنا يحس بألم الفراق لأنه هيمان بحبها فهو مشدود بسماع صوتها وهذا الصوت الحنون يطيل أنفاسه يقول شاعرنا :[2]

والأذن تعشق قبل العين أحيانا فهل ألام إذا أصبحت هيمانا ؟
وقيل: في النظرة الأولى مثار هوى وهمسة منك أذكت فيّ نيرانا
قد مرّ عامان والذكرى تعاودنى كأنها انسكبت في مسمعي الآنا
فكيف تسأل عن سراً كاتمه وقد أثارته بالتسآل بركانا
إنى أخاف عليها من لوافحه إن لم تذق من رحيق الوصْل تحنانا
فالوقت يزحف سباقا بفرحتنا إلى اللقاء الذي يصفو بنجوانا

---

(١) نافذة على القمر (طاهر الزمخشري) ص ٨٦ .
(٢) حقيبة الذكريات (طاهر الزمخشري) ص ١٣٣ .

تدنيه منــا الأمــانى ثم تدفعـــه	عنـا الليـالي لأن الـوقت ماحانـــا
فيا ضفاف الهوى للذكرى مغـردة	قد راح منها الصّدى عذبـا ورنانـا
وفي المسرة آهـــات لو انطلـــقت	الرجـع يسرى نغومـا مثلمـا كانـا
فالسمـع مازال مشدودا بصبوتـــه	للصوت يمنـح بالأنفـاس احسانـا

قضية اللفظ والمعنى عند النقاد

ويجد ربنا قبل الخوض في هذا أن نعرض بايجاز لبحث مفيد في الموضوع ، وهو بحث قديم ، لكنه يتجدد على الأيام . ويدور حول : « أفضلية اللفـظ على المعنـى ، أو العـكس ــ أو بعبـارة أخـرى ، أى الأمريـن يقـع به التأثـر في نفس السامـع أو القارىء ؟ .

ذهب الأدباء مذهبين ، وأطالوا الجدل ــ كعادتهم ــ فيما لا يحتاج إلى إطالة ، فقال بعضهم المعنى على اللفظ ، قائلا : ماذا في اللفظ لولا المعنـى ؟ وهـل الكـلام إلا بمعناه ؟[1]

ودافع عن هذا الرأى بعض كبار الباحثين ، لعبد القاهر الجرجانى ، وابـن جنـى واعتنقه كثير من الشعراء ، فآثروا المعنى « ولم يبالوا حيث وقع من هجنة اللفـظ ، وقبحه ، وخشونته »

وقدم فريـق آخـر اللفـظ على المعنـى . وهـذا الفريـق أكثر عددا ، وأعـز شيعـة وحجته[2] أن اللفظ أغلى من المعنى ثمنا ، وأعظـم قيمـة ، وأعـز مطلبـا فإن المعـاني موجودة في طباع الناس ، يستوى الجاهل منها والحاذق ، ولكـن العمـل على جودة الألفـاظ ، وحسن السبك وصحـة التأليـف . ألا ترى لو أن رجـلا أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحـر ، وفي الاقـدام بالأسد وفي المضاء بالسيف ، وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيـب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد ، الجامـع للرقـة والجزالـة والعذوبـة ،

(١) دلائل الإعجاز (عبد القادر الجرجانى) ص ١٩٤ .

(٢) العمدة ابن رشيق الجزء الأول ص ٨٢ .

والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدْر »

فصناعة[1] الكلام ـــ نظما ونثرا ـــ إنما هي من الألفاظ لا في المعاني وإنما المعاني تبع لها وهي أصل .. والمعانى موجودة عند كل واحد ، وفي طوْع كل فكر منها مايشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة وتأليف الكلام للتعبير عنها هو المحتاج للصناعة وهو بمثابة القوالب للمعانى فكما أن القوالب التي يغترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف ، والزجاج ، والخزف ، والماء واحد في نفسه ، وتختلف الجودة من الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء ـــ كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال ، تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها ، وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه »

وفي كتاب الصناعتين[2] يذكر أنه « ليس الشأن في ايراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي ، والقروى والبدوي وإنما هو في جودة اللفظ ، وصفائه ، وحسنه ، وبهائه ونزاهته ، ونقائه ، وكثرة طلاوته ، ومابه مع صحة السَّبك والتركيب ، والخلود من أود النظم والتأليف . وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك .. ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة يبالغون في تجويدها ، ويغلون في ترتيبها ، ليدلوا على براعتهم ، وحذقهم لصناعتهم . ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر من ذلك ، فربحوا كدّا كثيرا واسقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا »

تلك صورة موجزة عن كلام الفريقين وأدلتهم ، وإننى أميل إلى الرأى الثاني وأومن به عن اقتناع ويقين ذلك لأن المعاني شائعة لا يستأثر أحد بها ولأنها مستقرة في نفس صاحبها ، مجتمعة في أعماق سريرته ولا سبيل لإظهارها وإبرازها من مكامنها إلا بوسيلة من وسائل الإبانة والكشف ، ومن هذه الوسائل الكلام المنطوق أو المكتوب ، والإشارة ، والتصوير وسائر الرموز والعلامات الموضحة

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٠ .
(٢) كتاب الصناعتين : الفصل الأول من الباب الثاني (لأبي هلال العسكري) ص ٤٢ .

وأقوى من هذه الوسائل : الكلام بنوعيه ، وبقدر تمكن صاحبه ، وبراعته في الأداء ، وتملكه زمام التعبير يكون كشفه عن المعاني باخراجها من مخبئها وإبْرازها ناصعة جلية ، تقع في نفس القارىء أو السَّامع موقعها من نفس المتكلمة وتبدو لهذين في الصورة التي تبدو بها لذاك . فليس التعبير إلا أداة لنقل الصورة المعنوية من نفس صاحبها إلى نفس السامع أو القارىء ، وعلى قدر صلاح الأداة وقوتها يكون نجاحها في أداء مهمتها — ومن البديهة القوْل بأن المعنى لا يتجسم ، ولا يبرز بنفسه ، ولا يستمد التأثير من ذاته ، وإنما يبرز في قوالب من الألفاظ تظهره ، وتحدد معالمه ، وتمده بالتأثير . فإلى اللفظ يرجع الفضل الأول في تأثير المعنى في العقول والنفوس ، وبقدر الجمال اللفظي المتقن تكون درجة المعنى قوة وضعفا ، وتفاوت المنازل تبعا لذاك الجمال المحكم . ولو كان التأثر راجعا للمعنى وحده ماتفاوتت درجات التأثر بالأساليب المختلفة ذات المعنى الواحد ، ولاسيما أسلوب على أسلوب يشاركه في المعنى ، ولا فضل تعبير تعبيرا آخر يؤدى معناه .

الخيال عند طاهر الزمخشري :

يلعب الخيال دورا هاما في شعر طاهر الزَّمخشري لأنّه جعل الخيال قبلته التي يتجه إليها في نبضات قلبه ، وخلجات عينيه ، وسبحات وجدانه .

فهو في حبه يتخيل ويجنح للخيال ومـاأكثر هذا الاتجاه عند شاعرنا وخاصة الناحية العاطفية وقد ملكت عليه كل حياته — وهذه صفة التجديد المدرسة « الرومانتكية »

ونعرض بعض الأمثلة لنرى الخيال واضحا في شعر شاعرنا حيث يقول :[1]

أنا والهوى نجوس دروب الحب مابين حيرة واكتئاب
همسنا لا يكاد يسمعه الليل ، وإن مد روقه للتصابى
وخطاى التى تغذ بها اللهفة مازال وقعها في الروابى

---

(١) نافذة على القمر (طاهر الزمخشري) ص ٤٤ .

ونرى الشاعر هنا يحس إحساسا قويا قويا بالحياة الروحية وقد ساق خياله إلى حد أنّ الليل لا يسمع همْسه ــ وهذا الخيال يجعل الشاعر يشبه ويشخص أو قل يرى فيها الشبيه ، كما يرى الإحساس والحركة ــ وصورة أخرى للخيال نجدها عند شاعرنا :[1]

ومــن الليــل كوُّة قد أطــلّ	البــدْر منها بنــوره الخلاب
وشدا للحيــاة والحب لحنــا	ماله غير خفقــا من ربــاب
وعلى رجعــه الطيــوف أعــادت	بابــتسامتها إلى شبــابي
وبعــوْد الشبــاب رحْت أغنــي	والصّدى راقص بخضر الــروابى

وفي قصيدة « أحلام » نرى الخيال واضحا في شعره يقول شاعرنا :[2]

وأسفر الصبح يختــال الفتــون به	ليــغسل الجرح بالأنفــاس والبرد
وكــنت أحمل سرّا لا أبــوح به	أوهى عظامى وأبلى بالضنا جسدى
وفي دمــي كان يجري ثم أرسلــه	عنّــى حنين سخــىّ الــورد والمد
أفــاضه نبضة قلب لا يــوح به	إلا لرجع الصَّدى من خفقة الغرد

ويشيع في شعر (طاهر الزمخشري) وخاصّة الشعر الغنائى المجازات ومايتصل بها من الاستعارات لأنها هي التي تلائم صورة العاطفة وحدّة الوجدان فتخرج الكلمات ملتهبة حادّة بفضل مافي المجاز والاستعارة من تركيز وايجاز يعطي التعبير قوة ــ وفي هذه الحالة يتحول الشاعر إلى مايشبه صانعا جديدا للغة فهو يسمى الأشياء بغير أسمائها ويصفها بصفات أشياء أخرى ــ يقول شاعرنا في قصيدة « خيال المتمنى »[3]

بأمــر لحظك ياهيفــاء آتمر	إطاعة الحسن في حكــم الهوى قدر
فياحيــاتي وهــل أحيــا بغير هوى	روحى الفداء له والسمع والبصر

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٧ .

(٣) ديوان معازف الأشجان للشاعر (طاهر الزمخشري) ص ٢٠٢ .

لقـــد حملت الهوى نارا تمزقنـــــي	ولـيس لي غير أن أفنـى بها وطـــر
ولا أزال على رغــم الضنــا دنفــا	الحسن يأسرني والحب يهتصر
ويهمس الليــل في سمعــي بأغنيــة	يصفـى لها في مجاري أدمعى السهـــر
لأن عينـــي تطويـــــه مسهـــدّة	ترعى جمالا ومـــن أطيافـــه القمـــر
ولا يبث السَّنــا إلا الــرضا ألقــا	عمرى باشعاعـــه يزهـــو ويزدهـــر
فيـا حيـاتي وهـل تحلــو الحيــاة بلا	إلـــف يحاكيـــه في تغريــده الوتـــر
يشجـى ويطـرب يهتـز الشعـــور له	لأنـــه نغـــــم قيثـــاره الـــدُّرر
وكان أجمل شيء في مخيلتـــــــــي	فصار أروع مايهفــــو له النظـــــر

وفي قصيدة أخرى بعنوان « العين بحر » وهذا الخيال الذي لجأ إليه الشاعر إنما يعود إلى حسّه المْرهف وبطبيعة الشاعر أن يعرف من ألحان الوجود وأسراره وقواه الكامنة فيه مالا نعرفه وحقا إنه لا يقف عند الظواهر وإنما يتغلغل في الأعماق وهذه هي براعة الشاعر ومهارته يقول شاعرنا[1]

لي بين عينيـك مجـداف وبحـــار	وفيهمـا بالسَّنـا الضَّحـاك تيــــار
أخاف أقلع ، والتيـــــار يمنعني	من أن أســـوح ببحـر فيـه اعصار
وفي ضلوعـي نار ليس يبردهـــا	إلا شفيـف سنـا يجريـه سحّـــــار
وقد ركبت من الأهوال أعظمها	لأننـي في اقتحـام الهوْل مغـــوار
فكيـــف أرهب بحر تطارحنـــى	فيـه الصَّبابــة أنفــاس وأشعـــار
إني أجـــدف في بحر شواطئـــه	قد أبعـــــــدتها عن الملاح أسْرار
وقـد تضاحك من أعماق لجته	نور يناغـــم بالخفـــق محتـــــار
إذ ارنـا فاتعـاش النـــور يرهبـــه	وإن هفا فاصطخـاب الموج هدّار

(١) المصدر نفسه ص ١٢٠ .

ويستطرد قائلا[1] :

فالبحر إن نظرت تفض كوامنه ... بما يخبىء تحت الهذب تيار
أعيذه فاتكا إلا بما نظمت ... من القلائد والحبات أقمار
وحسبها أنها تروى بنظراتها ... حكاية الحب والألطاف أسْمار
فيا ضفاف الهوى قولى لطلعتها ... العين بحر وإنى فيه بحار

الخيال اذن جوْهر الأدب ــ وإن المجازات والتشبيهات والاستعارات ليست غاية في ذاتها ، إنما هي غاية لمعان تمثلها ، معان تصور انطباعات روح الكون في خيال الشاعر ولكل أديب انطباعاته ، وكذلك لكل أديب استعاراته وتشبيهاته ومجازاته بحيث نستطيع أن نقول إنها صورة ، صور نفسه ومماانعكس عليها من روح الوجود .

لابدّ إذن للأديب من خيال خالق يبتكر الصور ابتكارا ، وإذا كان القدم في الصورة يفسدها فإن الشطح فيها إلى حدّ الوهم لعله يفسدها أكثر مما يفسدها القدم ، إذ تنمحى فيها حواجز الحس وروابط العقل ، وتصبح أشبه ماتكون بهذيان المريض[2] .

ويستطرد االدكتور شوقي ضيف في كتابه عن المذاهب الأدبية التي تجعل للخيال مجالاً أوسع وهما مذهبى (الرمزية والسريالية) وحجة الرمزيين في ذلك أنهم يقصدون إلى الايحاء عن طريق الإبهام ، ومالفن إلا جزء من الطبيعة ، وهي مليئة بالغموض والأسْرار فحرى أن يكون الأدب مثلها ــ إن الأديب مستودع انفعالات تصب في نفسه من شتى الأنحاء ــ وإن اللغة لتضيق عن نقل هذه الانفعالات بالصور المحددة ، فليعمد الأدباء إلى الصور المبهمة ــ ونستطيع أن نوضح رأينا في هذا الموضع ونقول إن اللغة لا تضيق بالصور المحددة وهي غنية

---

(١) ديوان معارف الأشجان (طاهر الزمخشري) ص ١٢١ .

(٢) في النقد الأدبي (د. شوقي ضيف) ص ١٧٤ .

بالألفاظ التي تعطي لكل شيء مدلوله وغايته ــ وإذا كان الأدباء في بعض الأحيان يلجأون إلى الرمز في تعبيراتهم فإن هذا لا بأس به حيث أن هذا الاتجاه يثير التأمل والتفكير في النص الأدبي .

ويستطرد الدكتور شوْق ضيف في حديثه عن مذْهب السريالية فيقول : « وخطا أصحاب مذهب السريالية أو مافوق الواقع ــ بتأثير نظريات فرويد وغيره من النفسيين عن اللاوعي ومكبوتاته ــ خطوات أبعد مدى في ابهام الصورة الأدبية وغموضها ، حتى كادت دلالتها أن تنطمس ، وعبثا أن تسترد عندهم ولو لمحة خاطفة من الحقيقة . وكأنما النموذج الأدبي في رأيهم حلم بالمعنى الدقيق لكلمة حلم فهو أطغاث من صور لا واعية ، ليس بينها أى رابطة ، إنما هي صور تسقط من أركان خفية متباعدة ، من الأرض ومن السماء ومن تغريد طائر ومن نسيج عنكبوت ومن أطياف عابرة لا حصر لها ولا عدّ . ومن هذه الصور المتباينة المتباعدة يتكون النموذج الأدبي ليعبر عن الأحلام والأهواء والغرائز المكبوته ، ولكن أى تعبير ؟ إنه لا يكاد يفهم في كثير من الأحيان .

إن عناية[1] الأديب بالصور الخيالية عامل من عوامل الجمال في الأدب ، بل إن شأنه شأن الأدب هو الانتاج لا التقليد ، فهو إذن يعتمد على الخيال ، ولكن هذا الجمال في الصور الخيالية لا ينتج عن الخيال المحض ، أو عن شططه أو مخالفته للواقع ، وإنما ينتج عن صدق ، وسعته وعدم جموده وبعده عن التكلف .

ونستطيع أن نوضح رأينا في ذلك فنقول : « الخيال الجيد ليس هو الذي يشطح ويشعر أو يأتى بالأوهام والمحالات ، إنما هو الذي يجمع طائفة من الحقائق : حقائق الوجدان وانفعالاته ، ويربط بين أشتاتها ربطا محكما لا ينكره الحس ولا العقل إما أن تحوّل إلى صنع صور مبهمة شديدة الإبهام فإنه يبتعد عنا وعن محيطنا وحياتنا ونظرا لثروة الخيال عند شاعرنا فإننا نجد اللغة تسعفه فهي تمتليء بالرموز والشخوص وألفاظها لا تحمل معانى مجردة ، إنما تحمل أشباحا تخطف البصر من التشبيهات والمجازات والاستعارات ووظيفة التشبيه هى التصوير والتوضيح بالانتقال من شيء إلى شيء يشبهه ويشاكله يعبر به الشاعر عن معنى في نفسه ، وكلما كان أبعد وأغرب كان أروع وأجمل .

(١) نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر (عز الدين الأمين) ص ١١٨ .

العاطفة عند طاهر الزَّمخشري :

بالنظر الدقيق في قصائد شاعرنا رأيناه يصْدر عن عاطفة متقدة ويسمو بفكره وفنه ، فيخرجه منفعلا متدفقا يمزجه بذات نفسه وصار شعره عنوانا عليه ، فلو ذكرت أى قصيدة من شعره وسألنا عن القائل لكان الجواب أسرع إلى الذهن من العبارة .

والمدرسة الشعرية الحديثة في الأدب الأوربي « اتجهت إلى تحديد التجربة الشعرية وتحديد العلاقة بين العقل الواعي والعقل الباطن ، واستغلال امكانياته في الأدب وبناء الشعر الحديث على الطريقة المسماه « التداعي الحر » وتقوم هذه الطريقة على الاسترسال وراء الكلمات ، أى أن كل كلمة تجر التي تليها ، حتى تنتظم القصيدة كلها »[1]

وهذا الاتجاه سار فيه شاعرنا « طاهر الزمخشري » وآثره على غيره ، فاتبع استغلال امكانيات العقل ، وجرى وراء الكلمات حتى بنى القصيدة على أساس من العاطفة المتسامية — ولقد تأثر شاعرنا بجماعة (أبولو) التي كانت في نزعاتها الشعرية تتجه إلى الطبيعة يبثونها أشجانهم وأحزانهم ففي قصيدة « الربيع العائد » لشاعرنا[2] فيها عناصر الوجدان الخالص الموزع بين انفعالات الأمل واليأس والقلق والحيرة والحنين والذكرى وكل هذه العواطف يبثها في مظاهر الطبيعة الخلاب من الربيع والبدر وحفيف الأغصان والغمام يقول شاعرنا :

ياربيعا مغرّد القسمات	مشرقا كالضحى بوجه الحياة
عدت لى والأسى يبعثر أفكارى	ويرمى خواطري بالشتات
وندوب الجرح تنثر أوصالى	وتلهو بأعظمى النخرات
عبرت لى والهموم تملأ نفسي	فغسلت الهموم بالبسمات
ونشرت الأفراح حوْلى بأحلى	ماتمنيت من روى غردات

(١) رسالة الحياة (ابراهيم ناجى) ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) ديوان معازف الأشجان (طاهر الزمخشري) ص ١٧٢ .

رجعت إلى الصبا والليالى | في الربى والمثناة
فطويت السنين عوْد إلى الماضى | وأيقظت صبوتى من سُبات
يوم كنا بين السلامة والريان | نشدو بالهمس والنظرات
وخطى البذْر في كهوف من الليل | تمدّ الضياء في الرحبات
وحفيف الأغصان بين الشجيرات | يعيد الصدى من الهمسات
والغمامات حولنا تسكب | الطل فتندى الشفاة بالقطرات
والحنين الذي نديرِ به النجوى | يروى المشاعر الظامئات
والسكون المخمور يغفو على | الصخر وفي جنة الرؤى الحالمات
والمقادير من وراء المسافات | تبث الصروف في الطرقات
فسقينا من الشتات قراحا | ثم ألقت بنا إلى الحسرات
نتباكى على الذي مات منا | ونروى ذكراه بالعبرات
وعلى جسر صبرنا قد وقفنا | في ارتقاب لهازم اللذات
وعلى ذكراه سنطوى الليالى | وإليه نفىء بالأمنيات
فالخريف المنهوك عانق | أحلام ربيع مغرّد القسمات
والأسارير من محياه تجرى | بنمير من أعذب الذكريات[1]

فنحن نحس بأن الشاعر يحس بالحيرة والعذاب ، وصار أسير اليأس والألم ، ونحن لو أخذنا نعدد صيحاته الوجدانية في ثنايا دواوينه الشعرية ، فسنجدها قد فاضت وزادت حتى صارت مذهبا وسجية .

ولم تكن عاطفة شاعرنا (طاهر الزمخشري) تقليدا أو تقلبا أو نزوة طارئة وإنما عرف بالحب فقد كان يحب نفسه ، ومن ثم كان كل مافي الحبيب يوحى إليه ويسر في أذنه حديثا يعلنه شعره فجماله وخياله وظله وبسمة شفتيه وفواحة عطره الذاكى ورضاه كل ذلك مصادر الهام للشاعر يستوحى بها كل تلك المعانى :

وإذا تتبعنا قصائده التي تضم في ثناياها تلك العاطفة نجدها واضحة في العناوين

---

(١) ديوان معازف الأشجان للشاعر (طاهر الزمخشري) ص ١٧٣ .

الآتية في ديوانه « نافذة على القمر » فمن تلك القصائد : النافذة ــ عودة الشباب ــ أحلام ــ حنانيك ــ ابتسامة ــ صدفة ميلاد حب ــ الحب الوليد ــ صورة ــ صوتها ــ صدى الحديث ــ مع الذكريات ــ عزاء الحب ــ في الطريق اليها ــ معزف الحب ــ الشوق العائد ــ الأماني ــ رجاء النفس ــ أغلى من الحب أسكتي ياجراح ــ عبير الذكريات .

وإن عاطفة شاعرنا المرهفة لم تقف عند الإحساس بذات نفسه ، بل أحسّ بما يعتمل في الآخرين ، يقول في قصيدة « الانتظار »

فتصطخب العواطف ساخرات   وتطعنني بأطراف الحراب
وتشفق بعدما تقسو فتمضي   لتقرع كل نافذة وباب

وهذا يدل على أن الشاعر يقاسم الناس السَّراء والضراء وتدل على المشاركة الوجدانية ، وعناوين القصائد الشعرية (لطاهر الزمخشري)[1] تحوى هذا المعنى بالإحساس بما يدور في قلب حبيبته في قصيدة « إلى صخرة » يقول شاعرنا :

وتلتف الخواطر حوّل نفسي   تطارحها المخاوف في الدجون
وتذكى في خوالجها شكوكا   تخر بحر لاهبها وتيني

وفي قصيدة أخرى بعنوان « إلى يراع » يقول فيها[2] :

وأناغيه بالذي جاش في الصّدر   فيشفى العصّى من دوائى

وتشتعل العاطفة في نفسه وتكون روحها روحا واحدة وهذا يدل على المشاركة الوجدانية الكاملة نظرا لإلتقاء الأرواح وفي هذا المعنى يقول شاعرنا :[3]

---

(١) ديوان عودة الغريب لطاهر الزمخشري ص ٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٩٠ .

فتعـالى نمتـزج روحين ذابــا في التــرانيم الوضيئــات المعــانى
فلقد طابت لنا النجوى وراحت ذكريات الأمس تشدو بالأمـانى
أغنيـات حلـوة الترتيـل والأوتـار قلبـان إستفــاضا بالحنــــان
فتناسينـا لهيب الشجـــن الكـــاوى وماكنـــا نقـــاسى ونعـــانى
بعـد أن عدنـا اليـفين ، وقـد كنـا نعـاني من تصــاريـف الزمـان
كلمـا صفـقت الفرحـــة باللقيـــا توارت بين دقـــات الثـــوانى
فتعـالى نملأ الدنيـا حنانـــا وتفـــز بالصفـــو في ظل الأمــــان

يتضح مما سبق أن شعره كلـه ألم وشجـن وقلـق وهـم ، محب عاشق لا يجد إلا الذكـرى سلـوى فالنـاى يحتـرق ، والعاطفـة تهب ، والعاصفـة تعصف بالـروح ، رسائل محترقة ، والفراق قد تحقق ، والشكوى من الزمن .





خاتمة البحث

ختاما للبحث الذي قدمناه عن شاعرنا « طاهر زمخشري) نستطيع أن نخلص إلى النتائج التالية ـــ وكما يقول الدكتور (عبد الرحمن الطيب الأنصارى) في كتابه « ظاهرة الهروب في أغاريد الصحراء » :

« وهكذا تبين لنا بوضوح مظاهر الرومانتيكية في شعر شاعرنا وأهمها مظهر الهروب إلى جانب اكتمال ذاتيته في كل شعره فهو يتحدث عن أشياء يحس بها هو فقط كما يبدو في كل حركاته وفي كل تعبيراته قلقه بالحياة وضجره منها ومسحة الحزن الغالبة على شعره والتى جعلته يهفو إلى الطبيعة ثم يلتجىء آخر الأمر إلى الله جلا وعلا » .

هذا هو المبدأ الذي نهجه شاعرنا « طاهر الزمخشري » فلقد اتبع أصحاب المدرسة الرومانسية من الأوربيين ، ونسج على منوالهم فجاء شعره فرديا يصور فيه حبه ومشاعره ، وإن الناظر في شعر الزمخشري كله يجده مدفوعا بعاطفة رومانتيكية جبارة لم يتخلص منها منذ كان فتى يافعا يغترف من ثقافة الغرب ـــ وستظل هذه النبرة إلى النهاية .

وقد اتخذ لنفسه طريقا ، وظل الألم يصرخ في نفسه بمرارة الحب والشكوى ، والأنّات وآخر ديوان له شاهد على ذلك « عبير الذكريات »

وعلى أساس ذلك نخلص من النتيجة النهائية ونقول إن الشاعر « طاهر زمخشري » أحد المبدعين بالمدرسة الرومانتيكية الغربية في المملكة العربية السعودية .

* الابداع التعبيرى ، وصدق الوجدان هما الصفتان المميزتان لشعر (طاهر زمخشرى) .

* ألفاظه سهلة متعاقبة مسترسلة ، لا جمود فيها ولا إغراق تهدى إلى المعنى ، وتأخذ إلى الصورة بلا مجافاة أو مدارة ـــ والعاطفة تشرق من ثنايا تلك الألفاظ .

* ونودّ إلى أن نشير أن ما للبيئة العامة من أثر في النّهضة الأدبية وأن التقدم الاقتصادي له أثره الكبير في النهضة الأدبية ومايتبعه من توسع في التعليم في جميع المجالات وانتشار الصحافة والإذاعة والتلفزيون كل ذلك كان له أثره على الشعراء وعلى انتاجهم في المجتمع السعودي المتقدم .

المحتويـــات

الموضـــوع	رقم الصفحة
الاهـــداء	أ
مقـــدمـــة	ج
الفصل الأول	١
حضارة البيـئة	٣
الحـــالة السياسية	٤
تباشير الأدب في عهد الملك عبد العزيز	٨
بـــلاد الحجـــاز	١٣
الفصل الثاني	١٥
الحـــالة الاجتمـــاعية	١٧
عمـــل المـــرأة	١٩
زواج المـــرأة	٢٦
مكانة المرأة العربية عند الشعراء	٣١
إكتشـــاف البترول وتطور الحياة الاقتصادية وأثرهما في الاصلاح الاجتماعي السعودي	٣٣
الفصل الثالث	٣٧
الحـــالة الثقافية في الحجاز « التعليم في الحجاز »	٣٩
المؤَثِّرات المباشرة في النهضة الأدبيـــة	٤٦
المكتبـــات	٤٨
المرأة في الديانات السابقة	٥٠
مفهوم المرأة	٥٢
عناية الاسلام بتعليم المرأة	٥٤
الفصل الرابع	٦١
حياة الشّـــاعر طاهر الزمخشري	٦٣
رحـــلات الشـــاعر	٦٥

الموضـــوع	رقم الصفحة
الفصل الخامس	٧٥
عوامل تكوين الشاعرية « ظاهرة التأثر عند طاهر الزمخشري »	٧٦
أثر الثقافة الوافدة في شعر الحجاز	٧٨
كيف نشأ الأدب المْهجرى	٨١
الهـــروب الى الطبيعـــة	٩٦
تأثرات الشاعر طاهر الزمخشري بابن الرومي	١٠٩
ملامح التجديد في المضمون	١١٣
النزعة الوصفية	١١٩
النزعة العـاطفيـة	١٢٣
النزعة الانســانية	١٢٧
مدرســة الديــوان	١٢٩
الفصل السادس	١٣٩
مفاهيـم الأخـــلاق	١٤١
الأخلاق في الاســـلام	١٤٤
الاتجاه الانســـاني	١٤٨
المدح عند الشاعر	١٥٣
الغزل عند طاهر الزمخشري	١٥٨
الرثاء عند طاهر الزمخشري	١٦٣
الروحانيات عند الشاعر	١٦٦
الوطنيات عند الشاعر	١٧٤
الفصل السابع	١٧٩
الخصائص الفنية في شعر طاهر الزمخشري	١٨١
خاتمــة البحــث	١٩٧


مطابع الصفا
ALSAFA
PRINTERS